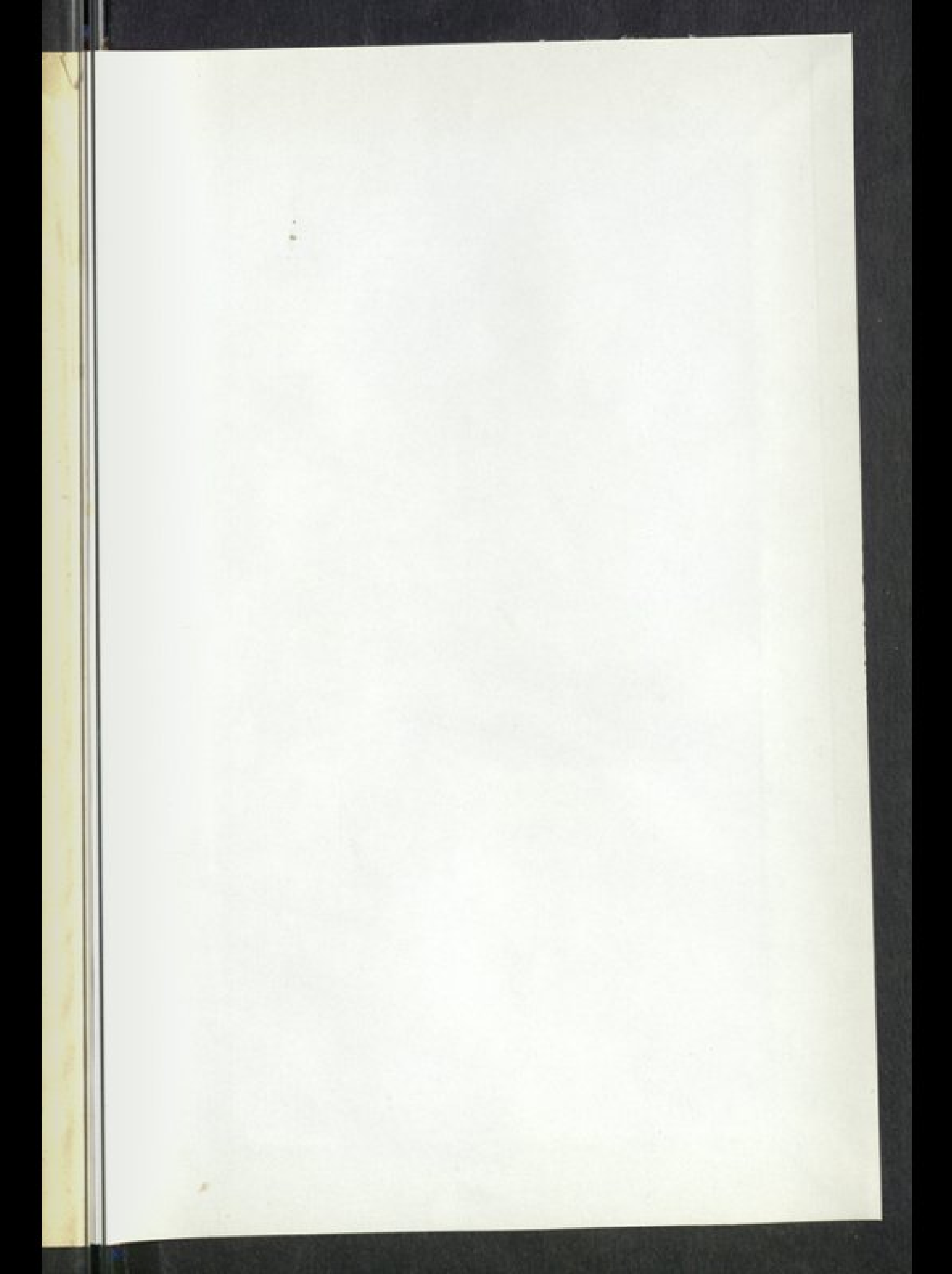
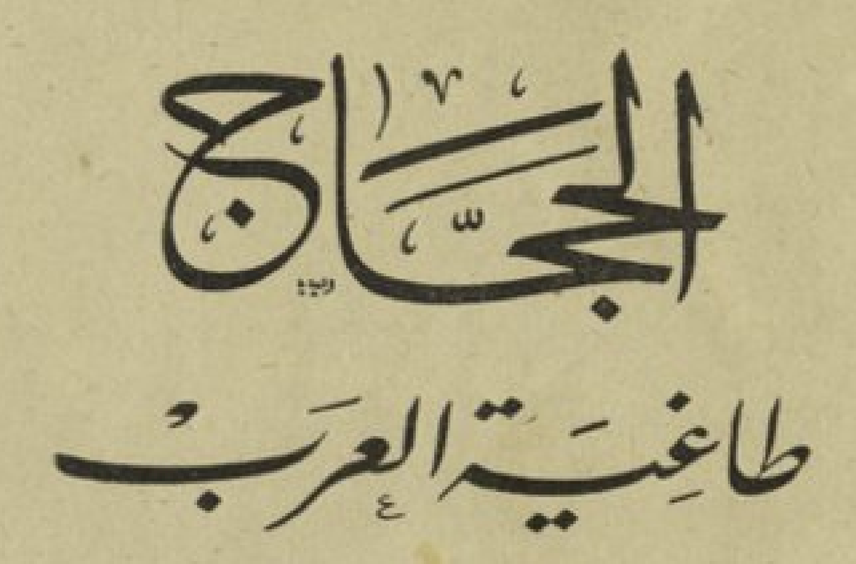
عبد اللطيف شرارة

الحجاج

منشورات دار المكشوف



عبد اللطيف شرارة



منشورات دار المكشوف

الطبعة الاولى ، بيروت – لبنان ، اذار ١٩٥٠

اهداء

الى ارواح الشهداء الابرياء الذين استهوتهم الحرية فماتوا دفاعاً عنها ،

الى ضحايا الظلم والطغيان في مشارق الارض ومغاربها ،

الى المعذبين والمعذبات الذين اغلقت في وجوههم ابواب العدالة ،

اهدي كتابي هذا .

للمؤلف

روح العروبة — المكتبة العصرية – صيدا
المرأة في حياة ادغار بو — دار المكشوف – بيروت

•

في الاعداد

في دنيا الجن
حالات انسانية (قصص)
اجواء واحاديث
من الاعماق (شعر)

مقدّمة

قصة الصراع بين الوثنية والايمان اروع ما في تاريخ النوع البشري من قصص لانها تجمل يقظةَ الانسان يوم أفاق على انسانيته ووعاها ، يوم ادرك في لحظة نيّرة باهرة انه غيرُ الحيوان ...

كانت اروعَ قصة ولا تزال ، وستستمر اروعَ وأغنى وأزكى وأنمى قصةٍ يمكن الانسان ان يعيشها في نفسه ، وفي بيئتِهِ ، وفي عصره .

أعجّلُ فأوضحُ اننا ، أعني ابناء هذا العصر من كل جنس وملة وبلد ، لم نوفق بعد الى تركيز فكرة قوية ثابتة عن الوثنية الصحيحة ، ولا عن الايمان الصحيح .

لا نزالُ نؤخذ ، إزاء هذا الموضوع خاصة ، بالمظاهر الخلابة . لا نزال نكتفي بالكلمات الرنانة . لا نزال نتأثر بالصّوَر الخارجية وألوانها الزاهية الصاخبة دونما نظر في الحقائق الفاعلة العميقة المؤثرة التي توجهُ سلوك الافراد وتحرّك الجماعات .

وعلى هذا ، نحن لا نعرف الايمان ، ولا نفهمه ولا نستشعره في اعماقنا تجاه دين ، ولا مبدإ ، ولا فكرة ، ولا مذهب ، ولا كلمة من الكلمات التي ندّعي اننا نعمل من اجلها ، او نناضل في سبيلها . نحن وثنيون في الحقيقة ، وإن كنا ننفي هذا الوصف

عن انفسنا ، ونتنكر لمن يجرؤ على وصفنا به .

ذلك بان الوثنية ليست ضرباً من العبادة مارسه الاقدمون ، وفرغ من امره المحدثون . الوثنية فلسفة حية اصيلة في كيان كل انسان لم يجهد في التخلص من حيوانيته . وكل من لم يستيقظ بعد على حياة يملؤها الرفقُ والحب والعدل والصفاء كان وثنياً وإن عاش عمره ناسكاً في المسجد يتلو الاوراد ، او راهباً في الدير يتعبّدُ آناءَ الليل وأطراف النهار . الوثنية طريقة في التفكير ، وأسلوبٌ في العمل ، واتجاهٌ في الشعور ، بنسبة ما هي اعتقادات خرافية ، وطقوسٌ صبيانيــة ، وأحكامٌ اعتباطية على الاشخاص والحوادث والاشياء . وهي ، الى ذلك ، وحدة متماسكة منسجمة الاجزاء ، لا تنقسمُ على نفسها ، ولا تضطربُ في تناول الحياة مهما تألبت عليها الكوارث ونازلتها الاقدار .

والوثنيّ مخلوقٌ يستحيلُ عليه ان يفهم الحياة إلا انهــا تنازعٌ على البقاء ، والسياسةَ إلا انها خضوعٌ لمقتضيات الظروف ، والسعادة إلا انها حيازةُ اكبر كمية من وسائل الرفاهيــة المادية ، والعظمةَ إلا انها تصفيق اكثر عددٍ من الجماهير ، والحريةَ إلا ان يعملَ ما يشتهي ، والحبّ إلا انه عملٌ جنسيٌ محض إنْ في بواعثه وإن في اهدافه . أما التضحية والنزاهةُ والنبلُ فهذي معــانٍ لا ظِلّ لها في ذهنه ، بَلْهَ حياته ، واذا تحدث عنهــا غيره لوى جيده هازئاً مغشياً عليه من الضحك .

تلك هي مفاهيم الوثني لقضايا الحيــاة الكبرى ... وهي مفاهيم اساسية ، لا سبيل الى رفع مستوى الانسان إلا حين ينشأ في نفسه صراعٌ مع نفسه قصد تغييرها وتحويلها عن وضعها الوثني الاصيل .

اما اذا بنى شخصيته على اساسها فلا يفيده معها ان يكون مسيحياً ، او ان يعُدّ نفسه مسيحياً ، لانه في واقع موقفه الانساني والاخلاقي « وثني مسيحي » . وهو « وثنيّ مسلم » حين يحتفظ بتلك المفاهيم في اساس كيانه الروحي ، وإن سجّلَ على نفسه انه يعتنق الاسلام .

أعود بعد هذا الى فكرة الايمان التي أحسِبُها نقيض الوثنية : تأمل تجدْ ، من غير عناء ، ان سقراط الذي شرب السم دفاعاً عن آرائه لا يختلف في كثير ولا قليل عن غاليلو الذي سملوا عينيه وعلّقوه على المشنقة ولم يتنازل عن فكرته في دوران الارض . وسقراط وغاليلو لا يختلفان عن اي مسيحي أحرقه نيرون ، ولا عن اي خارجي قتله الحجاج .

المهم في الانسان ، كي يصبح انساناً ، ان يؤمن ، وان يسخر حياته لما يؤمن به . ولا فرق بين وجهات الايمان ، وطنية كانت او فلسفية او علمية او دينية . ومتى آمن الفرد بفكرة ما ، وكان إيمانه من الحرارة والعمق والشمول بحيث يحمله على التضحية ، فذاك يعني انه انتقل من طور الحيوانية ، واصبح ذا قيمة لا تعدِلها قيمة ! اصبح وله مُبرِّر لوجوده يستلّهُ من منطق حياته ويفرضه على العالم فرضاً ! اصبح بطلاً يتحدّى الواقع وينتصر على ترّهاته !

وسرّ هذه البطولة ، التي لا معدىً لاحدٍ عن إنكارها ، ان الايمان حركة إيجابية تنطلق من اعماق النفس لتنشيء وتبني دون ان يكون لها غاية حيوانية تستهدف بلوغها . اما الوثنية فسلبٌ مطلق ، او هي جمودٌ مطلق ، لا تتحرّكُ من تلقاء ذاتها في معارضة ،

ولا تثور من اجل مبدإ او فكرة ، ولكن المؤمنـــين هم الذين يصادمونها في تحركهم وانطلاقهم نحو اهدافهم المثلى ، ومن صِدامهم إياها تدبّ فيها الحركة . بيد ان حركتها عمياء رعناء تحطّم بهـا نفسها ، وتشل ، بالتالي ، فاعلية الايمان .

ذلك ما جرى للنصرانية بدءَ عهدها اذ اندفع الرسُلُ يدعون الى تعاليم جديدة من شأنها ان تُقِضّ على الملوك مضاجعهم ، وتحرم ذوي القصور والجواري والاماء امتيـــازاتهم وملذاتهم . ولسوف تنتهي الى ثلّ العروش إن لم يضع لها ارباب الثراء والعروشُ حدّاً تقف عنده .

في هذه اللحظة الحاسمة من تاريخ الانسانية وُلِد نيرون . وفي جوّ هذا الصراع بين المسيحية الناشئة والوثنية القائمة ، ظهر نيرون على مسرح العالم .

ثم ... ثم نشبت معركة بين قوات الطغيـــان الوثني وطلائع الايمان المسيحي راحت تتسع وتشتد مع الايام ، واستمرت تمتدّ وتمتدّ طوال اربعة قرون عاتيـة تحمّلَ خلالها المسيحيون الاوّلُ من صنوف الاضطهاد وأفانين العذاب وضروب الحرمان والعسف والتنكيل ما لا قِبَلَ لاحد، من ابناء هذا العصر ، ان يتصوّر تحمّله ، او يدرك مرارته . فلمـا ضاق الوثنيون ذرعاً ، ولمسوا ان اضطهادا لحركة الناشئة يزيدُها قوةً وشدة ، عمدوا الى التلبّس بها وتبنيها ، واتخذوا من انفسهم حماةً لها . وحينذاك هدأ الصراع .

ولكن تغلّب النصرانية ، نتيجةَ انسياق الاسيـاد الوثنيين في تيارها وتقبلهم عناوينهـا ، جعلها تسيطر على الحيـاة الاجتماعية سيطرة اسمية لا فعليّة ، مظهرية لا جوهريّة ، فـانطفـأت مع

الايام جذوة المؤمنين المناضلين ، ولم يبق لها من مجـال ثوري تتحرك فيه ... ثم ما كادت تتم لها السيطرة حتى أخذت تتفكك ، وتتشعب آراء معتنقيها، وتتضارب اجتهادات أنصارها ، الى ان تمكنت الوثنية من استعادة سلطانهـا الفعلي على النفوس ، تحت ستار كثيف من الايمان المسيحي ، لم يلبث ان رق وتهلهل ، فما اوفى القرن الثامن عشر على نهايته حتى مزق في كثير من الاقطار، وسفرت الوثنية عن وجهها في جملة من الفلسفات والعقائد ...

تلك هي حكاية الوثنية مع الايمان المسيحي .

وحكاية الوثنية مع الاسلام ليست اقل روعة وطرافة من سابقتها . غير انها ليست من الوضوح بمنزلة تلك ، ولا سبيل فيها الى التتبع المتسلسل ، اذ قضي على جزء كبير من تفاصيلها ، وامحى من آثارها ما يجعلنا نتوقف عن ترميمها .

وقد نجم هذا الغموض لان الاسلام نشأ في بيئة عنيفة المزاج ، صلبة العريكة ، شديدة المِراس ، فكان بحكم هـذه النشأة قويّ الشكيمة ، حارّ الحماسة . فما كاد يجول جولاتـه الاولى في صراعه مع الوثنية ، حتى انهارت مقاومة الوثنيين انهياراً مفاجئاً ، وتصدّعت جبهاتهم في الداخل ، داخل الجزيرة العربية ، بشكل لم يبق امامهم من وسيلة للنجاة إلا ان يعتنقوا الاسلام . وهكذا كان ... ثم هكذا قُضي على تاريخهم ومخلّفاتهم وآثارهم قضاءً تاماً .

وحاولت الوثنية العربية بعد وفاة الرسول العربي ان تنتقض على الاسلام ، وراحت تتجمّع وتناضل تهرّباً من التبعات الـتي القاها الدين الجديد على عاتقها ، فوقف لها الخليفة الاولُ بالمرصاد ،

وأصلاها حروباً يسميها المؤرخون «حروب الردّة»، لم تقم بعدها للوثنيين قائمة ... وسارت الحياة العامة في موكب اسلامي صرف ليس للمتخلفين عنه غير الخزي والدمار.

وهنا لجأ الوثنيون الذين واكبوا الحركة الاسلامية باجسامهم لا بارواحهم، بالسنتهم لا بقلوبهم – لجأوا الى المظاهر والعناوين الاسلامية يحتمون بها، ويدافعون عنها، في انتظار الساعة التي تمكنهم من الحكم والسيطرة باسمها. واذا كانوا قد تخلّوا عن جهاد المؤمنين، وفاتتهم نِعَمُ الايمان التي يسخرون منها، فلن تفوتهم نعمة الملك والسيطرة والاثراء، ولن يسمحوا لها ان تفوتهم، بل لن يتركوا للمؤمنين فرصة يزحمونهم فيها عليها. واذا زوحموا، فلكلّ حادث حديث ...

ولم يطُل موعدُ الموقف المرتقب فقد اقبل في اقل من نصف قرن بعد نشوء الحركة الاسلامية. اقبل والوثنيون ينتظرونه، ولكنهم في هذه المرة مسلمون، فلن تنحرفَ عنهم الجماهير، ولن يُتاح لاعدائهم من المؤمنين ان يحاربوهم بسلاح لا يملكونه ... وعند ذلك دبّ الانقسام، وتشعّبت مسالك الآراء، وكثرت الاجتهادات، واضطرب الامن وسادت الفوضى.

ونفذت الوثنية المسلمةُ من هذه الثغرة الى تحقيق احلامها في الملك. وما هي إلا جولة او جولتان حتى سيطرت على مقدرات الحكم، واصبح بيدها الامر، تمنع من تشاء وتعطي منْ تشاء.

ورجع المؤمنون الى نضالهم، ولكل مؤمن رأيه وفلسفته، وامتد الصراع وامتد ... بشكل جنونيّ رهيب لما يرسب في أغواره، لدى الفريقين المتنازعين، من أحقاد وثارات ودماء.

ثم مرت فترة اوشك بها الايمان ان ينتصر ، وأحاط بالوثنية الرعبُ والهلع ، وراحت تتعثرُ في سلوكها ، تنهض مرة وتكبو اخرى .

في هذه اللحظة الحاسمة ، وحمّى الصراع في اعلى درجاتها ، اطلقت الوثنية العربية فتى يمثلُ كل ما في روحها من عنف ، وقذفت به في المعترك الجاحم ينافح عن حياضها ، ويستعيد سلطانها ، وينتقم لها من اعدائها ، فكان الحجّاج ...

... والحجّاج ، ككل شخصية تاريخية اثّرت في معاصريها ابلغ التأثير ، تحوّل في آخر ايامه ، ثم بعد هلاكه ، الى « اسطورة » تصوّر البطش والظلم والقسوة .

لا بدّ للمؤرخ اذن من السهر ، في مثل هذه الحال ، على فصل « الاسطورة » وأجزائها المحشوّة ، عن « الشخصية التاريخية » لدى كل حادثة او خبر او رواية او تعليق ، ليتمكن من إعطاء وقائع ثابتة يفيد منها العلم في توجيه الحياة الانسانية ، ويبني على اساسها احكامه ، وإلا فقدَ البحث التاريخي قيمته ، وأفضى الى ضرب من التهويل والتعصب السخيف .

بيد ان موقف المؤرخ هنا ادقّ من الاستقراء ، وأعمق من تمحيص الوثائق ، واحرج مما يتصوّره العالم الذي يكتفي بالملاحظة وتنتهي مهمته عند عرض ملاحظاته والكشف عن تنقيباته . وذاك لان الاسطورة لا تتلبّس شخصية ما إلا تعبيراً عن حقيقة فاعلة مؤثرة لم يجد الجمهور سبيلاً الى ايضاحها وتوضيح اثرها في حياته إلا باستعمال الخيال واستعانة المبالغة .

على هذا النحو تشكلت اسطورة عنترة بن شداد ، وحيكت اسطورة مجنون ليلى ، وأنهيت الينا سِيرُ اكثر الصالحين والفاجرين والفاسقين ... والاسطورة انما تحاك حول شخصية طغت عليها صورة معيّنة ، وانتشرت في الناس عنها فكرة معينة .

ثم ينبغي لنا ان نلحظ ناحية هامة في نشأة كل اسطورة ، هي ان الجمهور لا يتحكم ، ولا يستطيع ان يتحكم بالاساس الذي تبنى عليه الاسطورة ، اي انه لا يختار ، بعبارة اوضح ، نوع الفكرة التي تنتشر عن الشخصية الاسطورية ، ولا يرسم خطوطها الاولى وإن كان يضخمها ويزيد في ألوانها ويحمّلها فوق طاقتها من مغريات تفصيلية . فحاتم الطائي لم يصبح اسطورة الكرم عن رغبة واعية في الجماهير لتعظيم حاتم بالذات ، وعنترة لم يصبح اسطورة الفروسية إكراماً لأخواله الحاميين السود ! وإنما هي الحقيقة ، حقيقة هؤلاء الاشخاص، تشبع وتشمل وتفيض، وتتبلور اخيراً في اسطورة.

... وثمة ناحية اعقد من تمييز الحقائق وفصلها عن التلفيقات والاراجيف والمبالغات ، وهي ان لكل شخصية تاريخية بارزة أعداءً وأحباءً . ولها في الناس ، في الاحياء منهم ، من يشجب سلوكها ، ومن يحبذه . فكيف يكون موقف المؤرخ ؟

الرأي الكلاسيكي القديم ، وهو الرأي السائد ، يقول بوجوب الاخذ بمبدإ « الحياد » في مثل هذه الابحاث والدراسات . ولا ادري ما هو المقصود بالضبط من كلمة « حياد » في عرض سيرة امرىء من الناس ،كائناً من كان ، وكائنة ما كانت سيرته، لان وراء كل موقف أخلاقي يتخذه الانسان – والحياد موقف اخلاقي –

غاية يحققها ، او يهدف الى تحقيقهـا ، بمجرد اتخاذه . والغايات تختلف وتتعدّد وتتنوّع حسب الازمنة والامكنة والاشخاص . فالحياد في البحث التاريخي معنى غامضٌ مبهمٌ لا يتضح مدلوله إلا بوضوح الغايات التي يستهدفها .

غير اني استطيع ان اعرض هنـا موقفي ، دون ان اطيل البحث ، فأضع هذا السؤال بين يدي القارىء : اذا حدث لك ان تقف مرة حكماً بين العدل والظلم ، بين الحرية والعبودية ، ففي اي جانب تقف ؟

الحياد يقضي ، في مفهومه العام ، ان لا تنحاز الى احد الفريقين المتنازعين . اما انا فلا استطيع ، في هذه الحالة واشباهها ، ان اسكت وانا قادر على الكلام ، وهل اقل من الكلام في مثل هذا المقام ؟

ثم إن الحياد ازاء اي صراع ينشب بين الحق والباطل ، بين الاثرة والايثار ... لا يكون ، في جوهر معناه ، الا غفلة الفكر عن وعي جمالات الحياة ، والاستمتاع بما تختزن قلبها من افراح ومسرات ، ان لم يكن جبناً يشل نشاط الروح ، ويحملها على الانطواء في اطار حيواني محض ، تعيش به كما يعيش الضبّ في وجاره ، والحلزون في قوقعته .

ولكن استحالة الحياد في المعارك التي تخوضها الحرية ضد الطغيان او الايمان ضد الوثنية ، او الفضيلة ضد الرذيلة ، لا تقضي الى استحالة « الانصاف » لان الانصاف ممكن ، وبالتالي واجب ، في جميع الاحوال والظروف . وعلى مؤرخي السيرة وكتابها خاصة

ان يلتزموا جانب الانصاف كلما عرضوا لشخصية تاريخية مهما يكن شأنها واثرها في الحياة .

بيد ان الانصاف عملية مركبة متشابكة . وهي ، الى تركيبها وتشابكها ، اقرب لان تكون ذاتية من ان تكون موضوعية لانها ليست عمل فكر محض ، ولا عمل عاطفة محض ، ولا عمل اطلاع محض . انها عملية انتخاب ، اعني انتخاب الظواهر والاخبار والافكار والروايات والتفاصيل ، ومزجها في وحدة متناسقة تبرز بها الصورة الحية الصحيحة . والانتخاب عمل الذوق والارادة . لذلك ، لا يستطيع المؤرخ ان يكون منصفاً الا حين يعمد الى ايضاح جملة العوامل والظروف التي تعاونت على ايجاد جو معين تنبت فيه وتعيش شخصية معينة ، حتى اذا تناول هذه الشخصية بالدرس القى النور على محركاتها الذاتية وبواعث العمل عندها ، ليخلص الى تمييز ما تختص به مما تشارك فيه سائر الناس .

وهذا ما حاولتُ ان اقوم به في دراستي هذه ...

بنت جبيل ، ١٢ شباط ١٩٥٠ .

عبد اللطيف شراره

نحو النجاح

١ – ملتقى المطامع

كل حركة اجتماعية شاملة ُمختلفَ وجوه النشاط الانساني ، رامية الى قلب الاوضاع العامة ، تؤدّي ، بعد ان تبلغ اهدافها المرسومة ، الى فوضى ، ثم الى طغيان .

وذلك لان الحركات الانقلابية تجهَدُ ، اول ما تجهد ، في تحطيم الانظمة القائمة ، وتهديم العادات والتقاليد المتوارثة ، حتى اذا تمّ لها ما تريد ، ووُفقت الى القضاء على الماضي – وهي لا توفق الى محوه محواً تاماً مطلقاً – واجهت عندئذ هدفاً ابعد من الاول ، وأصعب منالاً ، وأعسر سبيلاً ، ألا وهو « البناء » على اسس جديدة ، وتركيز واقع جديد ، في شتى القضايا العامة ، والشؤون الحيوية الهامة .

لقد كان من امر الثورة الافرنسية الكبرى ، مثلاً ، ان افضت الى سلسلة ثورات ، وأصيبت في جوهر مبادئها بعدة نكسات من تحكم الثائرين انفسهم كروبسبيير ومارا ، الى دكتاتورية عسكرية امرّ وأقسى من عهد الملوك جعلت نابليون « امبراطوراً » ، وأرهقت الامة الافرنسية بالحروب ، واخيراً الى رجوع الاسرة المالكة للحكم ، وكانت الثورة قد اندلعت لاقصائها عنه ، فكأنها دارت

ودارت ، ولم تخرج من دائرتها إلا بعد آلام وكوارث ، حتى استقرت ، بعد لأي ، في ظل الجمهورية .

وكان من امر الثورة الانكليزية التي تمت على يد كرومويل عام ١٦٥٣ – وكانت تستهدف حماية النظام البرلماني – ان انتهت الى عكس اهدافها ، وانجاب رهجها عن استبداد مطلق ، تحول معه النظام النيابي الى العوبة بيد كرومويل نفسه ، قائد الثورة وحامل لوائها !

اما الحركة الاسلامية – وهي حركة انقلابية أعم وأشمل من سائر الحركات – فقد وُفقت بادىء ذي بدء الى فرض نفسها ، وتمكنت من توحيد العرب وجمع شملهم داخل الجزيرة العربيـة ، ودفعت بهم ، بعد ان انتظموا في صفها واتجاهها ، الى الفتح والسلطان ، حتى اذا اخذوا في اقتطاف الثمار ، عادوا سيرتهم الاولى ، وانقسمت الحركة على نفسها ، ودبّ اليها التصدّع ، وراحت تتفسخ وتتفسخ حتى آلت الى ما آلت اليه من وهن وجمود ...

غير اننا هنا ، اي في صميم الحركة الاسلامية ، تجـاه مشكلة اساسية كبرى ، هي ان الرسول العربي وضع أسس « دين » ولم يضع اسس « دولة » ، ودعا الى مبادىء وتعاليم روحية ، نظم بها علاقات الافراد ، جميع العلاقات وجميع الافراد ، لجميـع اهل الارض ، للناس كافة ، ولم يدعُ الى مبـادىء سياسية معينة تحد السلطة بحدود ، وتحصرها بدستور ، على نحو ما شهد التاريخ عند الساسة والسلاطين ، لانه لم يكن يعتبر نفسه غير رسول « قد خلت من قبله الرسل » ، فليس عليه الا ان يبلّغ رسالته ، وقد بلّغها ...

ولكن النبيّ كان ، الى صفته صاحب رسالة او حامل رسالة ، ذا « سلطة زمنية » واسعة ، تمت له بعد بعثه نبياً . واجتمعت له عواملها بما انزل عليه من وحي ، وما خاض من ميادين النضال ، وما اظهر من قوة وتفوق في اعماله ومواقفه ، ومـا اوتي من جليل الصفات وعظيم الاخلاق . فمن يخلفه بعد وفاته ؟

هذا هو السؤال الذي واجهه العرب المسلمون بعد وفاة الرسول ، وراح كل واحد يجيب عليه بجواب يختلف عن جواب الآخر ، ويؤيد رأيه بما انتهى اليه علمه ، وتوافرت لديه حججه . واغرب ما في هذه المشكلة ان احداً لم يطرح ذلك السؤال على الرسول قبل وفاته ، ولا فكر فيه احد اثناء حياته تفكيراً واضحاً تنجلي به الشبهات وينقطع معه دابر الفضول والتخرصات !

واكبر الظن ان ذلك « السؤال »، الذي شغل الدنيا فيما بعد ، واقام الحوادث واقعدها ، كان غير وارد في عهد الرسول ، وهو لم يكن وارداً لجملة اسباب وظروف ، كلها منطقي ، وكلها معقول : منها ان النبي كان منصرفاً الى توطيد المبادىء التي دعا اليها ، باذلاً همه واهتمامه في تركيزها وتمكينها من نفوس العرب ، مستغرقاً في الاحتياط لها وتدعيم بنائها . ومنها ان اصحابه كانوا يخوضون معركة حاسمة لا يضمن احدٌ فيها حياته ، فلم تُتِح لهم من الراحة والفراغ ما يحملهم على النظر في هذا الامر بشكل مطمئن هادىء . ومنها ان الرسالة ذاتها تنطوي على تعاليم واقية ، لا يضير الامة من بعدها شيء ، اذا اخذت في تطبيقها ووعتها وعياً كاملاً ...

وليس هذا كل ما هنالك ، فان موقف الرسول نفسه كان

— كما نفهمه اليوم — من الدقة والحرج في منزلة لا سبيل معها الى « إثارة » مشكلة الخلافة ، اذ كان يجد دوماً ان وقتها لم يحن بعد حتى توفاه الله ووقتها لم يحن ... ولا يبعد ابداً ان يكون قد اقصاها ، نتيجةَ اجتهاد سياسي ، عن دائرة جهوده ، ونفاها عامداً متعمداً من وقته وتفكيره ، لان في نفيها هذا حكمة لا يرقى اليها شك ، ولا يطالها تجريح !

تأمل انها لو أثيرت في عهده لأساءت حتماً الى انسجام خططه ، ولعكرت عليه صفاء الجوّ الذي أفنى ايامه في إيجاده ، ولراحت تضطرّه الى إهمال الشؤون الكبرى بما تثيره في الداخل ، داخل الجزيرة العربية ، من اضطرابات وقلاقل كان يجهد في تحاشيها ، وكان إغفال امر الخلافة اول اسباب ذلك التحاشي ...

بيد ان هذا كله لا يمنع انه كان للنبي في الوقت نفسه رأيه الخاص في الاشخاص الذين تعاون معهم ، وأعانوه على اداء الرسالة التي جاء بها ، وساهموا في انتصاره وانتصارها . فمن اين لنا ان نعرف ذلك الرأي ، وهو لم يستعلن في وثيقة صريحة ، ولا بدا للناس في وضوح دامغ ؟

الظاهر ... الظاهر مما يؤخذ من مُجمل السير والاحاديث والتواريخ انه كان « يميل » الى تفضيل الامام علي بن ابي طالب على غيره من الصحابة والتابعين ، ولكن علياً صهره وابن عمه ، فلا يملك ان يفرضه على الناس فرضاً . واذا كان في رسالته ان يجاهد من اجل « الحق » او « الاعتقاد » فان مجاهدة الناس من اجل « شخص » يمت اليه بكل اواصر القربى ، تجعل المنافقين — وما اكثرهم في عهده ! — في سعة من الارجاف ، وتمنحهم

قوّة معنوية يهاجمون بها كلّ ما انشأ وأقام .

لذلك آثر التلميح على التصريح ، ولجأ الى الرمزية في إظهار ميله ، الا انها رمزية شفافة ، لا تفصح عن السر ولكنها تكاد ، وتستخدم الايحاء ولكنها لا تبوح ، وتستعلن في الاعمال ولكنها تتحامى الاقوال ، حتى ادركها كل من لازمه وخالطه ، فما كان احد يشك ان الامر سيكون خارج علي .

إلا ان الطامحين الى السلطة من وجوه القبائل وأشراف العرب والانصار ، رأوا في هذا الموقف الغامض – وسلوكهم هو الباعث على غموضه الى حدٍ بعيد – منفــذاً واسعاً لمطامحهم ، وثغرة يتسلّلون منها الى الجاه والسلطان . فقرّ بهم الرأي فور وفـــاة الرسول على اصطناع صورة للشورى ، فاجتمعوا دون ان يكون لعلي يدٌ او علم باجتماعهم ، وبايعوا ابا بكر بالخلافة ، وقضي الامر الذي فيه يختلفون .

ورأى الامام ان القضية الكبرى مصونة على يد الذين انتخبوا في عهده ، فوقف الى جانب الشورى يُتابـع كل مـا يجري في محيطها ، ويوجّه ، ويخطط ، ويعمل كل ما يعود على الامة بالخير ، ويدرأ عنها عادية الشقاق .

ولكن الشورى فتحت للروح القبلية وشوائبهـــا الهدّامة كل الابواب التي اوصدها الاسلام من تنابذ بالالقاب ، الى تخاذل في رعاية الشؤون العامة ، الى عصبية هوجاء في تقدير الاعمال والاشخاص ، الى تذبذب بين المعسكرات المنشقة . فما ان استتبّ الامر لعثمان حتى نشطت الاحقاد القبلية من عقالها ، وقامت الاطماع الى جيشانها ، واستعلنت العداوات والخصومات اخيراً في الفتنة التي ذهبت بالخليفة

الثالث ، كما استعانت شهوات الحكم والسلطان في الحوادث العارمة التي حدثت بعد مقتل عثمان . واذا بكل امرىء يريد ان يكون والياً ، واذا بالجماعات تنقسم وتتفكك ، وتتألب حول شخص وفكرة ، واذا لكل فكرة مؤيدون ومعارضون ، واذا لكل معارضة فلسفة ، ولكل تأييد فلسفة .

في هذا الجو المكفهر ، في هذه الغمرة الخانقة من الشهوات والمطامع والأحقاد والثارات ، بويع الامام علي بالخلافة ، فوجد نفسه بين امرين لا ثالث لهما : إما ان يلبي طلبات الطامعين بالولاية والحكم ، الرامين الى السيطرة والاثراء – وكانوا اكثر من ان يحصيهم عد – وإما ان يقيم حدود الشريعة التي نافح دونها ، فلا يُضيع مالَ الامة هدراً ، ولا ينفقه إلا في السبل التي امر الله ان ينفق فيها .

كان عليه ، اذن ، حين تولى السلطة ، ان يختار واحداً من هذين الامرين . بيد انه لم يفكر قط في الامر الاول ، ولا خطر بباله ان يحتفظ بالخلافة ، فوجه جهده واهتمامه الى الارتفاع بقومه نحو الحياة العادلة الخيّرة التي تصان بها حقوق الناس ، وتنأى عنها المظالم ، وتتأكد فيها عبقرية الدين الجديد ، ويتضح بتحقيقها ما غمض من جماله وقوته وسموه .

غير ان الامام كان في واد والناس من حوله في واد آخر دونما تمييز او تفريق بين انصاره واخصامه ، بل ان انصاره اظهروا فيما بعد، من الشدة عليه ، والعناد في آرائهم ، ما حمله على مكافحتهم ، والزمه جانب التضييق عليهم ، واكرهه على اخذهم بالعنف ، بعد ان اخفقت محاولاته في ارجاعهم الى حظيرة الصواب واقناعهم بالمنطق ، حتى

استشهد اخيراً نتيجة مؤامرتهم ومناوراتهم ...

واحدث قتل الامام علي يومئذ فراغاً هائلاً في كيان العالم الاسلامي ، واختل بفقــده التوازن الاجتماعي والروحي اختلالاً مرعباً اذ لم يبق ثمة من مرجع موثوق يرجع اليه في تقويم ما اعوجّ من الاخلاق ، وتسديد ما زلّ من الخطى ، واصلاح ما فسد من حال . وثارت المطامع من كل حدب وصوب ، وتألبت بعضها على بعض ، تتنــاحر في جانب ، وتتساند في جانب ، وتتضارب جانباً بجانب ، الى ان التقت جميعها ، وتلك حالها ، عند نقطة واحدة : الخلافة .

هذا ما افضى اليه الاخذ بمبدإ الشورى في بيئة لم تتحرر بعد التحرر الصحيح الكافي من عصبياتها القبلية ، وعنعناتها التاريخية .

ولكن عاصفة الاطماع التي اثارتها سياسة الخليفة الثالث ، والتي بلغت ذروة جموحها في مقتل الامام علي ، اخذت تنحدر رويداً رويداً نحو الهدوء ، حتى سكنت اخيراً ، ولكن جمراً تحت رماد ، في ظل معاوية الاول الذي انشأ دولة قبلية اموية في دمشق .

٢ — اساس الدولة الاموية

معاوية بن ابي سفيان ، الخليفة الاموي الاول ، هو الذي اسس الدولة الاموية . ولكن المهم ان نعرف كيف اصبح معاوية خليفة ، وما هي الطرق والوسائل التي مكنته في الارض ، وجعلته يتغلب على غيره من الطامعين .

لا مشاحة ان معاوية لم يرقَ منصة الخلافة نتيجة شورى ، ولا

وصل اليها عن طريق الوراثة . فهذا مما لا حاجة الى بيانه وتفصيله . وكل ما في الامر ان ظروفاً ملائمة واتتـه ، فأحسن تفهمها واتقن استغلالها ، فبلغ سدّة الحكم .

إلا ان حكاية وصوله الى الخلافة ، وما تقدّمه من حوادث ، وتهيّأ له من اسباب ، تُلقي النور على اساس الدولة الاموية مـن جهة ، وتكشف اسرار الاحداث التي رافقت قيامها وأفضت اخيراً الى زوالها ، من جهة ثانية .

كان معاوية عامل الخليفة الثاني على الشام ، عاش فيهـا امداً ينعم بخيراتها آمناً مطمئناً ، لا يرجو اكثر من ان تصان ولايته عليها . فلما ولي عثمان شدّ أزره واطلق يده ، الى ان انتسجت بينه وبين الشاميين مودّة عميقة ، فوثقوا به ووثق بهم ، واصبح الى حد بعيد واحداً منهم ، يشعر معهم ، ويشعرون معه في كل ما ينتابهم وينتابه . وكان لتأقلمه الشامي ، وبراعته في الافادة من ذلك « التأقلم » ، اثر فعّال في اجتذاب السكان اليه وتعاطفهم معه . فما أقام على ذلك مدة خلافتي عمر وعثمان حتى تحولت حياته ، كأمير شامي ، الى « حاجة » حيوية لا غنى له عنهـا ، ولا غنى للشاميين عنـه .

ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان ، هو قتل عثمان ومبايعة علي ... وهذا خبر معناه ان ايام معاوية في الولاية امست معدودة ، وان مركزه في الشام امسى مقلقلاً ، اذ يستحيل ان يرضى بـه الامام علي عاملاً ، والامام هو من هو في حزمه وشدته . اضف الى هذا ، ذلك العداء بين الهاشميين والامويين الذي يرقى به الزمن الى الجاهلية ، الى بدء الحركة الاسلامية ، الى خلافة ابي بكر ، الى

عمر ، واخيراً الى عثمان . فكيف السبيل لانقاذ الموقف واتقاء الكارثة ؟

إما ان يقتنع علي بابقائه في الحكم ، فهذا ما لا طمع له فيه ، وإما ان يذعِنَ للخليفة الجديد قبل ان يستنفدَ آخر ما لديه من وسائل العصيان ، اياً كانت وجهة العصيان ، فهذا مما يتنافى مع كيانه القبَلي وشخصيته المتوثبة للزعامة والتحكم والسيطرة . فعقد النية على المقاومة حتى النهاية ، وقرّ رأيه على استجماع القوى والاسباب التي تهيء له الغلبة ، ثم استغلال جميع الظروف والملابسات التي كانت تحيط بخصمه !

وكان مقتل عثمان – وهو من اقاربه – اولى تلك الملابسات وأغناها بالافكار والخواطر الابليسية . لن يبايع اذن علياً لسبب واضح « معقول » ، هو التبعة التي يمكنه ان يُلقيها عليه في مصرع الخليفة الثالث ، ولن يُعدَمَ بعد ذلك وسيلة تتيح له إقامة البرهان على هذه التهمة . المهم إيجاد مبرر للعصيان ، وقـــد وجده ! ثم لم يكتفِ به كمبرِّر ، وإنما اوغل في استغلاله ، وراح يصور علياً لاهل الشام ظالماً سفاكاً مغتصباً . فها هم القتلة المجرمون يسرحون ويمرحون على مرأى منه ومسمع ، ومنهم مـن اندسّ في صفوف جيشه وحمل لواءه . وإذن فعلي ليس الامام الذي تصح مبايعته .

ذلك ما شاع في الشام ، وتناقله اهلها ، واضطربت لهوله جموعها . وهكذا ... رسخ في عقول القوم وأفئدتهم ان الخليفة الجديـــد مغتصب . ولم يخطر لشائب منهم ولا لشاب ان يُعمِل الفكر فيما يُلقى اليه من قول ، او ان ينظر للقضية من زاوية غير هـــذه الزاوية التي فتحها لهم معاوية واعوانه ، بل هاجت النفوس وماجت

طلباً بدم عثمان « المظلوم » الشهيد ، وما كانت لتطلب بذلك الدم لو ان الامر انتقل الى غير علي ! اما وعلي هو الخليفة فلا صلح معه !

وتوالت الحوادث بعد ذلك ، وكلها في جملتها وتفصيلها تشدّ ازر معاوية فيما يبتغيه من ضعضعة موقف علي ، وإثارة القلاقل عليه ، وتعكير الجو حوله ، اذ نكث طلحة بيعته حين لمس جانب الحزم من الامام وقنِطَ من العِمالة . وتبعه الزبير على الاثر بالحافز ذاته . ووقفت السيدة عائشة الى جانب هذين ذاهبة في اقصى ضميرها الى أصطياد عصفورين بحجر واحد : إبعاد علي عن السلطة اولاً ، وإيلاء طلحة إمارة المؤمنين ثانياً .

تلفت الامام في هذه الغمرة المظلمة فلم يجد غير مطامع تجيش ، وأحقادٍ تفور ، وشبهات تتكاثف وتحجب النور عن الابصار . ما العمل ؟ أيستقيل ويترك الامر لغيره ؟ واذا استقال ... هل تصلح الحال ؟

لا جرم انه سيدعى من جديد الى تهدئة هذه العاصفة ، وتبديد عوامل الفوضى . ولكن هذه الفوضى ليست وليدة الساعة ، ولا هو عنها مسؤول ! إن جذورها تمتدّ في أبعدْ أبعاد التاريخ : في عصبية الجاهلية ، في الحركة الاسلامية وما رافقها من شؤون وشجون ، في يوم السقيفة وما انتهى اليه من مبايعة ابي بكر ، في انتقال الخلافة الى الفاروق ، في الشورى التي ادت الى تولية عثمان . وهي تضرب في عرقها القريب بنسب واضح الى اسلوب عثمان نفسه في الادارة . واسلوب عثمان الاداري يتلخص في كلمتين : لوهن والمحاباة . فقد وَهَنَ حتى اصبح خليفة اسماً ومروان

المسمى ، وحابى أهله وعشيرته حتى تحركت النعرات القبليــة ، وثارت عليه الامصار وفتكت به !

اما وقد اتضح الموقف امام علي ، فلم يبقَ الا ان يتلافى نتائج الاخطاء التي وقع بها سلفه ، وان يمضي في سياسة نزيهة حازمة ، مهما اكتنفها من مصاعب ، وعاق سبيلها من عقبات . فالناس لا يثقون الا به ، لما يعرفون فيه من صفات اظهرها منذ نعومــة اظفاره الى يومه ذاك : من شجاعة ، الى نزاهـة ، الى شدة في الحق ، الى صبر على المكاره ...

غير ان سياسة الحزم والنزاهة التي نشدها « المجموع » في شخص علي ، والتي اخذ علي في تطبيقها بعد البيعــة ، جاءت صاعقة ، وانقضت على رؤوس « الافراد » ، فراحوا ينقضون عهودهم فرداً فرداً ، ويظهرون العصيان واحداً تلو الآخر ، وينافقون حيث يقيهم النفاق آلام الجهاد ، مما اكره الامام على امتشاق الحسام ، وتأديب الناكثين والعاصين والمنافقين . فخاض اول معركة — معركة الجمل — ولما تمضِ على ولايته ايام . وكانت فاتحة سلسلة من المعارك دامت تتلاحق باستمرار الى ان جاء الحجاج بن يوسف ، ووضع لها حداً موقتاً بما اظهر من عنف ، واعتمـد من بطش ، وسلك من سُبل الاستبداد .

انتهت معركة الجمل بالتخلص من طلحة والزبير وعائشة ، اي ان علياً ساهمَ — تأمل شأن الاقدار وسيرَ التاريخ ! — في تهيئة الجو لمعاوية بما بذلَ من جهود في القضاء على الطامعين بالملك من اهل الحجاز ، لانهم كانوا يزاحمون ، في الوقت ذاته ، معاوية بما يراودهم من احلام ، وينزعون اليه من مطامح .

وجاءت واقعة صفين بعد الجمل ، وتلك خاضها الامام تأديباً لمعاوية ، وأوشك ان ينتصر فيها لولا... لولا الحيلة ، حيلة «التحكيم» التي تفتق عنها ذهن عمرو بن العاص ، اذ رفع جند معاوية المصاحف على رؤوس السيوف يناشدون جند علي الرجوع الى كتاب الله والرضى به « حكماً » . وكان من نتائج هذه الحيلة التي انطلت على معسكر الامام ان دب الشقاق الى جيشه ، وتصدعت الجبهة التي يقودها ، ونشأت فرقة « الخوارج » التي تشجب معاوية وعلياً معاً . وهكذا... اسفرت معركة صفين عن زعزعة شبه تامة لسلطة الامام .

ولكن الامام نفسه لم يتضعضع ، إذ رجع يحارب الخوارج - وهم اعداء معاوية ايضاً - لينصرف من ثم الى اعادة الكرة على معاوية ، فوقعت له معهم عدة مواقع انتصر فيها عليهم ، وشتت بها شملهم ، وأهمها معركة النهروان .

ومذ أيقن الخوارج ان لا خلاق لهم في مقاومة علي ، إن جَدَلاً وإن حرباً ، لجأوا الى التآمر فيما بينهم على معاوية وعلي وعمرو بن العاص . فنجحت مؤامرتهم على الامام ، واخفقت في الآخرين ، مما اخلى الجو لمعاوية ، وحمله من أيسر السبل الى سدة الخلافة ، ومنها الى اقامة الدولة الاموية .

فاذا فكرت الآن في ما مرّ بك من حوادث ، وجدتَ ان الدولة الاموية بُنيت على اساس من الطمع والتخاذل والخداع والمصادفة ، اي انها كانت في نشأتها شبيهة ، الى حد بعيد ، بدولة اسرائيل التي نشأت في قلب البلاد العربية نتيجة الاطماع والحبل والمصادفات وتخاذل العرب في عصرنا هذا ...

اما الطمع بالملك ، او الاثراء ، او السيطرة ، فظاهر بَيِّنٌ في تصرفات رجال ذلك العهد ، لا تستثنِ منهم احداً غير علي ومن حوله من الفقهاء والنساك . ويتجلى لك في سلوك الذين أيّدوا الامام اول ما ايدوه كطلحة والزبير وقيس بن سعد وزياد بن ابيه وأبي موسى الأشعري والأشعث بن قيس ، ورهط الخوارج اجمعين الذين انشقوا فيما بعد على انفسهم ، وراحوا ينشدون الخلافة عن طريق « الانتخاب » ، ويقتتلون عليها فيما بينهم . وهو اوضح واجلى في معسكر الامويين واتباعهم من عمرو بن العاص ، الى المغيرة ابن شعبة ، الى زياد بن ابيه الذي انحاز الى معاوية بعد قتل علي انحيازاً تاماً ، الى بطانة معاوية وصحبه كعبد الرحمان بن خالد ابن الوليد ، والضحاك بن قيس ، وشرحبيل بن السمط الكندي وغيرهم ...

والتخاذل – وهو نتيجة الاطماع المتزاحمة المتعارضة – بَيِّنٌ ايضاً فيما عاناه الامام من انقسام جنـــده ، وتدخل اعوانه في الشؤون العسكرية لدى كل شاردة وواردة ، ثم فيما عاناه معاوية نفسه ، ولكن على صعيد ايجابي ، من ارضاء الطامعين واسترضاء الساخطين ، وتأمين الخائفين على مناصبهم ، وتعقب اهل الوجاهة والنفوذ واجتذابهم بما بذل لهم من نفسه ، وأنهى اليهم من انتباهه ورعايته ، وأغدق عليهم من عطايا واموال ...

والخداع يطل عليك لاحب المعالم في اركان الدولة الاموية الثلاثة : معاوية ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة . فحيلة « التحكيم » يوم رفع المصاحف هي التي ابقت على الامويين ، وصانت حياة معاوية . و « قميص عثمان » هو الخدعة الكبرى

التي التف حولها اهل الشام وانطلت على عيونهم . واللجوء الى السم في قتل الحسن بن علي بعد عقد الصلح معه ، والتخلص من عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، والقضاء على الاشتر هو الذي مكّن لمعاوية في العراق ومصر وسوريا بعض التمكين إن لم يكن كله .

بقي اثر المصادفة في قيام الدولة الاموية ، وأية مصادفة اسعد من تلك التي سلم بها عمرو بن العاص ومعاوية ، وذهب الامام ضحيتها وحده ؟ بل ان المصادفات المؤآتية التي وقعت لمعاوية وحملت اليه النصر لم تقع لرجل غيره في اكثر ما نعرف من حقب التاريخ كالظروف التي احاطت بيعة علي ، الى ولاية الشام بالذات في تلك البرهة ، الى ذلك الجو الشامل من التفكك الاجتماعي والتخبط السياسي ، الى... الى ما لا يتسع لذكره المقام.

وقد فطن معاصرو معاوية ، من مؤيديه واعدائه ، على السواء ، الى اختلال هذه الاسس التي قام عليها ملكه . فقد روى ابن الاثير ان معاوية خطب الناس بعد بلوغه نعي الاشتر ، وهو الذي ارسل من دس له السم في العسل ، وقال : « ... اما بعد ، فقد كانت لعلي بن ابي طالب يدان يمنيان ُقطعت احداهما يوم صفين – يعني عمار بن ياسر ، وُقطعت الاخرى اليوم – يعني الاشتر . » فلما بلغ الخبر مسامع عمرو بن العاص قال ساخراً : « ان لله جنوداً من العسل ! »

وفطن معاوية نفسه – وكيف لا يفطن ، وهو ادرى الناس بما صنع وما كان ينوي ان يصنع – الى اختلال الاساس في بنيانه ، فراح يدعمه من هنا وهناك ، ويحتاط له بكل ما

ملكت يداه من اسباب الاحتياط ، ويغتال هذا ويقرّب ذاك ، يرغب مرة ويرهب اخرى ، ويعفو عن اخطاء ، ويتجاوز عن سيئات ، ويزرع الحقد في نفوس الشاميين على الامام علي ، ويأمرهم بسبه من فوق المنابر . ومَردّ هذا السلوك من الفه الى يائه هو « الخوف » الذي كان يملأ اقطار نفسه .

إنزل الى الاعماق وابحث عن اسرار هذا الخوف المفجع الغريب، تجدها في يقين معاوية الخفي البعيد العميق ان هذا الملك ليس له ، تجدها في شعوره بالجرائم التي ارتكبها ليحقق ما حقق من جاه وسلطان ، بل ان مغامرته الكبرى في اخذ البيعة لابنه يزيد ، وهو ما يزال على قيد الحيـــاة، نشأت في نفسه عن خوفه من افتضاح امره ، واقدم عليها عن خوف ، لانها اوشكت ان تذهب بهيبته وتقتل نفوذه .

ومبايعة يزيد نفسها نقض صريح لمبدإ الشورى الذي اتبع في استخلاف الراشدين ، ونخط واضح لميثاقه مع الحسن بن عـــلي ، واعتداء على مبدإ التحكيم الذي دعا هو اليه في صفين . فلما قضى نحبه جاءت خلافة ابنه كخلافته مزعزعة الاركان ، مضطربة الاسس رغم كل التدعيات والاحتياطات التي اتخذها لنفسه ولها .

واعاد التاريخ نفسه بين يزيد بن معاوية والحسين بن علي ، إذ نشب صراع بينهما افضى الى غلبة يزيد لتشابه ظروف الحسين بظروف والده ، وموقف يزيد بموقف والده ، ولكن على شكل اعنف واحرج مع الفريقين المتصارعين .

بيد ان اختلال الاساس في بناء الدولة الاموية كان يتسع ويتضح كلما تقدمت الايام . فلما قضى يزيد ، وقف ابنه معاوية

الثاني ، وقد عرف الخلل ، وادرك ان لا طاقة لاحد على رأب الصدع ، وصارح الناس بالحقيقة قائلاً في خطبة شهيرة : « ايها الناس ! إن جدي معاوية نازع الامر اهله ، ومن هو احق به منه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو علي بن ابي طالب . وركب بكم ما تعلمون حتى اتته منيته ، فصار في قبره رهيناً بذنوبه ، واسيراً بخطاياه . ثم تقلد ابي الامر ، فكان غير اهل لذلك ، وركب هواه ، واخلفه الامل ، وقصر به الاجل ، وصار في قبره رهيناً بذنوبه ، واسيراً بجرمه . »

ثم قال : « ان من اعظم الامور علينا علمنا بسوء مصرعه ، وبئس منقلبه ، وقد قتل عترة رسول الله ، واباح الحرم ، وخرّب الكعبة ، وما انا بالمتقلد ولا بالمتحمل تبعاتكم ، فشأنكم وامركم ... » ودخل بعد هذه الخطبة منزله وتغيب حتى مات بعد ايام قليلة . وفي رواية ان اهله دسوا له السم تخلصاً من ضميره المستيقظ ، وافكاره المرة العنيفة . ولا يبعد ان تكون صحيحة . فمعاوية افاد من السم اكثر من مرة في القضاء على اعدائه ومعارضيه .

ولكن الرائع في خطبة ذلك الخليفة ، وفي تنازله عن الملك ، واختفاء آثاره بعد ذلك ، هو هذه « التعبيرات » الفصيحة البليغة عن اختلال الاساس في بناء الدولة الاموية . فنحن لا نستطيع ان نتصوّر او نصوّر هول الاجرام في سياسة معاوية الاول كما صوّرها هذا « الانسان » بخطبته ، وتخليه عن العرش وميتته المفجعة .

وكانت نهاية معاوية الثاني إيذاناً بانهيار العرش الاموي لولا ان تطيل في عمره مصادفات ابقت على حياة مروان الذي استطاع

ان ينجو من الحجاز – وكان قد دخل في طاعة عبدالله بن الزبير – ويصل الى دمشق في الوقت الملائم ، وينقذ الامويين من الشقاق الذي دب فيهم ، ثم يستخلف من بعده ابنه عبد الملك الذي استعمل الحجاج على العراق ...

٣ – ارض الواقع

البلاد الشامية ارض الواقع !

ذلك يعني ان الشام ، شامَ ذلك العهد ، اقرب لان تنبت رجالاً واقعيين اكثر من ان تنبت مثاليين ، بل إن هؤلاء لا ينشأون فيها إلا نادراً ، وندرتهم بالغة لدرجة لا يعدون معها ولا يذكرون في خضم السواد الغالب ، واذا ظهروا فلا يكون لهم اي اثر في حياة الجماعة وتغيير طرائقها إن في العمل وإن في التفكير . والواقعي، هنا ، هو الذي يتقبل الاشياء والحوادث دونما إجالة نظر او إعمال فكر ، فهو لا يضيف على الدنيا واحوالها وصروفها شيئاً من عقله ونفسه، وإنما يأخذ ما يُعطى على انه هو « الممكن » ، وينفذ ما تأمر به السلطة ، اياً كانت السلطة ، على انه هو « الحق » ، ويعيش هادئاً مطمئناً ما دامت اسباب الطمأنينة المادية موفورة له . ثم لا يتململ ولا يثور إلا في حالة واحدة هي امتناع اسباب تلك الطمأنينة عليه ، فالسياسة الرشيدة عنده هي التي تؤمن له القوت وتمده باسباب الحرية الاقتصادية ، حتى يصبح في سعة من واقعه ، وكلما فتحت امامه ابواب الرفاهية ويسّرت له سبُلها – كانت تحقيقاً لمثله الاعلى ، اي كانت هي السياسة المثلى في نظره . والتأمل

الفلسفي عنده ضرب من الحماقة لا معنى وراءه ، ولا جدوى فيه . اما الفضائل والنزعات الاخلاقية السامية فهو يعتبرها « زينة » يمكن الاستغناء عنها ، وكثيراً ما يعجب كيف يضحي امرؤ من اجلها ... والادب والفن ليسا ، في حسبانه ، غير وسائل للهو وتزجية الفراغ ، إن لم يكونا وسائل للدعاية وبسط النفوذ . هذا هو كيان « الشامي » في عهد الامويين .

نستطيع ، من على صعيد هذا الكيان الروحي ، ان نفسّر سلسلة من الظواهر السياسية التي ظهرت عهدَ معاوية ومن تلاه من خلفاء ، تلك الظواهر التي شغلت رجال الفكر والتاريخ من شرقيين ومستشرقين ، ولا تزال تشغلهم الى يومنا هذا .

تأمل الآن موقف معاوية بن يزيد الذي اشرنا اليه ، ثم تأمل موقف عمر بن عبد العزيز الذي شجب سياسة جميع الذين تقدّموه من بني امية ، تجد ان الضمير الاموي كان يستيقظ بين فترة وفترة ، ولكن جوّ الواقع الشامي ملك على الامويين اقطار وعيهم ، وساقهم في تيار « العنف » الذي افلح معهم اول مرة ، فانساقوا وهم لا يتماسكون .

هاك ما يقوله الجاحظ : « ... وأهلُ الشام ذوو بلادة وخمول وجمود على رأي واحد ، لا يرون النظر ، ولا يسألون عن مغيب الاموال ... »

واسمع معاوية الاول يوصي ابنه يزيد ، وهو على فراش الاحتضار : « ... ثم انظر اهل الشام فأجعلهم الشعار دون الدثار ، فان رابك عن عدوك ريب ، فارمه بهم ، فان اظفرك الله به ، فأردد اهل الشام الى بلادهم ، ولا يقيموا بغير بلادهم ، فيتأدبوا

بغير ادبهم . »

ولقد كان معاوية يعتبر نفسه « مؤدبـــا » للشاميين خاصة ، وكثيراً ما اظهر قيمة هذه النظرة او الفكرة في سيرته واقواله . فقد اجاب سودة بنت عمار الهمدانية عندما رغبت اليه ان يعدل في الرعية كلها دون محاباة او تفريق ، بقوله : « لمّظكُم ابن ابي طالب الجرأة على السلطان فبطيئاً ما تُفطَمون . » واجاب عكرشة بنت الاطرش حين افحمته فيما طلبت اليه من حق : « هيهات يا اهل العراق ! فقّهكم علي بن ابي طالب فلن تطاقوا . » وقال لمحمد بن الاشعث مؤنباً ، وقد تقدم هذا على الاحنف بن قيس في الدخول عليه : « ... وإنا كما نلي اموركم ، كذلك نلي ادبكم . »

ومناط العجب في سيرة الشاميين مع خلفاء بني اميـــة انهم تأدبوا بالآداب التي ارادها لهم معاوية ، فلم يكن لهم ادنى يد في توجيه الحكام ، ولا في سياسة الامصار التي استمرت تعج بالفتن والثورات . فما وجد يزيد مثلاً ادنى معارضة شامية حين اقدم على قتل الحسين بن علي ، ولا لقي عبد الملك بن مروان ناصحاً شامياً ينصحه بالرفق والتؤدة ، ولا اهتم احـــد من اهل الشام لفظائع الحجاج في الحجاز والعراق ، بل كان الشاميون بطاعتهم العمياء لرؤسائهم وحكامهم كالعراقيين في تمردهم عليهم ، اي اداة اضطراب وقلقلة : عاملان متناقضان افضيا الى نتيجة سياسيـــة واحدة .

ذلك هو القول الفصل في مجمل العهد الاموي ، وسيرة الخلفاء الامويين . فلو وُجد في الشام من يحاسب الرؤساء على تصرفاتهم ، والحكامَ على تدابيرهم ، ويدرك عواقب الاعمال التي يقوم بهـــا

الولاة ، ويرشدهم الى مناحي الخلل في اساليبهم الادارية ، ويحملهم، بما يبدي من فهم واستعداد للعصيان ، على الاناة والروية ، ثم لو وجد في العراق من يدعو الى الالفة والمحبة وتوحيد القلوب ، ويوقف العصبيات الشخصية والقبلية عند حد معقول ، لما حدث ذلك الذي حدث من فجائع واهوال وكوارث لا تعد ولا تحصى ...

لكن هذا الافتراض او التمني غير وارد في كلا طرفيه . فالشام هي الشام ، والعراق هو العراق ولا تبديل لقوانين الطبيعة ! ونحن انما نسوق هذا الحديث لايضاح ما نبغي ايضاحه من وجوه الاختلال في التوازن الاجتماعي بعد استتباب الامر لمعاوية ، ونشوء الدولة الاموية في « ارض الواقع » ، وقيامها على تلك الأسس الواقعية التي شرحناها في الفصل السابق .

الامر الذي لا مندوحة عن ابرازه وتبيانه وجلائه للعيان ، كي نصل الى ادراك سيرة الحجاج وفهمه كظاهرة تاريخية أو انسانية معقدة ، هو هذا : ان قيام الشام على رأس الامبراطورية الحديثة ، نتيجة مصادفات عابثة ، وهي لا تملك — في نظر سائر الامصار — مؤهلات الرئاسة ، جعل الحجازيين والعراقيين يتربصون بها الدوائر ، ويضمرون لها الضغائن . فكان التوتر يشتد كلما لجأ الامويون الى الضغط ، وكانت الثارات والاحقاد تتكاثر وتتلاقح كلما سلك الامويون سُبُلَ العسف والاكراه . ثم لم يكن في متناول الامويين غير البطش والارهاب ، بعد ان افلتت المحاباة وتوالت الفتن ، والبطش لا يحمل على احترام البطاشين ، والارهاب لا يرفع من قيمة المرهبين .

إسمع هذا الحديث بين الأحنف بن قيس وصاحب له في

صفين . قال الاحنف وهو يشهد سير المعركة ويشرف على تطوراتها :
– هلكت العرب .
– وإن غَلَبْنا يا ابا بحر ؟ !
– نعم ! وإن كنا نحن الغالبين .
– والله ما جعلت لنا مخرجا .
– إنّا إن غلبناهم لم نترك بالشام رئيساً إلا ضربنا عنقه ، وإن غلبونا لم يعرج بعدها رئيسٌ عن معصية الله ابداً .

وجاءت الحوادث بعد صفين تؤيد رأي الاحنف اذ لم يكن يومئذ للعراقيين ولا للحجازيين ادنى ثقة برؤساء الشام وقادتها من وجهة اخلاقية ، وكانت من قبل وجهة دينية !

واذا انت دققت النظر وجدت ان معاوية هو المسؤول عن نشوء هذه الروح الاقليمية عند العرب ، وهو النافخ في بوقها ، ورأيت انه كان اول داعية لانتشارها ، فقد اجاب الامام عندما دعاه الى المبايعة بهذه الرسالة :

« سلام عليك ! اما بعد فلو بايعك الذين ذكرت وانت بريء من دم عثمان لكنت كأبي بكر وعثمان رضي الله عنهم اجمعين ، ولكنك اغريت بدم عثمان المهاجرين ، وخذّلت عنه الانصار ، فأطاعك الجاهل ، وقوي بك الضعيف . وقد أبى اهل الشام الا قتالك حتى تدفع اليهم قتلة عثمان ، فان فعلت كانت شورى بين المسلمين . وانما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحق فيهم ، فلما فارقوه كان الحكام على الناس اهل الشام . ولعمري ما حجتك عليّ كحجتك على طلحة والزبير ، وان كانا بايعاك فلم ابايعك انا . وما حجتك على اهل الشام كحجتك

على اهل البصرة ، لان اهل البصرة اطاعوك ، ولم يطعك اهل الشام .»

واضح في هذه الرسالة ، الرائعة في دلالتها ، ان معاوية جعل من قضيته الشخصية البحتة « قضية شامية » عامة ، أقره عليها الشاميون . ولمَ لا يقرونه وهي تستجيب لأعمق ما يجيش في نفوسهم من مطامح واشواق ، وتلبي اقصى ما يأملون من رغبات ؟

غير ان نشوء « قضية شامية » ادّى بصورة عفوية تكاد تكون اوتوماتية الى نشوء قضية عراقية ، واخرى حجازية . ثم راحت كلّ قضية من هذه القضايا الاقليمية تتلبس بثوب ديني خاص ، وترسم لنفسها مثالية فكرية خاصة (ايديولوجيا) ، وتفيد من ملابسات الظروف والاحوال مختلف التآويل الفقهية والشرعية ، وتدس على النبي من الاحاديث الموضوعة والاقوال المتناقضة ما يؤيد وجهة نظرها ، فكان الزبيريون في الحجاز ، والشيعة في العراق ، والخوارج في مختلف الامصار ، والحكوميون الواقعيون في الشام الذين اكتفوا بالواقع واقاموا عليه .

ولم يكن ابناء الاقطار الاخرى ينظرون الى الشام واهلها ، في ذلك الوقت ، نظرة إكبار . فقد ذكر المسعودي[1] ان عمر بن الخطاب كتب الى حكيم من حكماء عصره يسأله ان يصف له المدن وأهويتها ومساكنها ، فكتب اليه ذلك الحكيم فيما كتب : «... اما الشام فسُحُبٌ وآكام ، ورِيحٌ وغمام ، وغدق ركام ، ترطب

[1] مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٣٧٠ .

الاجسام ، وتصفرّ الالوان ، وتبلّد الفهم ، وتنزح غوره ، وتجفي الطبع ، وتذهب بماء القريحة ، وتنضب العقول ... »

وروى ابن ابي الحديد [١] ، ان رجلا ، يقال له الحجاج بن خزيمة ابن الصمة ، اقبل من المدينة بعد مقتل عثمان الى الشام وقال لمعاوية : « يا امير المؤمنين (ولم يُخاطب معاوية بامير المؤمنين قبلها) انك لتقوى على علي بدون ما يقوى به عليك ، لان معك قوماً لا يقولون اذا قلت ، ولا يسألون اذا امرت . وإن مع علي قوماً يقولون اذا قال ، ويسألون اذا امر ... »

وروى صاحب الاغاني الحكاية التالية : « مات رجلٌ من جند اهل الشام عظيم القدر ، لهم فيه عزّ وعدد ، فحضر الحجاج بن يوسف جنازته ، وصلى عليه ، وجلس على قبره ، وقال : لينزل اليه بعض اخوانه . فنزل نفر منهم ، فقال احدهم ، وهو يسوى عليه : رحمك الله أبا قنان ، إن كنت ما علمت لتُجيد الغناء ، وتسرع ردّ الكأس ، ولقد وقعت في موضع سوء لا تخرج منه والله الى يوم القيامة . فما تمالك الحجاجُ ان ضحك ، وكان لا يكثر الضحك في جدّ ولا هزل ، وقال له : اهذا موضع هذا لا ام لك ؟ فأجابه : اصلح الله الأمير ، فرسه حبيس في سبيل الله لو سمعه الامير يغني :

يا لبيني اوقدي النارا ان من تهوين قد حارا

لانتشر الامير على « سعنة » ، وكان الميت يلقب بسعنة . فقال الحجاج : إنّا لله ، أخرجوه من القبر ! ما أبين حجة اهل العراق في جهلكم ، يا اهل الشام ! »

[١] شرح النهج ، ج ١ ، ص ٢٥٣ .

ونشأت الى جانب هذه الروح الاقليمية عصبيات عنصرية جامحة فتاكة ، مردها الاساسي الى تلك التفرقة الشديدة التي اوجدتها السلطة الاموية بين العرب والموالي . فكان الفرس والروم والاكراد والانباط وغيرهم من العناصر التي قهرتها قوات الاسلام تتقلب يومذاك من هذا الجو البغيض في جحيم لا سبيل الى الاستقرار معه ، ولا طاقة لها على احتماله ، لما تلاقي فيه من ازدراء وإيذاء .

وما كان المعارضون ليغفلوا عما تنطوي عليه هذه التفرقة العنصرية من امكانيات تستثمر في تهديم العرش الاموي ، فاستغلها الخوارج في جانب ، والشيعة في جانب ، كما افاد منها عبدالله ابن الزبير في ثورته افضل افادة . والخطر الكامن فيها انها تناقض جوهر الدين الاسلامي . فالدين صريح حول هذه النقطة ، صراحة لا مجال فيها للتأويل والتضليل ، اذ ان سلم القيم عنده يرتكز على التقوى ، وهي التي تتوزع درجاته فـ « لا فضل لعربي على اعجمي إلا بالتقوى » .

وكان معقولاً ان تنحاز العناصر الأعجمية المسلمة ، في ذلك الحين ، الى جانب المعارضة ، اي الى معسكر الخوارج والشيعة ، لما كانت تجده لديهم من حسن القبول ، وكرم الوفادة ، وانسجام المبدأ ، وقوة العقيدة ، ولما ييسرون لها ، على الاخص ، من سُبل التحرر ووسائل الانعتاق .

تلك هي التركة التي خلّفها معاوية في حياة المسلمين بعد وفاته : الاقليمية ، والعنصرية ، واستيقاظ العصبيات القبلية ، وسياسة الاذلال ، والحكم الوراثي .

ويظهر اثر هذه التركة ، اكثر مـا يظهر ، في العراق وجوارها ... بما يتضح في الفصل التالي .

٤ — ارض التمرد

العراق ارض التمرد .

ذلك هو تاريخها منذ عُرف التاريخ الى يومك هذا . والتمرد ، في جوهر معناه وكما تمثل في سيرة العراقيين ، ضرب من الحيوية الصاخبة التي تحمل صاحبها على الانطلاق المحض ، دونما نظر في العواقب والاهداف . والمتمرد انسان يستعلي بروحه عن الوجود ، حتى ليصبح الوجود عنده « قيداً » يجهد في تفكيكه والتخلص منه . ولا تسله بعد ذلك عن سبب ، فانه لن يعدم – وهو الثائر – ان يجد فيما حوله ، ومن حوله ، الف سبب وسبب لتبرير ثورته ، وفلسفة انطلاقه وجموحه ، لان تعلقه الشديد بنفسه ، برأيه ، بهواه ، بطمحه ، بحريته ، بكرامته ، بأي موضوع من الموضوعات ، اقوى وأشد وأفعل من تعلقه بالبقاء او الحياة . وقد قال اندره بريتون ، وهو من افذاذ المفكرين : « التمرد يحمل برهانه بذاته لذاته مستقلاً كل الاستقلال عن الظروف التي حتّمت نشوءَه ، كما انه لا علاقة له بمدى ما يصيب من نجاح او اخفاق في تبديل الواقع الذي يثور عليه . »

تلك هي سيرة « الكائن العراقي » ، فانه لا يبغي من الحياة ان يعيش . اما السبب فهو انه يريد ان يعيش على هواه ، دون ان يتقيد بقانون ، او بسلطة ، او بقاعدة ، او بارادة شخص من

الاشخاص . ولذا تراه في نضال دائم متصل مع الحكام ، مع القواعد ، مع السلطات . ولا يفتر عن التمرد ابداً ، حتى ليتمرد على التمرد نفسه . وهنا يهدأ ويطمئن . وهذا يعني انه لا يطمئن ولا يهدأ الا حين يكون الهدوء نفسه ضرباً من التمرد .

غير ان المشكلة الكبرى التي يعانيها العراقي في نفسه ، ويعانيها الباحثون في نفسيته ، ليست في ان العراقي لا يحتمل الحياة الا حين تكون الحياة « على هواه » ، او إلا ان يكون في جو من الحرية يمكنه من التصرف بها على هواه ، وانما المشكلة هي ان هذا « الهوى » متقلب متغير . فقد يكون اليوم غير ما كان بالامس ، وهو اليوم غيره غداً . وهكذا تتصل اسباب التمرد في نفس العراقي ، فلا تنفذ اليه من باب حتى ينفتح لها عليه الف باب . وهكذا ... تتناقض تلك النفس ايضاً في تمرداتها وثوراتها ، فما تمردت عليه اليوم ، تتمرد لاجله غداً . ارأيت الى غرابة هذه العقدة ؟

لقد وقف الاسكندر حيالها ذاهلا مضطرباً لا يدري ما يفعل ، ولا كيف يفعل ، حتى افضى به الاضطراب الى حالة فقد معها اتزانه ، فقال لأرسطاطاليس : « لقد اعياني اهل العراق ! ما اجري عليه حيلة إلا وجدتهم قد سبقوني الى الخلاص ، فخلصوا قبل إيقاعها بهم ، وقد عزمت على قتلهم عن آخرهم ! » فأجابه المعلم الاول بتؤدة وحكمة : « اذا قتلتهم فهل تقدر على قتل الهواء الذي غذى طباعهم ، وخصهم بهذا الذكاء ؟ فان ماتوا ظهر في موضعهم من يشاكلهم[1] . »

[1] ابو اسحاق الحصري ، جمع الجواهر في الملح والنوادر ، ص ٧١ .

وجاء بعد الاسكندر بالف سنة وما ُينيف عليها ، رجل يقال له « عثمان بن حيان المري » ، واذا به يعاني من العراق واهله ما عاناه منهم الاسكندر عبناً وتماماً ، ويعرب لاهل الحجاز في المدينة عن بلائه بقوله : « إني رايت العراق داءً عضالاً ... والله لقد اعضلوا بي . وإني لأراني سأفرقهم في البلدان ثم اقول : لو فرقتهم لافسدوا من دخلوا عليه بجدل وحجاج ، وكيف ؟ ولمَ ؟ وسرعة وجيف في الفتنة ... »

اما الجاحظ – وهو عراقي – فانه يعمل فكره في وجوه المشكلة ويقول : « إن اهل العراق اهل نظر وذوو فطن ثاقبة ، ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث ، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح والترجيح بين الرجال ، والتمييز بين الرؤساء وإظهار عيوب الامراء ... وما زال العراق موصوفاً اهله بقلة الطاعة ، وبالشقاق على اولي الرئاسة . »

ويصف المسعودي ارض التمرد فيقول : « ... واما العراق فمنار الشرق ، وسرة الارض وقلبها ، اليه تحادرت المياه ، وبه اتصلت النضارة ، وعنده وقف الاعتدال ، فصفت امزجة اهله ، ولطفت اذهانهم ، واحتدت خواطرهم ، واتصلت مسراتهم ، فظهر منهم الدهاء ، وقويت عقولهم ، وثبتت بصائرهم ، وقلبُ الارض العراق ، وهو المجتبى من قديم الزمان ، وهو مسلك النور ، ومسرح العينين ، ومدنه المدائن وما والاها ، ولاهله اعدل الالوان ، وأنقى الروائح ، وافضل الامزجة ، وأطوع القرائح ، وفيهم جوامع الفضائل ، وفوائد المبرات ، وفضائله كثيرة ... »

واغرب عهدٍ ظهر فيه تمرد العراقيين على الرؤساء هو عهد

الامويين . فقد بلغ فيه الصراع بين واقعية الشام ومثالية العراق درجته القصوى ، لا سيما أن معاوية غذّى الروح الاقليميّة ومدّها في نفوس الشاميين خاصة باسباب الشدة والبأس ، ووجّههم اكثر ما وجّههم نحو العراق والكيد لاهله والغضّ من كرامتهم ، والعمل على اذلالهم ، ولكن بوسائل خفية ، وطرق ملتوية غير مفضوحة ، كان اقدر معاصريه على سلوكها والافادة منها ، كتخلصه من الحسن بن علي بحمل امرأته على دس السم له ، واستلحاق زياد ابن ابيه بنسبه ، وإيلاء الكوفة للمغيرة بن شعبة ، واستثمار الخلاف بين الشيعة والخوارج .

ولما قضى معاوية وولي الامر يزيد ، كان العراقيون في بحران من الغليان لا يستفيقون منه لانهم خذلوا علياً وما افادوا من خذله غير الذلة والدمار ، وخذلوا ابنه الحسن وأكرهوه على مصالحة معاوية ، وراح ولاة الامويين كزياد بن ابيه والمغيرة ابن شعبة يذيقونهم البلاء اشكالاً والواناً . فكانوا يتحينون الفرص ، ويترقبون الظروف للانقضاض على الامويين وتشتيت شملهم ومحق سلطانهم . ورأوا في استخلاف يزيد ما يعينهم على الثورة ، ويحفزهم الى الوثوب ، لان يزيد لم يكن يتمتع بشيء من الشعبية في صفوف المسلمين عامة ، ولا كان على شيء من الكياسة او المهارة التي تمكّنه من إخماد الفتن وتدارك الثورات. فاجتمع اهل الكوفة ، وكتبوا للحسين بن علي يبايعونه ويَعِدونه بالتأييد ومحاربة اعدائه واعدائهم من جند الشام ، وسدنة العرش الاموي .

ولكن العراق في هذه الاثناء كان موزعاً بين تيارات ثلاثة :

الخوارج ، والشيعة ، والزبيريين وهم حزب عبدالله بن الزبير الذي ذرّ قرناه بعد وفاة معاوية . فلما وفد الحسين على الكوفة لم يجد من ينصره ، واستشهد في وقعة الطف الشهيرة .

غير ان استشهاد الحسين افضى الى زيادة البلبلة في جميع الامصار ، وفي العراق خاصة ، اذ سجل عند ذاك الحزب الزبيري تقدماً كبيراً في الجزيرة العربية ، وانبث اعوانه وانصاره يدعون الناس الى مبايعته حتى تمت له البيعة في قسم كبير من العراق ، بعد ان بايَعتْهُ مصر والحجاز واليمن ، وانضم اليه عددٌ من اهل الشام ، وقارب ان يُنَصَّب خليفة على جميع المسلمين .

وهنا ... هنا ، في هذه اللحظة الحاسمة من تاريخ الدولة الاموية ، رجع العراق الى تمرده ، ونشأت فيه الى جانب الحركات السياسية الاولى (الخوارج ، الشيعة ، الزبيريون) حركة جديدة هي حركة « التوّابين » الذين لم يبايعوا عبدالله ابن الزبير ، ومضوا يطلبون ثأر الحسين . وظهر يومذاك « المختار الثقفي » الذي نادى بمحمد بن الحنفية اخِ الحسن والحسين خليفة ، وقاد حملة الثأر ، ودارت بينه وبين الزبيريين معارك انتهت بخمود فتنته وقتله ، ولكنه انشأ حزباً جديداً ومذهباً جديداً عاش من بعده حقبة غير يسيرة في العراق .

بيد ان اسلوب عبدالله بن الزبير في ادارة البلاد كان ينطوي على كثير من الغفلة وقِصَرِ النظر اذ استعمل اخاه مصعباً على العراق ، فجعل هذا كل همّه في قتال الخوارج والشيعة والتوّابين ، حتى اذا وفق الى قتل المختار الثقفي وخنق حركته الجديدة في مهدها ، ذهب وفد من اهل الكوفة الى الحجاز لمبايعة عبد الله

ابن الزبير ، فما كان منه الا ان اخذ في لومهم وتقريعهم ، عوضاً عن قبولهم وتوجيههم نحو محاربة اعدائه الشاميين . ثم لم يكتف باللوم والتقريع ، وانما اوغل في المقابلة بينهم وبين اهل الشام حتى انتهى الى الثناء على الشاميين وحسن طاعتهم لرؤسائهم . فرد عليه احد مندوبي الكوفة بقوله : « ان مثلنا ومثلك ومثل اهل الشام كما قال اعشى بكر بن وائل :

عُلّقتها عرضاً ، وعُلّقتْ رجلاً غيري وعُلّق أخرى غيرها لرجل

أحببناك نحن ، وأحببت انت اهل الشام ، وأحبّ اهل الشام عبد الملك بن مروان . »

ولما انصرفوا من حضرته كاتبوا عبدالملك وغدروا بمصعب ...

واخذت الحوادث تتوالى في الحجاز وتمدّ وتجزر الى ان ثبت اخيراً عرش أميّة وتم الامر لعبد الملك بن مروان بن الحكم. ولكن كيف ثبت عرش أميّة وسط هذه الزعازع ؟

٥ — ارض الاريحية

الحجاز ارض الاريحية .

هكذا كانت ، على الاقل ، في صدر الدولة الاسلامية ، اي على عهد الخلفاء الراشدين . والاريحية — كما سبق لي ان عرّفتها في كتابي « روح العروبة » — غريزة تدفع صاحبها على تقدير الجمال في شتى انواعه ومظاهره . وإنما قلت غريزة لان مظهرها ردّ فعل عفوي لما يبعثه الجمال في النفس من متعة وارتياح . وهذه العفوية في الاستجابة هي التي جعلتها غريزة لا عادة ولا عملاً إرادياً . وقلّ

ان تجد غير اريحي في الحجاز إبان نشوء الحركة الاسلامية . فقد كان الحجازيون مستغرقين في جوّ رومانطيقي غريب ، لحمته العشق وسُداه الغناء . وعلى هامش العشق والغناء نشأت ضروب من اللهو ، وحالات من الاجتماع ، واوضاع وعادات وتقاليد تنضح كلها عن تفان في مثالية جمالية خارقة ، وتعبّد عميق لصور الجمال الحسي والمعنوي . اما المرأة ، فتلك كانت قبلة الحياة ، اليها يتجه الغاوون والاتقياء والجنود والتجار والساسة والقواد والولاة . فلا حديث لهم غيرها ، ولا تفكير إلا فيها ، إلى ان نشأت في قلب المدينة حركة تخنث عجيبة ، واخذ المخنثون يزدادون مع الزمن عدداً ونفوذاً .

ومن هؤلاء المخنثين رجلٌ اسمه « هيت » قال لعبدالله بن ابي امية على مرأى من النبي ومسمع : « ان فتح الله عليكم الطائف فسل النبي ان يهب لك « بادية » بنت غيلان بن سلمة ، فانها هيفاء ، شموع ، نجلاء ، إن تكلمت تغنّت ، وإن قامت تثنّت ، تُقبل باربع ، وتُدبر بثمان مع ثغر كأنه الاقحوان ، وبين رجليها كالاناء المكفوء ، كما قال قيس بن الحطيم :

تغترق الطرف وهي لاهيةٌ كأنما شفّ وجهها نُزُفُ
تنام عن كبر شأنها فاذا مشت رويداً تكاد تنقصف

فقال له النبي : « لقد غلغلت النظر يا عدو الله ! » ثم جلاه عن المدينة الى الحمى (جبلٌ بالمدينة على ثلاثة اميال من العقيق) . فلما ولي ابو بكر ابى ان يردّه ، وكُلِّمَ في شأنه عمر فقال : « إن رأيته لاضربن عنقه . » ولكن عثمان سمح له فيما بعد ان يأتي كل جمعة الى المدينة .

ومنهم ايضا رجل يقال له « النغاشي » وشى بـه بعضهم لمروان ابن الحكم انه لا يقرأ من كتاب الله شيئاً . فأرسل في طلبه واستقرأه أمّ الكتاب ، فقال : « والله ما معي بناتها ، او ما اقرأ البنات ، فكيف اقرأ امهن ؟ » قال مروان : « اتهزأ لا ام لك ! » وامر به، فقتل !

وحديث نصر بن حجاج ، الذي فتن نساء المدينة بجماله، مشهور . فقد اضطر عمر بن الخطاب الى نفيه حرصاً على العواتق وقد سمع باذنه هتافهن بحبه وتدلههن فيه .

وقريب منه حديث طويس المغني الذي قضى معظم ايامه بين النساء يتحدث عن اسرار هذه ، ويروي اخبار تلك وحبها لذاك ، حاملاً دفّهُ خفيةً ، يتغنى في حلقات يعقدها له شباب المدينة في نجوة عن العسس والشرطة والعيون. ولما سُئِلَ عن مولده قال : « ولدتُ يوم قبضَ رسولُ الله ، وفطمتُ يوم مات ابو بكر ، وختنتُ يوم قُتل عمر ، وزوجتْ يوم قُتل عثمان ، وولد لي يوم مات علي ! »

بيد ان التخنث ظاهرة اجتماعية ذات دلالة سلبية ، بمعنى انها تكشف الى حد بعيد عن انحلال في اخلاق المجتمع ، ولكنها هنا، في الحجاز ، في ذلك العصر ، تشير الى طغيان الحس الجمالي وتأثر المجتمع بالوان من الحياة هي تعبيرات عن المرح الذي يرافق التوثب والنشاط ، وإلا ، فليس من المعقول ان تكون الحجاز تجتاز يومئذ مرحلة انحلال والحركة الاسلامية في عنفوان ازدهارها وانطلاقها .

تأمل هذه الحكاية القصيرة : سمع عمر بن الخطاب امرأة

في الطواف تقول :

فمنهن مَن تُسقى بعذب مبرّد نُقاخٍ فتلكم عند ذلك قرّتِ

ومنهن مَن تُسقى بأخضر آجنٍ أجاجٍ، ولولا خشية الله فرّتِ

ففهم شكواها ، وبعث الى زوجها ، فوجده متغير الفم ، كريه الرائحة ، فخيّره بين خمس مائة من الدراهم وطلاقها ، فاختار الدراهم ، وطلقها .

ثم تأمل هذه الروح المرِحَة التي تقطر بالظرف عند النساك والمتعبدين من اهل الحجاز . فقد روى عبد الله بن عمر — وهو من الاتقياء المشهود لهم بالصلاح — هذه الرواية عن نفسه : « خرجتُ حاجاً ، فرأيت امرأة جميلة تتكلم بكلام أرفثت فيه (اي كان بذيئاً)، فأدنيت ناقتي منها ثم قلت لها : يا امة الله ، ألستِ حاجّة ! أما تخافين الله ؟ فسفرت عن وجه يَبهَر الشمسَ حسناً ، ثم قالت : تأمل يا عم ، فانني ممن عناه العرجيّ بقوله :

أماطت كساء الخزِّ عن حُرِّ وجهها
وأدنت على الخدين برداً مهلهلا
من اللائي لم يحججن يبغين حسبةً
ولكن ليقتلن البريء المغفلا

فقلت لها : « فاني اسأل الله ألاّ يعذّب هذا الوجه بالنار ! »
وبلغ ذلك سعيد بن المسيب وهو سيد التابعين وإمامٌ من أئمة الفقه فقال : « أما والله لو كان من بعض البغضاء لقال لها : أعزبي ، قبّحكِ الله ، ولكنه ظرف عباد اهل الحجاز . »

واسمع هذا الحديث بين امرأتين من اهل المدينة تعذل احداهما الاخرى . قالت الاولى :

– ذكروا في الحكمة : لا تلم من أساء بك الظن اذا جعلت نفسك غرضاً للتهمة . ومن لم يكن عوناً على نفسه من خصمه ، لم يكن عنده شيء من عقدة الرأي . ومن قدّم على الهوى ، وهو يعلم ما فيه من المتعبة ، سلط على نفسه لسان العذل ، وضيّع الحزم .

فاجابتها الثانية :

– ليس الهوى الى الرأي فيملكه ، ولا الى العقل فيدركه ، أما سمعت قول الشاعر :

ليس خطب الهوى بخطب يسير لا ينبيك عنه مثل خبير

ليس امر الهوى يدبر بالرأي ولا بالقياس وبالتفكير

إنما الامر في الهوى خطرات محدثات الامور بعد الامور

وسُئل ابو نوفل : «هل سلم احد من العشق ؟» فقال : «نعم ! الجلف الجافي الذي ليس له فضل، ولا عنده فهم . فان من في طبعه ادنى ظرف ، او معه دماثة اهل الحجاز ، وظرف اهل العراق ، فلا يسلم منه !»

وروى الاصمعي رواية لا يهمنا مدى صحتها ، ولكنها تعبر تعبيراً واضحاً عن طبيعة الحجازيين ، وتكشف سرائر حياتهم النفسية ، سواءً كانت موضوعةً او واقعية قال :

قدِمَ عراقيّ بعِدْلٍ [1] من خُمُر [2] العراق الى المدينة ، فباعها كلها إلا السود ، فشكا ذلك الى الدارمي ، وكان قد تنسّكَ وترك الشعر ولزم المسجد . فقال : ما تجعل لي على ان احتال لك بحيلة

١ نصف الحمل .

٢ جمع خمار ، وهو النقاب .

حتى تبيعها كلها . قال : ما شئت . فعمد الدارمي الى ثياب نسكه ، فالقاها عنه ، وعاد الى مثل شأنه الاول ، ونظم شعراً رفعه الى صديق له من المغنين ، فغنى به ، هذا هو :

قل للمليحة في الخمار الاسود ماذا فعلت بزاهد متعبد
قد كان شمّر للصلاة ثيابه حتى خطرتِ له بباب المسجد
ردي عليه صلاته وصيامه لا تقتليه بحق دين محمد!

فشاعَ هذا الغناء في المدينة ، وقالوا : « رجع الدارمي وتعشق صاحبة الخمار الاسود . » فلم تبق مليحة بالمدينة الا اشترت خماراً اسود ، وباع التاجر جميع ما كان معه !

وشأن الحجازيين مع المرأة والعشق لا يختلف في شيء عن شأنهم مع الغناء والشعر ، والخمر فيما بعد . فقد ملأوا الدنيا ، دنياهم تلك ، باخبار المغنين والشعراء ، وتهالك المساكينُ منهم والكبراء على السماع والشراب وقرض الاشعار الغزلية الرقيقة ، وللجواري والقيان في هذه المضامير من البدائع والروائع ما يملأ خزائن الكتب العربية . ويكفي ان يستعرض القارىء سيرة شاعر مثل عمر بن ابي ربيعة الذي بلغ عدد معشوقاته ما يقرب من العشرين ، ثم سيرة مغنٍ كابن سريج او معبد ، ومغنية كجميلة التي كانت تستقبلها المدينة استقبال الفاتحين ، وتشيعها في موكب الملوك كلما اقبلت او سافرت، ليدرك تهافت الحجازيين على المتع الروحية والمادية ، ويعرف انه امام ارواح شفافة تتاهت في لطفها وحسن تقبلها للحياة وتصرفها بها ...

هذا الغلو في حب المرأة والتعلق بها ، هذا الاسراف في الغناء وسماعه ، هذه الغزارة في تدفق القرائح الشعرية ، هذا

الظرف عند النساك والقراء والحفاظ والمتعبدين ، هـذا الولوع بالحياة الفنية الخالصة من شوائب الهموم والارقام ، هذا الانصراف في مجموع الشعب عن السياسة ومشاكلها ، هذه الحرية النفسية في الاستجابة للأحاسيس الجمالية ، كل ذلك جعل المدينة – والحجاز بصورة عامة – غير قابلة لان تكون مركز العاصمة ، عاصمة الخلافة. ورأى الامام علي ان موقفه السياسي في الحجاز ، بعد مقتل عثمان وانقسام قريش واتساع الجبهة الاسلامية ، اصبح مضعضعاً . فانتقل من المدينة الى الكوفة ، وانتقل معه الفقهاء والنساك والقواد وصفوة الاصفياء من اعوانه ، كما انتقل الى دمشق من بعده الطامعون بالوظائف والناقمون على مبايعة علي والموتورون من الامويين وسائر القرشيين . وبذلك اقفرت الحجاز من وجهائها ومتنفذيها ، وخلا الجو إلا من بعض المشاغبين والمصطادين في المياه العكرة ، وأولهم مروان بن الحكم الذي حضر واقعة الجمل ، وحرّض الناس على محاربة علي ، ولكنه هزم فيها دون ان يصاب بأذى . فرجع الى بيته في المدينة يدسّ على الهاشميين ويؤلّب الناس خفية ، حتى اذا قتل الامام واستتب الامر لمعاوية هدأ في وجاره لا يبدي ولا يعيد .

ولكن الحوادث تتابعت بعد موت معاوية بشكل أهمل معه امر الحجاز اهمالاً تاماً ، اذ كان من سياسة معاوية ان صرف الحجازيين عن الاشتغال بالسياسة ، وتركهم لقيانهم وجواريهم وعشاقهم وشعرائهم يتلهون بهم عنه . وكان من امر الحسين بن علي ان خلّى الحجاز وذهب الى العراق ، وعند ذلك نهض عبدالله ابن الزبير ، واستقل بالحجاز ، واخذ يجهز الجيوش ويعدّ العُدد

لفتح الامصار واخذ البيعة . وسجل في برهة قصيرة تقدماً كبيراً في الجزيرة ومصر والعراق .

غير ان ابن الزبير لم يكن من البراعة السياسية بحيث يستغل الاحداث وملابساتها استغلالاً يدنيه من اهدافه ، اذ شدد النكير على امويي الحجاز من جهة ، وسمح لهم ، من جهة ثانية ، ان يغادروا البلاد الى دمشق . فكان من مروان بن الحكم ان فرّ الى الشام عوضاً عن ان يبايع ، وقد اوشك مرة ان يتقدم من خصمه ويبايعه !

وهكذا افلت الامر من يد الحجازيين ، اذ وصل مروان فرأى الامويين ، بعد تنازل معاوية الثاني ، في حالة من الشقاق غريبة . فجمع شملهم ، وتولى قيادتهم ، وحارب الطامعين وعلى رأسهم الضحاك بن قيس وعمرو بن الاشدق . ثم ما عتم ان نصّب نفسه خليفة . بيد انه لم يعمر كثيراً ، فمات بعد ستة اشهر من ولايته وحلّ محله ابنه عبد الملك .

٦ — ميدان الاستبداد

عندما يضع زيد من الرؤساء قانوناً ، ينص مثلاً كما يلي : « يجب على الناس ان يحبوا اسرة زيد ، مادة اولى ، والمادة الثانية : عليهم ان يحترموا اسرة زيد . » ثم يمضي — وهو الرئيس — في تنفيذ هاتين المادتين اللتين وضعنا في قانون سنّه لنفسه وللناس ، وراح يطبقه على نفسه وعلى الناس ، فماذا تكون النتيجة ، نتيجة ذاك القانون وتطبيقه ؟

لا جرم ان سائر الاسر ستقف معارضة لهذا القانون ، لا لأن كل اسرة تشعر بالحيف الذي ينالها منه فحسب ، بل لانه يتعارض ، في جوهره ، مع منطق الفكر الانساني . فالحب والاحترام عاطفتان لا سبيل الى ايجادهما عند الآخرين بمجرد ان نقول لهم « يجب » . فمن اين جاء هذا الواجب؟ وكيف تكوّن ؟ ومَن أقرّ وجوبه ؟ وما يُقِرّ وجوبه ؟ ولماذا يجب ان نُحِبّ ونحترم اسرة زيد لا اسرة عمرو؟ ولماذا اسرة عمرو لا اسرة بكر ؟

هذه الاسئلة وما يتفرع عنها من قضايا فكرية وفلسفية ، وما يترتب عليها من جدل وحِجاج ، وما تفضي اليه من بطلان صفة الوجوب في دعوى زيد الرئيس ، تحول دون تنفيذ قانون زيد ، وإن كان رئيساً ، وتضطر زيداً نفسه الى إرغام معارضيه على قبول وجهة نظره بالقوة . وهذا هو « الاستبداد » . فالاستبداد ينطوي ، اذن ، في قرارة قرارته ، على عجز في المنطق عند المستبد ، لا يلبث ان يعوض عنه بما يظهر من « تفوق » في الغدر والخداع ، والمراوغة والقوة المادية .

تلك هي سيرة كل مستبد ، فقد سنّ هتلر قانوناً ينص على ان العنصر الجرماني افضل العناصر البشرية في العالم ، وبالتالي على العالم كله ان يدين للجرمان بالطاعة . فلما رفض العالم هذا القانون ، اذ لم يقم عليه اي دليل ، لجأ هتلر الى القوة ، الى الحرب ، وكان ما كان ...

وتلك هي المشكلة التي وقع بها الامويون غثاً وثماماً . فقد ادّعوا ان الشام أحق بالخلافة من الحجاز ، ثم ان قريشاً أحق من سائر القبائل العربية ، ثم ان بني اميـة أحق اخيراً من سائر القرشيين . فلما طُلِب اليهم الدليل على هذه الدعاوى ، جهزوا

اهل الشام في جيش كبير ، وقدموه حجة على حقهم ، ولكن الجيش حجة لا يقتنع بها اهل العراق ، ولا اهل الحجاز ، ولو افنتهم عن آخرهم ...

هذا الاصرار من قِبَل الشاميين على اخضاع العراقيين والحجازيين ، وهذا الاصرار من قِبَل العراقيين والحجازيين على رفض الواقع الشامي والتمسك بمبدإ او فكرة [١] فتح ميدان الاستبداد ، وفسح في المجال امام الطامعين بالحكم والولاية ، فراح هؤلاء يتبارون في كبت التمرد العراقي ، والاريحية الحجازية ، ويخوضون معارك هي الى الارهاب والتعسف والارهاق اقرب منها الى حفظ النظام او صون الشريعة كما كانوا يعبرون ، وكانت حجتهم الوحيدة فيما يرتكبون من جرائم ، ويقدمون عليه من فظائع ، هي « ارادة السلطان » و« طاعة السلطان » ، وهي في نظر العراقيين والحجازيين حجة واهية ضعيفة لا اساس لها من عدل ، ولا من منطق ، لانها تؤيد سلطة غاشمة مغتصبة ، على المسلمين ان يجاهدوها وان يقهروها ... الى ان يرجع الحق الى نصابه ، والعدل الى محرابه .

وأول من لجأ الى العنف من ولاة الامويين — وكان من الطبيعيَ ان يلجأ اليه — هو زياد بن ابيه الذي قدِمَ البصرة بعد ان ولاّه معاوية ، والقى تلك الخطبة الشهيرة المعروفة بـ « البتراء » لانه لم يبدأها بحمد الله والثناء عليه ، حيث قال :

[١] كان الخوارج يدينون بالمبدأ الجمهوري كما عبر المستشرق « فان فلوتن » ، وكان الشيعة يعتقدون ان آل الرسول احق الناس بولاية المسلمين ، وكان الزبيريون ينفون دعوى معاوية في حصر السلطة بقريش الشام ، ويرون انها لقريش الحجاز .

« اما بعد ، فان الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والغي الموفي باهله على النار ، ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه علماؤكم من الامور العظام ، ينبت فيه الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير . »

وانتهى من هذه التقريعات القاسية ، التي زرعت احقاداً جديدة في نفوس البصريين ، الى التهديد والوعيد .

« ... فاياي ودَلَجَ الليل ، فاني لا أوتى بمُدلجٍ إلا سفكتُ دمه ... وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة : مَن غرّق قوماً أغرقناه ، ومَن أحرق قوماً احرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنّاه حياً فيه ، فكفوا عني ايديكم والسنتكم اكفف عنكم يدي ولساني ، ولا تظهر من احد منكم ريبة ، بخلاف ما عليه عامتكم ، الا ضربت عنقه . »

ولكن اهل العراق يعرفون ان زياد ابنُ امرأة بغي ، فهو مجهول الاب ، وضيعُ النسب ، ويعرفون ان معاوية استلحقه بنسبه اتقاءً لمعارضته واستنصاراً به على علي ، ويعرفون ايضاً وايضاً انه كان عامل الامام وانحاز الى معاوية إبقاءً على وظيفته ، وانه لا يملك من وسائل التأييد غير سيوف اهل الشام ، فما كفوا عنه ايديهم ولا ألسنتهم ، بل راحوا يسخرون منه ويلصقون به اقبح التهم وأشنعها ، وراح هو ، من جانبه ، ينفذ توعداته ، ويضرب الاعناق ، وراحت الاحقاد والتِرّات تتكاثف وتتراكم ...

وعندما هلك المغيرة بن شعبة وليَ الكوفة من بعده زياد ، فشخص اليها من البصرة ، وهناك جمع الناس في المسجد الجامع وخطب قائلاً :

« ... ان هذا الامر اتاني وانا بالبصرة ، فاردت ان اشخص

اليكم في الفين من شرطة البصرة . ثم ذكرت انكم اهل حق وان حقكم طال ما دُفِعَ الباطل ، فأتيتكم في اهل بيتي . فالحمد لله الذي رفع مني ما وضع الناس ، وحفِظ مني ما ضيعوا . »

ومذ فرغ من هذه الخطبة التي تنضح بالعُجب واللؤم والتكبر انهالت عليه الحصى من فوق المنبر ، فجلس حتى امسكوا . ثم دعا قوماً من خاصته وامرهم ، فاخذوا ابواب المسجد ، ثم قال : « ليأخذ كل رجل منكم جليسه ولا يقولنّ من جليسي . »

ثم امر بكرسي فوضع له على باب المسجد ، ودعاهم اربعة اربعة يحلفون بالله : « ما منا مَن حصبك » . فمن حلف خلاه ، ومن لم يحلف حبسه وعزله حتى صار الى ثمانين رجلاً ، فما ترك المسجد الا وقد قطع ايديهم[١] ! »

هذه الاساليب الادارية القاسية ، البالغة في قسوتها ، مكّنت زياد من ادخال الرعب في قلوب العراقيين ، ووفرت له هدوءاً نسبياً رفع من مقامه في نظر اسياده الامويين . فلما هلك، حلّ ابنه عبيدالله محله ، فتخذ من سيرة ابيه قدوة ، وراح يتقرّب من اهل الشام بزيادة الضغط على اهل العراق ، واللجوء الى تدابير اصرم فاصرم الى ان قُتِل الحسين بن علي ، فانفجر العراق حينئذ انفجاراً هائلاً تمثّل في سلسلة ثورات حوّلت البلاد بما فيها ومن فيها الى هشيم مشتعل .

ذلك هو الاصل الذي ترقى اليه قسوة الحجاج الشهيرة ، وهذا هو « الموقف الاداري » الذي يجب على الامويين ان يقفوه ليصونوا

١ الطبري، الجزء الرابع .

ملكهم في العراق ، ويحفظوا هيبتهم في نفوس اهليه ، دلهم عليه زياد ونبّه « الطامعين في الولاية » اليه ، فكان الحجاج اول من تنبّه ، واقتفى خطى زياد ، ونسج على منواله . وقد تستغرب اذا علمت ان في المؤرخين من يقول : إن زياداً يضرب في أعراقه الى ارومة ثقفية ، اي الى ارومة الحجاج ذاتها.

هاك ما يذكره ابن ابي الحديد في شرح النهج : « فأما زياد فهو زياد بن عُبيد ، ومن الناس من يقول عبيد بن فلان وينسبه الى ثقيف ، والاكثرون يقولون : إن عبيداً كان عبداً وانه بقي الى ايام زياد فابتاعه وأعتقه ... ونسبة زياد لغير ابيه لخمول ابيه والدعوى التي استُلحق بها [١] ، فقيل تارة زياد بن سميّة ، وهي امةٌ للحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج الثقفي طبيب العرب وكانت تحت عبيد .» فاذا اخذت برواية المسعودي ، وهي ان ام الحجاج كانت تحت الحارث بن كلدة ، قبل ان يتزوج منها يوسف ، ادركت هذه القرابة بين الطاغيتين في البيئة . إن لم تكن في الوراثة ، او في الوراثة إن لم تكن في البيئة ، او في كليهما معاً .

ولكن القرابة بين زياد والحجاج تطل سافرة واضحة في اكثر من ناحية : في البلاغة الرائعة عند كلّ منهما ، في القوة الشديدة ، في اسلوب الادارة ، في ضعة النفس ، في الميل الى العنف لتحقيق الذات وتوكيد السلطان . واذا انت قارنت بين تصرفات الرجلين ، هالك هذا التشابه في حياتيهما ومسلكيهما .

١ اشارة الى دعوى معاوية في ان زياداً اخوه من ابيه .

وأعجب من ذلك كله ان العصر كان بجميع من فيه ينزع الى الاستبداد نزعة إجماعية لا يعلم إلا الله كيف نشأت ، وما هي اصولها . ولا يستبعد ابداً ان يكون توفيق معاوية ، على افتضاح وسائله ، هو الذي حمل الولاة والامراء والساسة على التمرد ، وأغراهم باصطناع القسوة حيناً ، والمراوغة حيناً ، والاغتيال حيناً ، بالاضافة الى هذه المسافة بين طبيعة الشام الواقعية ، وطبيعة العراق الثورية ، وطبيعة الحجاز الاريحية ، وتفاعل هذه الطبائع فيما بينها حول انهيار السلطة والطمع فيها .

تأمل الشام نفسها حين اضطرب الموقف فيها بعد هلاك يزيد ، وتنازل ابنه معاوية عن الخلافة كيف اختلف الامويون فيما بينهم على الرئيس الجديد ، وسالت دماؤهم ، وكثر تناحرهم حتى اقبل مروان بن الحكم من المدينة ، هارباً من عبدالله بن الزبير ، وكيف اضطر مروان الى خوض معركة ليتمكن من ناصية الامر ؛ ثم كيف تسلم الخلافة شرط ان لا تكون في ولده من بعده ، وكيف انه عمل على مبايعة ابنه عبد الملك ، مما احفظ عليه احدى نسائه ، وكانت ام وليّ العهد ، فقتلته خنقاً — تأمل ذلك كله ، تجد ان روح الاستبداد كانت قد تغلغلت في النساء والرجال والكبار والصغار من ابناء ذلك العصر .

في هذه الظروف العاصفة الحالكة التي تغمرها نزعة الاستبداد ارتقى عبد الملك بن مروان منصة الخلافة ، وكانت خلافته نفسها تعبيراً عن سيادة الطغيان ، لان الامويين لم يكن لهم في ارتقائه رأي ولا حيلة ؛ بله سائر القبائل والامصار .

ولكن عبد الملك ادرك حرج الموقف ودقته ، فخطب في

مكة ، بعد قتل عبدالله بن الزبير وقـــال : « اني والله ما انا بالخليفة المستضعف (يريد عثمان بن عفان) ، ولا بالخليفة المداهن (يريد معاوية بن ابي سفيان) ، ولا بالخليفة المأفون (يريد يزيد ابن معاوية) ، فمن قال برأسه كذا ، قلنا له بسيفنا كذا [١] ... »

واذا انت رجعت الى اكثر مواقف عبد الملك وجدت كلمة « سيف » تعود مراراً وتكراراً على لسانه ، فقد خطب مرة فقال : « ايها الناس ! ان الله حد حدوداً وفرض فروضــاً ، فما زلتم تزدادون في الذنب ، ونزداد في العقوبة حتى اجتمعنا نحن وانتم عند السيف . »

ونظر مرة الى ابنه الوليد ، وهو يبكي عليه عند رأسه فقال : « يا هذا ... أحنين الحمامة ؟! اذا انا مت فشمر واتزر ، والبس جلد نمر ، وضع سيفك على عاتقك ، فمن ابدى ذات نفسه لك ، فاضرب عنقه ، ومن سكت مات بدائه ... »

ولما ورد اليه كتاب الحجاج يخبره بخروج ابن الاشعث ، خطب في الجامع فقال : « ان اهل العراق طال عليهم عمري فاستعجلوا قـــدري ، اللهم سلط عليهم سيوف اهل الشام حتى يبلغوا رضاك ، فاذا بلغوا رضاك لم يجاوزوا الى سخطك . »

نحن اذن امام خليفة قام بالسيف ، وسيعيش عـلى السيف ، ولن يؤمن الا بالسيف ، ولن يرى اصلح مـــن السيف لادارة البلاد وسياسة العباد .

١ علق ابو اسحاق النظام على هذه الخطبة بقوله يخاطب عبد الملك : «اما والله لولا نسبك من هذا المستضعف ، وسببك من هذا المداهن ، لكنت منها ابعد من العيّوق ، والله ما اخذتها بوراثة ، ولا سابقة ، ولا قرابة ، ولا بدعوى شورى ، ولا بوصية » .

هذا هو فهمه للادارة والسياسة بصورة عامة ، فكيف يكون رأيه في ادارة العراق خاصة ؟ ومن هو الرجل الذي يتولى حكم العراق وتلك حاله مع الامويين ؟ اين هو المخلص له اولاً ، ولبني امية ثانياً ، وللشام ثالثاً ، ويكره العراق واهله رابعاً ، ويحسن استعمال السيف على اعنف ما يحسن استعمال السيف اخيراً ؟ من هو ؟ واين هو ؟

فكر طويلاً في هذه العقدة وقلّبها على جميع وجوهها ، فرأى ان يستشير . ثم جمع اهل بيته وأولي النجدة من جنده ، وقال :

« ايها الناس ، ان العراق كدر ماؤها ، وكثر غوغاؤها ، واملولح عذبها ، وعظم خطبها ، وظهر ضرامها ، وعسر إخماد نيرانها ، فهل من ممهد لهم بسيف قاطع ، وذهن جامع ، وقلب ذكي ، وانف حمي ، فيخمد نيرانها ، ويردع غيلانها ، وينصف مظلومها ، ويداوي الجرح حتى يندمل ، فتصفوَ البلاد ، ويأمن العباد ؟ »

فسكت القوم ولم يتكلم احد ، فقام الحجاج وقال : « يا امير المؤمنين ! انا للعراق . » فأجابه عبدالملك : « إجلس ، فلست هناك . » وتابع كلامه : « ما لي ارى الرؤوس مطرقة والالسن معتقلة ! » فلم يجبه احد ، فكرّر الحجاج : « انا مجدّل الفساق ، مطفىء نار النفاق ، وقاصمُ الظَلمة ، ومعدن العفو والعقوبة ، وآفة الكفر والريبة . » فردّه الخليفة : « اليك عني وذاك ، فلست هناك . » ورجع للمرة الثالثة : « من للعراق ؟ » فسكت القوم وقال الحجاج : « انا للعراق . » فقال عبد الملك : « إذن اظنك صاحبها والظافر بغنائمها .

وان لكل شيء يا ابن يوسف آية وعلامة، فما آيتك وما علامتك؟ »
قال : « العقوبة والعفو والاقتدار ، والبسطُ والازورار ، والادناء والابعاد ، والجفـــاء والبر ، والتأهب والحزم ، وخوض غمرات الحرب بجنان غير هيوب . فمن جادلني قطعته ، ومن نازعني قصمته ، ومن خالفني نزعته ، ومن دنا مني اكرمته ، ومن طلب الامان اعطيته ، ومن سار الى الطاعة بجّلته . فهذه آيتي وعلامتي . وما عليك، يا امير المؤمنين، ان تبلوَني ؟! فان كنتُ للاعناق قطّاعاً، وللاموال جمّاعاً ، وللارواح نزّاعاً ، ولك في الاشياء نفّاعاً ، وإلا فليستبدل بي امير المؤمنين ، فان الناس كثير ، ولكن من يقوم بهذا الامر قليل . » فأجاب عبد الملك : « انت لها ، فما الذي تحتاج اليه؟ » قال : « قليلٌ من الجند والمال. » فدعا له صاحبَ الجند وخازن المال وطلب اليهما تجهيزه بما يحتاج اليه .

أرأيت الى هذا التهالك الذي ابداه الحجاج على ولاية العراق؟ ارأيت الى هذه التبعة الخطرة التي انتدب لها الحجاج نفسه ؟

لن ينسى موقفه هذا طيلة ولايته ، وسيشعر لدى كل لحظة بعد اليوم ان حياته في خطر ، وسيخلق منه هـذا الشعور وحده فذّاً من افذاذ التاريخ .

سيخوض اذن ميدان الاستبداد ، وسيكون المجلّي فيه على جميع من تقدّمه وعاصره ، إن لم يكن عن اقتناع وعقيدة ، فدفاعاً عن نفسه على الاقل ، وإرواءً لما يغتلي في ماضيها مـــن احقاد . والويل له كل الويل اذا قصّر فأبطأت به رحمة ، او لوت سيفه رأفة ، واخذته بانسان عاطفة !

ولكن من هو هذا الذي زج بنفسه من تلقاء نفسه في اتون

الطغيان؟ من كان ومن يكون؟ وما خطبه؟ ومـــا دهاه ليظلم نفسه ويحملها على ظلم الناس؟

من هو الحجاج

١ — الطائف

يقوم الى الجنوب الشرقي من مكة المكرمة ، على بعد اثني عشر فرسخاً ، جبل كبير ، ممتد الجوانب ، متشعب الفروع ، رحب الاطراف ، يقال له « جبل غزوان » .

يتفرّع هذا الجبل في الجانب الشمالي الغربي من امتداده الى جملة فروع ، فتتوزّع اسمَهُ عدة هضبات ، تنفرج فيما بينها عن واد دعاه العرب « بطن وجّ » .

هناك ، في ربوات غزوان ، وفي بطاح وجّ ، كان يقيم بنو عُدوان في الجاهلية الذين انبتوا « حَكَم » العرب ، عامر بن الظرب العدواني المشهور بعدالة قضائه ، وصفاء ذهنه ، ونزاهته في الحكم.

وفي ذات يوم ، بينما كان رهط من بني عدوان يرعون غنمهم في وعور الجبل ، اقبل عليهم رجل رث الثياب ، عاري القدمين ، ولكنه قوي البنية ، عريض المنكبين ، وطلب اليهم ان يكون في خدمتهم ، يؤدّي المهام التي يؤدونها ، من حرث الارض ، ورعي الماشية ، وغزل الصوف . فلما سُئِل عن اسمه قال : « انا قسي بن منبه بن ... بن ... » الى ان وصل الى « نزار ». ولم يكن ، في الواقع ، غير عبد آبق هرب من سيده « ابي رغال » الذي قال

فيه حسان بن ثابت الانصاري :

إذا الثقفي فاخركم فقولوا هلمّ نعدّ شأن ابي رغال
ابوكم اخبث الآباء قِدماً وانتم مشبهوه على مثال

اما نسبه الحقيقي، فلا يزال سراً من اسرار التاريخ .

وطيّر الرعاة خبر قسي الى زعيم القبيلة عامر بن الظرب ، فقبل به وزوّجه بامرأة عُدوانية ، بعد ان ادخله في قومه .

وكان من امره ، على توالي الاعوام ، ان خلّف عدداً كبيراً من الاولاد ، استطاعوا فيما بعد ان يستولوا بالقوة على الجبل والوادي معاً ، وان يطردوا اخوالهم العُدوانيين منهما عقِبَ عراكٍ دامٍ طويل كثر فيه الاخذ والرد ، والكسر والنصر ، وانتهى اخيراً باستسلام بعض العدوانيين ، وفرار البعض الآخر .

وما هي إلا اعوام تَلَتِ الغلبة حتى انقلب اسم قسي الغالب الى « ثقيف » الذي « ثقف » ارض بني عُدوان ، اي لقيها كما يلقى الضالّ كنزاً ضائعاً .

وكانت طبيعة تلك الارض التي تجودها السماء بالمطر ، والجبال بالينابيع ، والهواء المعتدل بالخصب — كانت تسمح بانشاء المساكن وعمارة المنازل . فهجر بنو ثقيف المغاور والكهوف والاكواخ ، والخيام ، تدريجاً ، وراحوا يبنون البيوت في سفوح هضاب غزوان ، على الجانب الايمن من بطن وج ، لاسيما بعد ان كثر ولدهم ، وعظم شأنهم في العرب ، واصبحوا هدف الغزوات والحملات من مختلف القبائل والعشائر .

ثم انتسج ، بين القرية الثقفية الناشئة والقرية القديمة مكة ، ضربٌ من التحالف الطبيعي الذي تفرضه الحضارة والجوار ، ويتطلبه دفع

الغارات وحماية المساكن . وهكذا... اصبح القرشيون، والحميريون خاصة، احلافَ الثقفيين يرتادون منازلهم، وينشدون نجدتهم في الملمات، ويعتمدون عليهم في كثير من الظروف والمناسبات .

عاشت قرية بني ثقيف دهراً تنمو وتزداد سكاناً وعمراناً واسمها « وادي وج » الى ان قدم اليها ذات يوم رجل من اقليم الصدف يقال له « الدمون » بن عبد الملك من اهالي حضرموت ، وقد جاء لاجئاً سياسياً يرجو الحماية لانه قتل ابن عم له ، وفر يحمل مالاً كثيراً ، وكان من قبل يمارس التجارة في عاصمة حضرموت .

وفدَ هذا الرجل على بني ثقيف ، فاقتيد الى منزل شيخ القبيلة مسعود بن معتب الثقفي . ومذ اطمأن به المقام ، تقدم الى الرئيس بمشروع هندسي عظيم ، هو ان يبني طوَّفاً (اسوار من الماء) حول القرية كلها يمنع بها الغزاة من الدخول . قال مسعود :

– فكرة جليلة ممتازة ! ولكن تحقيقها يحتاج الى مال كثير !

– انا اقدم المال . ولي رجاء واحد اليكم .

– هو ؟

– ان تزوجوني احدى بناتكم .

– لبكن ، فانت اهل ونحن كرام .

وتم زواج الدمون باسرع ما يمكن ، واقيمت الزينات ، واحتفلت القبيلة كلها به ، حتى اذا زفت اليه العروس بوشر العمل ، فلما بني الطوف وانتهى الامر اصبح اسم القرية « الطائف » .

والطائف اول بلد عربي تمثلت فيه الثقافة الحضرية عند عرب الشمال ، فكانت في صحراء البداوة واحة حضارة ، لانها « ذات مزارع ونخل واعناب وموز وسائر الفواكه ، وبها مياه جارية

تنصبّ منها الى تبالة . »

وعندما اوذي النبي محمد في مكة ، ومنع القرشيون عنه وعن أسرته الطعام وهمّوا بقتله ، فزع الى الطائف يستعدي اهلها على ظالميه ، ويستنجدهم في محنته ، ويبلغهم رسالته ، ولكنهم – وهم احلاف القرشيين – افلتوا احداثهم يرمونه بالحجارة ، ويسخرون منه ، ويقذفونه باقبح التهم والزرايات . فهام على وجهه هارباً الى ان رقّ لحاله بعض فتيان قريش المقيمين في الطائف ، فبعثوا اليه بعنقود من العنب يدفع به جوعه وظمأه . ذاك اول ما كان من اهل الطائف في بدء الحركة الاسلامية !

يقول ياقوت : « ... وهي ، مع هذا الاسم الفخم ، بُليدة صغيرة على طرف واد . وهي محلتان : احداهما عن هذا الجانب يقال لها « طائف ثقيف » . والاخرى على هذا الجانب يقال لها : « الوهط » . والوادي بين ذلكَ تجري فيه مياه المدابغ التي يُدبغ فيها الأديم ، يصرع الطير رائحتها اذا مرت بها ، وبيوتها لاطئة حرجة ، وفي اكتافها كروم على اكتاف ذلك الجبل ... »

اما مناخها ، فهو من الصفاء والعذوبة والاعتدال ما جعلها مصيف الطبقة الارستقراطية من العرب ، اذ كانت البلدة الوحيدة التي تمر بأطوار من البرد الشديد في فصل الشتاء ، بالاضافة الى ما يغمر جوانبها من الاشجار ، والكرمة خاصة . ويحكى انه لما حج سليمان بن عبد الملك مر بالطائف فرأى بيادر الزبيب ، فقال : « ما هذه الجرار ؟ » فاجيب : « هذه ليست جراراً ، ولكنها بيادر الزبيب . » فقال متعجباً : « لله درّ قِسيّ بأي ارض وضع سهامه ، واي ارض مهّد عش فروخه ! » وقال الشاعر محمد بن

عبدالله النميري ، يصف زينب بنت يوسف اخت الحجاج بالنعمة والرفاهية :

تشتو بمكة نعمة   ومصيفها بالطائف

وتقول الاسطورة[١] : ان الطائف هذه كانت في ايام العرب البائدة ، في اقصى العصور ، مقراً لعبد ضجم بن إرم بن سام بن نوح ، جاءها بولده ومن تبعه واقاموا فيها دهراً بادوا بعده ، وتذكر انهم هم اول من كتب بالعربية ووضع حروف المعجم ، وهي حروف ا ب ت ث... التسعة والعشرون حرفاً . فاذا صح ذلك - وليس ثمة ما يمنع صحته ، لجهلنا بتاريخ الحروف العربية - كان اشارة الى اصالة الروح الحضري في الطائف ، وعمق جذوره في تاريخها .

وعندما جاء الاسلام كان للطائف موقف معارض ، شديد ، اذ راح اهلها يناصرون أعداءه ، ويؤلبون عليه القبائل .

هذا في فجر الدعوة الاسلامية . فلما اشتدّ أسرُ الرسول العربي ، وقويت شوكته حاصر الطائف بعد غزوة حنين ، ودام حصارها خمس عشرة ليلة . وطائف ثقيف هي التي ابت ان تستسلم ، وكان عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة ، وهما من سادات ثقيف قد ذهبا الى جرش يتعلمان صنعة المجانيق والدبابات للحصار ، لما احسوا من قصدِ رسول الله إياهم ، ولكن المدينة سلمّت قبل عودتهما ، فلم يشهدا الحصار ، ولا حنيناً قبله[٢] .

١ مروج الذهب، ج ٢، ص ٦٠ .
٢ تاريخ ابن خلدون : الكتاب الثاني في أخبار العرب واجيالهم .

وكان استسلام الطائف للمسلمين في سنة تسع من الهجرة صُلحاً اذ لم يشأ النبي ان يدخلها عنوةً ، فكتب لاهلها كتاباً وفكّ عنهم الحصار .

على ان هذه الغزوة تركت في نفوس اهلها اثراً لا يمحى ، فطفقوا يناصرون اعداء آل محمد ، منذ تسلم السلطة عثمان بن عفان ، وانحازوا بجملتهم الى صف معاوية واعوانه .

في هذه البلدة العريقة في حضارتها ، الموغلة في عداوتها لبني هاشم ، ولد الحجاج بن يوسف الثقفي عام ٤١ للهجرة (٦٦٣ م.) ، اي في السنة ذاتها التي بويع بها معاوية في القدس .

٢ — بنو ثقيف

كان العرب الاقدمون يجعلون النسب قيمة من القيم العليا توازي في نظرهم الفضل والادب والاخلاق ، أو تسمو عليها في اكثر الاعتبارات والحالات . فمن لم يكن متحدراً من قبيلة عريقة في الجاه والسؤدد ، سلك إلى المكارم والفضائل سبلاً ترفع ذكره ، وتعوض عن نسبه ، ونشط الى تحقيق اعمال جليلة يدفع بها ما يعترضه من تنكر الجماعة لأجداده ، وانكارها لسابق فضله .

وهكذا ... نجد ان العرب التفتوا ، اول ما التفتوا ، عندما نشأت الحركة الاسلامية ، الى القائم بها والداعي اليها ، يلحظون فيه ، اول ما يلحظون ، ارومته ، فاذا هي في « قريش » . وقريش كانت تتمتع في الجاهلية بما يشبه السيادة على غيرها من

قبائل العرب . وجاء الاسلام فوطد هذه السيادة وجعلها حقيقة لا يرقى اليها ريب ، ولا يجسر احد على الوقوف امامهـــا .

ولكن سيادة قريش كانت عبئاً ثقيلاً على اكثر القبائل التي تنافسها في العدد والنفوذ ، وتزاحمها على السلطان والسيطرة ، مما جعل تلك السيادة القرشيّة ينبوع احقاد وضغائن ، وفتن وثورات تظهر تارة وتكمن تارة .

وكانت ثقيف ابرز القبائل التي تتصدى لمنازعة قريش السيادة ، وتطمح الى اخفات صوتها واحتلال مكانتها حتى ان احد ابنائها ، وهو امية بن ابي الصلت الشاعر المعروف ، زاحم ، او خطر له ان يزاحم النبي علـى النبوة ! وحديث ذلك مبسوط مشهور في اكثر كتب التاريخ .

غير ان الثقفيين لم يكونوا بالمنزلة الاجتماعية الاصيلة التي ينشدونها وإن كان لهم من الاحترام وبعد الصيت وبسطة الجاه مـــا جعل سائر القبائل تجلّهم وتخشى بأسهم في جانب ، وحمل القرشيين على مخالفتهم ومساندتهم في الجانب الآخر .

تأمل ان مناوئي الدعوة الاسلامية أسفوا ان لا يكون القرآن قد « نُزِّلَ على رجل في القريتين عظيم » ، والرجل الذي يعنون هو احد بني ثقيف ، ومن المؤرخين َمن يقول : انه « عروة بن مسعود » ومنهم من يقول : انه « حبيب بن عميرة » وكلاهما من ثقيف . وهذا ما حدا الوليد بن يزيد ، الخليفة الاموي الشاعر ، على القول في معرض الفخر :

انا ابن عظيم القريتين ، وعزها ثقيفٌ وفهدٌ والعصاةُ الأكابرُ[١]

١ كانت ام الوليد بنت محمد بن يوسف الثقفي اخ الحجاج .

ثم تأمل كيف يفخر امية بن ابي الصلت بقوله :

قومي ثقيفٌ، إن سألتِ، وأسرتي　　وبهم أدافع ركن من عاداني
قوم اذا نزل الغريب بدارهم　　ردّوه ربّ صواهل وقيانِ
لا ينكتون الارض، عند سؤالهم　　لتلمّس العلات ، بالعيدانِ

والظاهر ان مجد الثقفيين يرجع ، في حقيقته ، الى ثرائهم وغنى ارضهم وسعة تجارتهم اكثر مما كان قائماً على بطولات وفضائل وأيادٍ لهم في حيواتِ العرب . فهم يمثلون ، الى حدّ بعيد ، زهرة الوثنية العربية وحضارتها ، ومـا يرسب في اغوار هاتيك الحضارة الوثنية من عرامة وقوة وشراسة ، مع ما تظهر به مـن مظاهر الترف ، والبذخ ، والاسراف في المتـع المادية ، كزركشة اللباس ، وزخرفة الاثاث ، والتباهي بآلات الطرب وعدد القيان والجواري ، والاقبال على الصيد والشراب ...

هذا هو شأنهم قبل الاسلام ... وعيبهم الاكبر في ذلك العهد ، اي في الجاهلية ، انهم لم يكونوا ذوي نسب واضح . وما هذا بالشيء القليل عند قوم يحسبون « النسب » في اعلى مراتب القيم ! وهوانُ نسبهم عـلى العرب كان علة العلل فيما ابدوا من شراسة ، واقدموا عليه جملة من فتك وبطش .

قال ابن الكلبي : « ... ويقال : إن ثقيفـاً كان عبداً لابي رُغال ، وكان اصله من قوم نجوا من ثمود ، فانتمى بعـد ذلك الى قيس . »

ورُوي عن علي بن ابي طالب انه مرّ بثقيف فتغامزوا بـه ، فرجع اليهم وخاطبهم قائلا : « يا عبيد ابي رغال ! إنما كان ابوكم عبداً له ، فهرب منه ، فثقفه بعد ذلك ، ثم انتمى الى قيس . »

وفي نهج البلاغة ان مشاجرة كلامية وقعت بين الامام علي وعثمان، فقال المغيرة ابن الاخنس – وهو ثقفي – لعثمان : « انا اكفيكه .» فاضطرب علي في المجلس وقال له : « يا ابن اللعين الابتر، والشجرة التي لا اصل لها ولا فرع ، انت تكفيني ! فوالله ما اعز الله من انت ناصره ، ولا قام من انت منهضه ... » وفيه تعيير واضح بنسبه .

وقال الحجاج مرة في خطبة خطبها بالكوفة : « بلغني انكم تقولون : إن ثقيفاً بقية من ثمود ، وهل نجا من ثمود إلا خيارهم ، ومن آمن بصالح فبقي معه ، عليه السلام . وقد قال الله تعالى : وثمود فما ابقى . » وعندما بلغ ذلك البصري ، تضاحك هازئاً وقال : « حكم لكع لنفسه ! إنما قال عزّ وجل : فما ابقى ، اي لم يبقهم بل اهلكهم[١] .»

ويحكى ان المغيرة بن شعبة ذهب – وكان واليَ الكوفة – الى دير هند بنت النعمان بن المنذر وهي فيه عمياء مترهبة ، فقيل لها :

– امير هذه البلاد بالباب .

– قولوا له : من ولد جبلة بن الايهم انت ؟

– لا .

– أفمن ولد المنذر بن ماء السماء انت ؟

– لا .

– من هو اذن ؟

١ لكع : اسم علم للشخص الذي لا يحترم نفسه ولا يحترمه الناس ، وكان هذا الموقف الذي وقفه الحسن البصري – وهو من اكابر العلماء في عصره – سبباً في نزوحه عن العراق، لان الحجاج طلبه من بعده ليفتك به، ولم يظهر له اثر الا بعد موت الحجاج .

- المغيرة بن شعبة الثقفي .
- ما حاجته ؟ دعوني اكلمه بنفسي ... ما حاجتك ؟
- جئتك خاطباً.
- لو كنتَ جئتني لجمالٍ او مال لاطلبتك [١] ، ولكنك اردت ان تتشرف بي في محافل العرب فتقول : نكحتُ ابنة النعمان ابن المنذر ، وإلا فأي خير في اجتماع اعور وعمياء [٢] ؟

فقال المغيرة وهو مغضب :

- اما نحن فمن بكر بن هوازن ، فليقل ابوك ما شاء !

وقال الحجاج يوماً لأبي العسوس الطائي : « ايُّ أقدم : أنزول ثقيف الطائف ، ام نزول طيء الجبلين ؟ » فقال له ابو العسوس : « إن كانت ثقيف من بكر بن هوازن فنزول طيء الجبلين قبلها ، وإن كانت من بقايا ثمود فهي اقدم . » فقال الحجاج : « إتقني ! فاني سريع الخطفة للاحمق المتهور . »

هذه الروايات — وما اكثر امثالها — تشير الى ضعة نسب الثقفيين وازدراء الاشراف ، اشراف العرب اياهم . وهناك روايات اكثر من هذه تشير الى توتر العلاقات بين الثقفيين والهاشميين خاصة . فقد روى الزهري ان النبي قال : « بنو هاشم والانصار (الأوس والخزرج سكان المدينة) حلفان ، وبنو امية وثقيف حلفان . »

وعندما انتصرت الحركة الاسلامية في داخل الجزيرة اضطر بنو ثقيف ، تحت ضغط الحوادث العسكرية والسياسية القبليـــة ، الى الانضمام اليها ، اي انهم دخلوا الاسلام إبقاء على ثرواتهم ، وصوناً

١ اي قبلت طلبك.
٢ كان المغيرة اعور .

لارواحهم ، وحفظاً لجاههم المادي ، وعاشوا ايامهم وثنيين بالروح ، متدينين اسماً ومظهراً، الى ان انطلقت العصبيات القبلية من مكمنها ، وثارت الاطماع حول الوظائف والولايات ، ومهّدَ لها معاوية سبُل الظهور ووسائل العمل . وهناك استبان وجه الثقفيين الحقيقي وابدوا للناس صفحتهم ، فاذا هي تتمثل في شخصيتين هائلتين : المختار والحجاج.

ولكن الوجوه البارزة من بني ثقيف ، التي تؤكد اصالة الروح الوثني عند هذه القبيلة ، اكثر من ان يحصيها عد . فما من اسرة عربية انتجت إنتاج ثقيف من الشخصيات القوية الشاذة ، في مختلف ميادين النشاط الانساني : في الطب ، في الشعر ، في الحرب ، في السياسة ، في الادارة ، في الاقتصاد ، واخيراً في الادب والخطابة ، حتى ليعجب المرء ان يرافق الشذوذ قبيلةً بكاملها طيلة ثلاثة اجيال متوالية .

فمنهم ابو محجن الثقفي الذي اقام عليه عمر بن الخطاب الحد مراراً لمعاقرته الخمر ، وهو لا ينتهي عنها ، ونفاه الى جزيرة في البحر ، وبعث معه حرسياً يراقبه ، ولكنه افلت من منفاه ولحق بسعد بن ابي وقّاص ، وهو يومئذ يحارب الفرس في وقعة القادسية . ولما بلغ عمرَ خبرُ هربه ، كتب الى سعد يحبسه ، فحبسه في القصر . وتطلّع ابو محجن ذات يوم الى الحرب فرآها مشتعلة ، فذهب الى زوجة سعد ، وطلب اليها ان تخلّي عنه وتعيره فرس زوجها ، فامتنعت عليه قائلة : « وما انا وذاك ؟ » فرجع يرسف في قيوده ويقول :

كفى حزناً أن تردي الخيلُ بالقنا
وأتركَ مشدوداً عليّ وثاقيا
إذا قمت عنّاني الحديد وغلّقت

مصاريع من دوني تُصم المناديا ...

فقالت له سلمى : « إني قد استخرتُ الله ورضيت بعهدك » ، لانه عاهدها ان يعود الى السجن بعد ان يخوض الحرب ، ثم اطلقته ، وسلمته فرس زوجها .

بعد المعركة ، اقبل ابو محجن مزهواً بما قام به من مآت جليلة وابدى من شجاعة نادرة ، يفتخر ويقول :

لقد علمت ثقيفٌ غير فخرٍ   بأنا نحن اكرمهم سيوفا
واكثرهم دروعاً سابغاتٍ   وأصبرهم اذا كرهوا الوقوفا
فان احبس فقد عرفوا بلائي   وإن اطلق اجرّعهم حتوفا

فقالت له سلمى : « يا ابا محجن ! في اي شيء حبسك هذا الرجل ؟ » فأجابها :

– اما والله ما حبسني بحرام اكلته ولا شربته ، ولكني كنت صاحب شراب في الجاهلية ، وانا امرؤ شاعر يدب الشعر على لساني ، فينفثه احياناً ، وقد حبسني لاني قلت :

اذا متّ فادفنّي الى جنب كرمةٍ   تروي عظامي بعد موتي عروقُها
ولا تدفنّني بالفلاة فانني   اخاف اذا ما متّ ان لا اذوقها .

فذهبت الى سعد واخبرته خبره ، فدعا به واطلقه ... ولكنه لم يقلع عن مجونه .

ومنهم امية بن ابي الصلت الشاعر الجاهلي الذي عاش دهره غريب الاطوار ، متفرداً بميوله ونزعاته وافكاره ، وذهب به الشذوذ الى استعمال الفاظ لا وجود لها في لغة قومه ولا قِبَلَ لاحد بفهمها .

ومنهم الحارث بن كلدة « طبيب العرب » الذي وفد على كسرى

انوشروان ، وجرت له معه مطارحة في مختلف الموضوعات الفكرية والطبية والاجتماعية كان من تأثيرها في نفس الملك الفارسي ان امر بتدوين كل ما قاله الحارث .

ومنهم المغيرة بن شعبة الداهية الذي اوحى لمعاوية بتنصيب يزيد من بعده ، والمغيرة بن الاخنس الذي قتل مع عثمان في داره ، ومحمد بن عبدالله النميري الشاعر الغزل الذي احب زينب اخت الحجاج وشبب بها ، وطريح بن اسماعيل احد الشعراء المشاهير في العصر الاموي ، وقد كان ماجناً خليعاً من طراز ابي نواس وسلفه ابي محجن ...

واخص ما يختص به افراد هذه القبيلة خصلتان : العنف ، والانعتاق من كل ما يقيد الغرائز وبكلمة واحدة : الروح الوثني ، اذ قلّ ان تجد فيهم شخصاً يتقيد بما يتقيد به عامة الناس من دين او اخلاق او عرف ، هذا الى نفاذ عجيب في اذهانهم ، وقوة خارقة في امزجتهم ، وقدرة واضحة على التكيف .

وليس هذا مما يوحي به سلوك الحجاج وحده وسلوك اخيه الذي ولي اليمن في عهده . لا ... وإنما نجد هذه الخصائص لدى كل ثقفيّ ان في الجاهلية وان في الاسلام . فقد حكى بعضهم حكاية رجل من بني ثقيف وُجد مع الخوارج ، ووقع اسيراً بين يدي الحجاج ، فقال له هذا : « اكفرتَ ؟ » فأجابه « نعم ، لو كان شيءٌ اشد من الكفر لبؤت به ! » فخلّى سبيله .

وروى المسعودي في مروج الذهب حكاية ثقفي قدم على الحجاج من البادية ، فرأى ابن عمه يولي الناس ، فدار بينهما الحديث التالي :

– ايها الامير (يخاطب الحجاج) لمَ لا توليني بعض هذا الحضر ؟
– هؤلاء يكتبون ويحسبون ، وانت لا تكتب ولا تحسب .
بلى ! إني والله لاحسبُ منهم حسْباً ، واكتب منهم كتباً .
– إن كان كما تزعم فاقسم ثلاثة دراهم بين اربعة انفس .
– ثلاثة دراهم بين اربعة ... ثلاثة بين اربعة ... لكل واحد منهم درهم يبقى الرابع بلا شيء !
كم هم ايها الامير ؟
– اربعة .
– نعم ايها الامير ! قد وقفتُ على الحساب : لكل واحد منهم درهم ، وانا اعطي الرابع منهم درهماً من عندي .
وضرب بيده الى تكته فاستخرج منها درهماً وقال :
– ايكم الرابع ؟ فلا ها الله ! ما رأيت كاليوم زوداً مثل حساب هؤلاء الحضريين .
فضحك الحجاج ومن معه ، ثم قال لمن حوله :
– ان اهل اصبهان كسروا خراجهم ثلاث سنين ، كلما اتاهم والٍ اعجزوه ، فلأرمينّهم ببدوية هذا وعنجهيته . فأخلق به ان ينجب.
ثم كتب له عهده على اصبهان . فلما وصل اقبل عليه اهلها واحتفلوا به ساخرين منه لعلمهم انه بدوي لا يرقى الى نقض ما يبرمون ، والخلاص مما يحيكون . فلما استقر في داره واجتمع الوجهاء حوله ، قال :
– مالكم تعصون ربكم وتغضبون اميركم وتنقصون خراجكم ؟
– جور من كان قبلك ، وظلم من ظلم .
– فما الامر الذي فيه صلاحكم ؟

– تؤخرنا بالخراج ثمانية أشهر ونجمعه لك .

– لكم عشرة أشهر ، وتأتون بعشرة ضمناء يضمنون .

وأتوه بهم . فلما قرب الوقت رآهم غير مكترثين لما ندبوا اليه ... حتى اذا شعرَ بمطالهم وتسويفهم جمع الضمناء وقال لهم : « المال ! » فأجابوه : « أصابنا من الآفة ما نقض ذلك . »

ومذ أحسّ انهم يتباطأون عمداً ، جمعَ الناس ثانيةً ، وآلى ان لا يفطر ذلك اليوم – وكان في شهر رمضان – حتى يجمع مال الدولة او يضرب أعناقهم . وجاء بأحد الضمناء فضرب عُنُقَه ، ووضع رأسه في بدرة كتب عليها « فلان بن فلان أدى ما عليه » . وفعل ذلك مع ضمين آخر . فلما رأى القومُ الرؤوس تُقطعُ وتجعل في الاكياس خفوّا اليه ضارعين : « ايها الامير ! توقف حتى نحضر لك المال ! » ففعل ، وذهبوا فأحضروه في أسرع وقت . وعندما بلغ الحجاج ذلك قال : « إنّا معاشر ثقيف ولدُنا نجيب ! »

هذا العنف ، وهذه القسوة ، وهذا التحلّل من القيود الانسانية والاخلاقية ، وهذه الجرأة في وضع القول الصارم موضع العمل ، هذه الروح الوثنية ، بكلمة واحدة ، تتجلى واضحة في سيرة المغيرة بن شعبة ، وعبد الرحمان بن عثمان ، والمختار بن عبيد ، ومحمد ابن يوسف اخي الحجاج ، وكلهم من الحكام والولاة الثقفيين ، كما تتجلى في اشعار شعرائهم الذين ذكرناهم .

وكان من الطبيعي ان تتوتر العلاقات بين الهاشميين والثقفيين لتعلق اولئك بالمثل الدينية الجديدة ، ورعايتهم لها في حياتهم وحياة الناس ، وزندقة هؤلاء ، واخذهم الحياة على انها دنيا

وحسب ، دونما نظر او اعتقاد بالدين . وقد همت ثقيف بالارتداد بعد موت النبي ، ولكن عثمان بن ابي العاص اشار عليهم – وكان مطاعاً فيهم – بالبقاء على الاسلام قائلاً : « لا تكونوا آخر العرب إسلاماً ، وأوّلهم ارتداداً [١] . »

ثم كان من الطبيعي ان ينحاز بنو ثقيف الى الجهة المناوئة للهاشميين ، اي الى عثمان في عهد عثمان – كما رأيت في امر المغيرة ابن الاخنس – والى معاوية في الصراع الذي نشأ بينه وبين علي ، ثم الى الامويين عامة بعد معاوية الاول ، والمروانيين خاصة بعد معاوية الثاني . والصلة بين المروانيين والثقفيين قديمة ، يرقى بها الزمن الى عهد الرسول ، اذ طرد الحكم بن ابي العاص الى الطائف لتجسسه على نسائه . فلما ذهب اليها اخذ معه ابنه مروان ، ومكث فيها طيلة ولايتي ابي بكر وعمر حتى وُلي عثمان فردّه الى المدينة ، اي ما يقرب من خمس عشرة سنة نشأ بها مروان في كنف الثقفيين ، ونما في وسطهم ، وتخلّق باخلاقهم ...

وروى الاعمش ان علي بن ابي طالب قال على المنبر في الكوفة : « لقد هممت ان اضع على ثقيف الجزية لان ثقيفاً كان عبداً لصالح نبي الله عليه السلام وانه سرّحه الى عامل له على الصدقة ، فبعث العامل معه بها ، فهرب واستوطن الحرم . وان أولى الناس بصالح محمد . واني اشهدكم اني قد رددتهم الى الرق ! »

ذلك ما قاله الامام في بني ثقيف من على منبر الكوفة ، اي من على المنبر ذاته الذي سيقف عليه الحجاج الثقفي ، والياً

١ العقد الفريد ، كتاب اللؤلؤة في السلطان .

من قبل ابن مروان ، يخطب القوم انفسهم الذين اشهدهم الامام علي ، على ارجاع اهل الحجاج وآله الى الرق !

٣ — حداثة بائسة

ولد الحجاج عام ٤١ للهجرة (٦٦٣ م.) في اسرة معذّبة منكّدة تجتاحها العواصف العاطفية والازمات النفسية الحادة ، يرهقها الفقر ، ويسيطر على جوّها الخمول والذلّ ، ويعطل بهجة حياتها ماضي الام التي طلّقها زوجها السابق ، ويسيء الى طمأنينتها الكدح في سبيل اللقمة .

والظاهر ان امه — وهي الفارعة بنت همّام بن عروة ابن مسعود (عظيم القريتين) — تزوجت قبل ان تقترن بابيه مرتين [١] الاولى من الحارث بن كلدة الطبيب ، والثانية من شاعر ثقفي اسمه المغيرة ، طلّقها الاول بعد اقترانه منها بايام لسبب تافه خلاصته انه وجدها تتخلّل عند السحر ، فقال لها :

- إن كنتِ بادرت الغداء فانت شرهة ، وان كنت بتّ والطعام بين اسنانك فانت قذرة .

فأجابته وهي تتألم لطلاقه إياها :

- كل ذلك لم يكن ، لكني تخللت من شظايا السواك .

ولكنها ما لبثت ان تزوجت من الشاعر المغيرة بن شعبة ، فأقامت معه ردحاً من الزمن ولدت فيه ابنةً منه لم تعمّر

١ هذه نقطة غامضة عند المؤرخين ، وليس لدينا من المصادر ما يوضحها ، وهي تختلف في ايراد اسم الزوج الاول .

كثيراً ... وكان نصيبها من المغيرة نصيبها من الحارث اذ طلّقها لاسباب مجهولة . فاعترض سبيلها بعد هذين الطلاقين ُمعلّمٌ بائسٌ في الطائف اسمه يوسف بن الحكم من ابنـاء عمومتها ، وتزوج منها ، فولدت له ثلاثة اولاد : محمد ، والحجاج ، وزينب ، وكلهم ذوو عاهات ، الاول ردىء الخلقة ، عظيم الجمجمة ، والثالثة ضخمة الهيكل ، عنيفة المزاج .

اما الثاني – وهو الحجاج – فقد وُلِدَ مشوّهاً لا دبر له [١] على ما يذكر المسعودي ، « فنقب عن دُبره » ، كما ذكر انه « ابى ان يقبل ثدي امه » .

هاتان حادثتـان : ماضي الام ، والعاهة الجسمية لا يستطيـع الباحث ان يمر بهما دون ان يعيرَهما انتباهه ، اذ لا يبعد ابداً ان يكون لهما الاثر الاكبر في تكوين نفسية الحجاج وبناء مزاجه الغريب .

اما سيرة امه الاولى فأكبر الظن انهـا اساءت الى كيان الاسرة التي انشأتها بعد تجربة او تجربتين اخفقت فيهما . وما كان زواجها من معلم بعد ما منيت به مـن طلاق إلا رضا بالقليل ، وقناعة بالرزق الميسور فخيال زوجها الاول ما انفكّ يراودها ، وحنينها الى تلك الايام التي قضتها بقربه كان يشتد ويتراخى مع الاحوال والمناسبات ، فما كانت لتحيا بقرب يوسف – والد الحجاج – حياتها الصحيحة ، اعني انها التزمت طرازاً في الحياة لا يلائم ميولها

١ اكد لنا البروفسور اسبيريدون ابو الروس ، والبروفسور انطون مرعب ، وهما من اساطين الطب في لبنان ، ان هذه الظاهرة شذوذ في تكوين الانسان ، تظهر عند بعض الاطفال في غشاء يغلف مؤخر الطفل ، وتكفي عملية جراحية بسيطة لازالته.

ولا ينسجم مع نزعاتها ومطامحها ، ولم تلتزمه إلا لضيق في ظروفها ، وغسلاً لآلامها ... التي ظهرت في اولادها .

ثم ما يكون من امرأة طلقت مرتين وتزوجت للمرة الثالثة ؟ أتراها تحس بالتوثب الى البناء العائلي الصحيح ، ام تريد ان تستتر وتهدأ ؟

لا مجال للاخذ بالفرضية الاولى . واذن نحن امام سيدة شبه متهدمة اقترنت برجل متهدم ايضاً لان « اجداده كانوا ينقلون الحجارة على اكتافهم ، ويحفرون الآبار بأيديهم » ، وهو لم يلجأ الى التعليم الا تكسباً بعد ان اعيته الحيل وضاقت في وجهه سُبل الرزق . وما كان التعليم يومئذ مهنة رابحة ، ولا كان من يمتهنه على شيء من الاحترام في المجتمع .

في هذا الجو المظلم ولد الحجاج ، وليتـه ولد كغيره من الاولاد ! وانما جـاء « اخفش العينين ، اصك الرجلين ، ممسوح الجاعرتين[١] » ، الى رأس كبير مستطيل « كأنه غرس بين كتفيه » ، مما حمل والدته ــ وهي والدة ــ على التبرم به والتثاقل في تربيته ، فاطلقت عليه اسم « كليب » ، اي كلب صغير ، لما ظهر عليه من البشاعة وسوء المنظر .

ونشأ الطفل في حجرة يملؤها صبيـة الحي الذين كانوا يأتون ليقرأوا القرآن ويتعلموا مبادىء الكتابة والحساب ، يحملون معهم لمعلمهم مـا يرسله اهلهم من زبيب وتمر ونقود ، حتى اذا بلغ

١ الخفش : ضيق في العينين وضعف في البصر خلقة . اصك الرجلين : هو الذي تضرب احدى ركبتيه بالاخرى عند العدو . الجاعرتان : لحمتان تكتنفان اصل الذنب ، وهما من الانسان موضع رقمي الحمار .

السادسة او السابعة من سنّيه كان على إلمام بسيط بالقراءة ، وما هي إلا سنوات قليلة انهى بعدها علومه في مدرسة ابيه ، حيث اظهر من الشغف بالعلم ، والميل الشديد للمطالعة ، ما جعله يفوق ابناء جيله ، ويسيء الى عينيه ، فتتسلّق اجفانه من السهر والانكباب على الدرس.

ها هو الآن في الثانية عشرة من سنيه لم يبقَ له ما يدرسه على ابيه . وها هو ابوه يضيق به ذرعاً ، فقد عجز عـــن إعالة اولاده ، واضطر الى الافادة من جهوده وجهود اخيه محمد ، علهما يُعينانه في تحصيل كفافِ يومه بعد ان حاقت به وبالبلاد الحجازية كلها ازمة اقتصادية خانقة ، لان عامل معاوية على الحجاز — وكان زياد بن ابيه يومئذ — اغرق البلاد بالفوضى ، وحكـّم فيها الجور وضجت منه قاطبة ما بين حاضرها وباديها ، فكان يجمع الاموال لينفقها على العساكر من جهة ، وعلى اخصام الامويين لاسترضائهم ودفع عدوانهم واتقاء سخطهم ، من جهة ثانية .

ولم يكن من يوسف ، تجاه تلك الازمة الخانقة ، إلا ان وضع ابنه الحجاج عاملاً في مدبغة من مدابغ الطائف حيث يتقاضى لقاء عمله ما يسد به رمقه . فكانت حياته هناك ضرباً من الاشغال الشاقة . بيد انها زرعت في نفسه من الاحقاد ما لا قبَل لاحد بتصوره ، وفتحت ذهنه على صور والوان من العذاب والاهانـة قل ان يشهدها من لم يمرّ بها .

تصوّر هذا اليافع الفقير الذي اطّلع على كثير من الكتب ، والذي ورث عن أهله القدامى طموحَ العزة ، يقضي ايامـه في مستنقع المدبغة ، يشم أكره الروائح ، ويزاول اثقل الاعمال على نفسه ، من نقل الجلود ورشها بالملح وتنظيفها من الشعر بين زمرة

الجزارين والدباغين ومن البهم ممن لا همّ لهم غير تحصيل القوت ، والعيش الخسيس الذي يشبه عيش البهائم [١] .

تصوره على هذه الحال وهو يفكر في طريقة للتخلّص من جوّه الخانق ذاك . ولكن كيف الخلاص ؟ واين الطريق اليه ؟

لم يكن امامه الا ان يمارس المهنة التي مارسها ابوه من قبله ، ولاسيما أن اباه اصبح عاجزاً عن متابعة التدريس بشكل يرضي امهات الاولاد وآباءهم ، فترك المدبغة ، وعاد الى الحجرة الضيقة يعلم الاولاد مكرهاً ايضاً وايضاً ، اذ ليس في التعليم ما يرضي مطامحه . غير انه افاد من عمله الجديد افادة كبرى اذ اتصل بالناس ومشاكلهم اتصالاً قريباً ، وتعرف الى طبائعهم ، واكتسب خبرة عميقة بمعاشرتهم واساليب التصرف معهم ، والناس ليسوا ، في نظر المعلم ، غير تلامذة كبار ، لا تختلف طباعهم الاصيلة عن الصغار في كثير ولا قليل ، فاذا وفق المعلم الى ادارة صفّه وضبطه وتوجيهه كان حرياً ان يوفق الى ادارة البلاد ، وضبط الامن ، وتوجيه الناس حين يمارس هذه الامور او ما يشابهها ويرادفها . ذلك هو شأن موسوليني الذي بدأ حياته معلماً ، وكان من قبل عاملاً ، فلما افضى اليه الحكم ابدى من البراعة ما جعله فذاً تنصاع اليه الحوادث والاشخاص .

ولكن المجتمع العربي الذي عاش فيه الحجاج لم يكن يحترم

١ قال كعب الاشقري ، وهو خارجي ، يهجو الحجاج :

ان ابن يوسف غره من غزوكم	خفض الجناح لجانب الامصار
لو شاهد الصفين حين تلاقيا	ضاقت عليه رحيبةُ الاقطار
ورأى معاودة الدباغ غنيمةً	ايام كان محالف الاقتار

غير قادة الحرب ، ورجال المنابر ، وعمال الولايات ، وائمة الشرع والفقه. اما المعلمون فلم يكن ، كالمجتمع العربي اليوم ، يحسب لهم حساباً ، او يقيم لهم وزناً ... وهذا ما حمل الحجاج على التبرم بمهنته ، وجعله يفكر تفكيراً جدياً في منصب تظهر به مواهبه ، وتطمئن اليه نفسه . ولمَ لا يفكر بتبوإ منصب رفيع في الدولة وقد عرف « حارة البغايا » في الطائف التي كانت تقطنها سُمية ، والتي نشأ منها وفيها زيادُ بن ابيه ؟ أيكون زياد افضل منه في نظر الناس ؟ وما هو وجه افضليته ؟ والمغيرة نفسه ، ألم يبلغ ما بلغه زياد بما بذل من خدمة واظهر من مواهب ؟ وعبد الرحمان بن عثمان ... وغيرهم وغيرهم ، كي لا يذكر الا ابناء ثقيف ؟

لا مشاحة ان باب المناصب مفتوح امامه ، كما فتح لغيره من ابناء عمومته الذين لا يزيدونه رفعة شأن ، إن في النسب وإن في المعرفة ، هذا ... إن لم يكونوا دونه مرتبة او مراتب في كليهما . ولكن السؤال الذي لم يجد له جواباً هو : « كيف يصل الى المنصب ؟ »

هنا طفِقَ الحجــاج يفكر كغيره من الوصوليين ، فراح يدرس الواقع السياسي ، ويُفيــدُ من مُعطيَاته ، ويراقب تطوراته ، ويتأمل مراحل سيره واتجاهه ، ويُعنى اكثر ما يُعنى بسيرة الذين تقدموه من الولاة وامراء الجيوش واصحاب العِمالات ، ويعمِلُ الفكر في الاساليب التي اوصلتهم ، حتى اهتدى الى المنفذ الذي ينفذ منه اسمُهُ الى مسامع الخليفة : ان يكون من اعوانه في اي صراع يحدث بينه وبين اعدائه .

وجاءت الحوادث تقدم له عدة فرص لا « فرصةً » واحدة . ففي

عام ٦١ للهجرة مات معاوية وولي ابنهُ يزيد ، فما كان من عبدالملك ابن مروان إلا ان دخل على يزيد فقال :

– أريضةٌ لك الى جانب ارض لي ، ولي فيها سعة فأقطعْنيها .

– يا عبد الملك ! إنه لا يتعاظمني كبير ، ولا أخدعُ عن صغير ، فأخبرني عنها ، وإلا سألتَ غيرها .

– ما بالحجاز اعظم منها قدراً .

– قد أقطعتك !

وهكذا ... دخلت الطائف في اقطاعية عبد الملك يوم كان الحجاج في العشرين من سنيه ، في عنفوان توثبه وطموحه .

ثم كان من يزيد ان استعمل على الحجاز عثمان بن محمد بن ابي سفيان . وعِمالة عثمان هذا تعني ان الجو ، جو المدينة ، خلا لمروان ابن الحكم ، اذ انتقل الحسين بن عليّ الى الكوفة ليجاهد فيها فامتلأت الحجاز بالمفاسد . وشاع استعمال المسكرات في مكة نفسها والمدينة ، وانصرف الناسُ الى الملاهي انصرافاً شبه تام ، وعمت الفوضى الاخلاقية جميع الطبقات ، حتى اذا قُتِلَ الحسين تحوّل نظر الحجازيين الى السياسة ، وراحت الحجاز تعج بالفتن ، كعهدك بالعراق او ادهى وأمرّ : الهاشميون قائمون قاعدون لمقتل عميدهم الحسين . وعبدالله بن الزبير يدعو الجماهير والافراد الى مبايعته . وبنو امية في ضيق ما بعده ضيق ، لتألب الكتل والاحزاب والقبائل عليهم . والامصار الباقية كاليمن وعمان وحضرموت ومصر مشدوهة في غمرة الحوادث يتجاذبها الف تيار وتيار ، لا تدري اي نهج تسلك ! ذلك ما كان يجري والحجاج واقف يتأمل متحفزاً للسير في ركب المنتصر ، متمنياً في قرارة نفسه ان

يؤرل الملك الى عبد الملك ، بعد ان دخلت بلده في اقطاعيته .

ونمي الى يزيد ما فعله اهل المدينة من طرد عامله والتضييق على الامويين ، فسيّر اليها جيشاً من اهـل الشام يقوده مُسلِمُ ابن عقبة المُرّيّ . وما كاد هذا يصل اليها على رأس جيشه حتى انضم اليه الحجاج تقديراً منه ان ساعة « المنصب » دقت . ولكن المعركة التي وقعت يومئذ في المدينة تحولت الى مذبحة هائلة طارت فيها الرؤوس وقطعت الاعناق . فهرب الحجاج تاركا والده لا يعلم من امره شيئاً ... ولا يلوي على شيء .

كان من نتائج هذه المعركة ان عرف كبار الامويين اسم الحجاج ، وليس هذا بالشيء القليل ! بيد انه اضطُرّ بعد ان هرب الى خوض معركة ثانية وقعت بين مروان بن الحكم وعبدالله بن الزبير اصيب فيها بالفشل لان الحملة التي جهّزهـا مروان لم تقوَ على الجموع الزاحفة نحوها من مكة والبصرة معاً . واستطاع الحجاج ان يهرب وينجو بنفسه . غير انه لم يهرب هذه المرة وحده ، وانما رافق اباه في الهزيمة ... ورمى العلم الذي كان يحمله بيده !

وادرك صاحبنا هـذه المرة ان لا سبيل الى نجاحه كجندي بسيط . فاذا كان يروم الوصول الى « مركز » يلمع فيه ، فعليه ان يعمل على تولي قيادة او رئاسة او ادارة عامة ذات مجال رحب يتّسع لمواهبه وميزاته التي بدأ يستشعرها في نفسه . كان مقتنعاً انه يصلح للقيادة ، وكان مقتنعاً انه لا يصلح كجندي . وهو لن يبلغ مركز القيادة إلا اذا وفق في الجندية . ارأيت الى العقـدة النفسية التي كان يتخبّط فيها ؟

الا ان طموحه كان من القوة بحيث دفعه على الاصرار ،

واللجاج حتى على نفسه . فما كاد عبد الملك يستولي على مقدرات الخلافة حتى راح الحجاج يتقرب منه ويتقرب الى ان اطمأن اليه الخليفة الجديد ، وارسله عضواً في وفد لمفاوضة زفر بن الحارث الذي ابى المبايعة – وكان من قبل قد حارب مروان . فلما وصل الوفد المفاوض يحمل كتاب عبد الملك الى زفر ، ورئيسه يومئذ رجاء بن حيوة ، كان وقت الصلاة قد حان ، فقام رجاء وصلى مع زفر ، وصلى الحجاج وحده . ومذ سئل عن تفرده بالصلاة قال : « لا اصلي مع منافق خارج على امير المؤمنين وعن طاعته ! »

وتناقل الناس يومئذ هذه الحكاية الطريفة حتى بلغت مسامع عبدالملك ، فاكبر اخلاص الحجاج وشعر بضرورة مكافأته ، فبأي شيء يكافئه ؟

ليس امامه الا ان يجعله والياً على احدى المقاطعات ، فارسله حاكماً على بلدة اسمها « تبالة » تقع على بعد خمسين فرسخاً من الطائف في اتجاه اليمن ، من ارض تياه ، اي مسيرة ستة ايام .

لا تسل عن فرح الحجاج وانشراح صدره باديء ذي بدء ، اذ اصبح الآن « حاكماً » ، وانتهى من الدباغة ، والتعليم ، والجندية ! لن يقوى احدٌ بعد اليوم على تعييره بامه ، ولن يجسر المحكومون على الهزء بدمامته ، وانتقاص شأنه . وماذا تهمه الدمامة وفي يده الآن ان « يتزين تزين المومس » ، وان « يرجّل شعره ، ويخضب اطرافه » . ولكنه سيظل عابساً ، مقطب الجبين ، قليل الضحك ، صوناً للوقار ، وابقاء على الهيبة .

وجيء بالدليل فسار امام الحجاج ، حتى اذا قربا من تبالة سأل الحجاج ، وقد شعر بالضيق :

– اين هي ؟ وعلى اي سمت هي ؟

قال الدليل واشار بيده :

– تسترها عنك هذه الاكمة .

تأمل الحاكم الجديد ما حوله ، فاذا هو لا يحكم إلا رقعة صغيرة من الارض ، بالاضافة الى بعدها عن عاصمة الدولة ، وأحس انه « منفيّ » اكثر مما هو « مُثابٌ » على إخلاصه ، او مكرّمٌ لنبوغه ، فغلى الدم في عروقه ، وشعر بمرارة تغمر اقطار نفسه ، ثم قال بعصبيّة ظاهرة :

– لا اراني اميراً إلا على موضع تستر منه اكمة ! اهوِنْ بها من ولاية !

وعادَ ، كاسف البال كسيرَ الخاطر ، الى الطائف . وماذا في الطائف ؟

انه لا يملك فيها ما يقتات به ، ولا يحمل اهلها له غير المقت والازدراء . فحديث فراره في المعارك ملأ محافل الرجال ونوادي النساء ، وقد اصبح في سنّ تقتضيه ان يتزوج وان يبني مستقبله . وايّة فتاة ترضاه زوجاً وهو على هذه الحال من الدمامة والاملاق وسوء السمعة ؟ ومن اين لشاب عرف بالجبن وضعة النفس وهزال المرعى ان يثير انتباه الاوانس او يحملهن على اجتذابه وكل ما فيه ، وما يدور حوله ، وما يسمع عنه ، منفرٌ مقيت ؟

لقد كان من امره ، وهو غلام ، ان لحق النميريّ الشاعر في ازقة الطائف يشتمه افحج الشتيمة على مسمع من صديق له كان يسير معه ، فسأله الصديق : « من هذا ؟» فقال الشاعر : « هذا الحجاج بن يوسف ! دعه فاني ذكرت اخته في شعري فأحفظه

ذلك ! [١] »

وكان منه ان نازع عروة بن المغيرة بن شعبة – زوج امه الثاني – الى ابـن زياد في ميراث اخته لامه ، واغلظ الكـلام لعروة الذي ابى اعطاءه شيئاً ، فأمر ابن زياد ، فضرب اسواطاً على رأسه [٢] .

وكان منه ما علمتَ من تحرّشه بحاشية الخلفاء ، وتزلفه للولاة ، وتقحمه مجالس الكبراء علّهم يلقون اليه بولاية او يسيّرونه على رأس كتيبة .

هذه الحوادث وامثالها كانت تعيش حية في اذهـان مواطنيه من اهل الطائف ، فلما رجع اليها من تبالة وأحسّ بازورار الناس عنه واحتقارهم اياه وتلبّد الجو حوله ، ندم على ما فرط منه ورأى ان ولايةً حقيرة كتبالة او احقر منها افضلُ من معـاشرة هؤلاء القوم الذين يعرفون عيوبه ، ويذكرون مساويء ايامه ، ويأبون الا الغض من شأنه والنّيل من كرامته .

لم يبق امامه الا ان يهجر الطائف لان بقـاءه فيها يعني الانتحار ، ولكن يهجرها الى اين ؟ عليه ان يؤمّن قوت يومه على الاقل ! وليترك الان الزواج والتفكير في الزواج ريثما يصبح في وضع يمكنه من الوقوف على قدميه . عليه ان « يخترع » عملاً يقصيه عن شانئيه ويخفيه عن اعينهم بحيث لا يسمع ما يسمع ، ولا يشهد ما يشهد . عليه ان يكون رجلاً لا طفلاً في تنـاول الحياة والتصرف بشؤونها . وسيعرف بعـد اليوم كيف يقتص

١ و ٢ الاغاني لابي الفرج في فصله عن محمد النميري .

لنفسه من الناس ، وكيف يجزيهم على نفورهم منه ومقتهم اياه .

ذلك ما فكر فيه ... ثم ما لبث ان يَمّمَ وجهه شطر وزير عبدالملك وأحد اعوانه المقربين منه، وهو رَوْح بن زنباع الجذامي، وكان يشغل وظيفة رئيس شرطة الخليفة . فدخل في سلك الشرطة آملاً ان يتولى رئاستها في المستقبل ، ويفيد منها في تأديب اخصامه وشفاء احقاده التي كانت تتكاثف وتتراكم في صدره يوماً بعد يوم.

وهناك ... في الشرطة ، ابدى من الحذق والمهارة وحسن تفهم الامور – وكان قد قارب النضج – ما حمل ابن زنباع على اكباره وتعظيم شأنه . وكان كل همه محصوراً في إسماع صوته للخليفة ، واشهار نفسه كعبد مخلص من عبيد امير المؤمنين ، فلم يترك فرصة الا استغلها لاظهار تلك « الصفة » ، ولا مرت سانحة الا انتهزها لانتحال تلك السمة ، وهي سمة يأباها غيره ، ويعتذر عنها من لصقت به ، ولكنه كان يعرف وحده ، عنوة عن الناس اجمعين ، انه لم يطلبها ، ولم يَحْتَلْ للاتسام بها الا لغرض في نفسه، فهي في نظره وسيلة ،وان كانت تظهر للملأ في شكل غاية . كان – وهو شرطي– عالمَاً مغلقاً من الاحلام والمطامع والضغائن والمخاوف والافكار ، ثم لم يكن لينفتح امام غيره الا عن طاعة للرؤساء، واجلال للخليفة، ورضا بقضاء الله وقدره .

وفي ذات يوم اختلى عبدالملك بوزيره روح بن زنباع ، وتحدث اليه عن انتشار الاجرام في بلاد الشام خاصة ، وسيادة الفوضى في الاقطار العربية عامة ، وشكا ما يعانيه من عصيان العسكر ، وفقدان هيبة الشرطة ، واضطراب رجالها في تعقب العصاة والمجرمين وتقاعسهم عن القيام بواجباتهم . فقال الوزير :

- يا امير المؤمنين ، ان في شرطتي رجلا لو قلّدته امر العسكر لأرحلهم برحيلك وأنزلهم بنزولك !

- من هو هذا ؟

- رجلٌ من الطائف يقالُ له الحجاج بن يوسف .

أجال عبد الملك نظره في اللانهاية ، ثم اطرق يفكر ... هذا الاسم ليس غريباً عن ذهنه ، فهو يذكر جيداً انه تحدث عنه في اكثر من مناسبة ، لا بل يذكر انه حارب من اجل ابيه مروان ، ثم امال عمامته على جانب رأسه وقال :

- إنا قلّدناه ذلك .

وتلقى الحجاج قرار الخليفة بهدوء وارتياح ... وعزم هذه المرّة على اخذ نفسه بالشدّة ، فلن يستجيب بعدُ لنزواته ، ولن يترك لاعصابه سلطاناً على عقله ، خشية ان يصيبه ما اصابه لاول مرة ، اذ أدرك ان موقفه من الحرج اصبح بمنزلة لا خيارَ له فيها بين حالات متعددة ، فهو إمـا ان يصبر ويصابر الى ان تقيّض الظروف له ما ينشده ، واما ان تنهار جميع احلامه ويضطر الى الاعتكاف في الطائف منبوذاً مهاناً ، فاختار الصبر والانتظار .

ولكن العنف صفة تلازم طبيعتـه ، او هو شيء مركّب في فطرته لا يد له فيه ، ولا هو قادر على التملص منـه ، فاذا تمثل في سلوكه جاء عفوياً ، يصدر به عن وراثات قديمة زُرعت في نطفته ، ونمت في دمه ؛ فلا يملك إلا ان يكون عنيفاً .

وحدث ان نادى العسكر ذات يوم وامرهم بالرحيل ، فتخلّف اعوان روح بن زنباع خاصة ، وعصوا اوامره ، فوقف عليهم وهم على طعام يأكلون ، وحدجهم بنظرات ماكرة ، ثم سأل :

– ما منعكم ان ترحلوا برحيل امير المؤمنين ؟

فأجابوه هازئين بصوت واحد :

– إنزل يا ابن اللخناء ! ’كلْ معنا .

سكت برهة، ولحيته ترتجف من الغيظ ، ثم قال :

– هيهات ، ذهب ما هنالك !

ثم امرهم فجُلدوا بالسياط جَلداً مبرّحاً ، وطوّفهم بالعسكر ، وامر بفساطيط روح بن زنباع فأحرقت عن آخرها . وهلِعَ روحٌ لما اصابـه ، فأسرع نحو عبدالملك ، ودخل عليه باكياً ، فسأله الخليفة : « ما لك ؟ »

– يا امير المؤمنين ، الحجاج بن يوسف الذي كان في عديد شرطتي ، ضرَب عبيدي واحرق فساطيطي !

– عليّ به .

ودخل الحجاج للمرة الثانية في حياته على الخليفة ، وكانت الاولى يوم اوفده الى زفر بن الحارث، ولكنه لم يخاطبه فيها مباشرة ، فقال له :

– ما حملك على ما فعلت ؟

كان الحجاج قد اعدّ لهذا الموقف ’عدّته ، فأجاب :

– ما انا فعلت يا امير المؤمنين !

– ومن فعله اذن ؟

– انتَ والله فعلتَ ! إنما يدي يدُك ، وسوطي سوطك . وما على امير المؤمنين ان ’يخلف على روح بن زنباع للفسطاط فسطاطين ، وللغلام غلامين ، ولا يكسرُني فيما قدّمني له .

تأمّل عبدُ الملك فأعجبه هذا الحلّ الذي اوحى بـه الحجاج ،

ولكن كلامه ينطوي على إيحاءات اخرى ادق واعمق من وضع حلّ لمشكلة بسيطة ، ايحاءات تتناول شخص الحجاج نفسه ، وتجعل الخليفة يطمئن اليه كشخص ، فقرّبه منه ، واسبغ عليه النعمة ، وراح يستظهر به في الازمات ، ويستشيره في مشكلات الامور ، والحجاج يفتن في إعظامه ، ويبالغ في خضوعه له ، ويبتكر الخطط لبلوغ مآربه عنده . فكان ذلك الموقف آخر عهدِ الحجاج بالتعاسة ، اذ انتهى بنجاح فائق من جميع جوانبه : رجع روْح مسروراً ، والجنود اخلدوا للسكينة وامتنعوا عن الشغب ، والخليفة سُرّ لما رآه من فطنة رجل يخلص له الخدمة .

ومنذ ذلك الحين ونجم الحجاج في صعود ولمعان ...

٤ — مع الخليفة

اصبح الحجاج ، بمعنى من المعاني ، صديقَ الخليفة ، وكانت صلاحيات الخليفة من السعة والكثرة بحيث تشمل سلطتُه جميعَ الشؤون العسكرية والادارية والقضائية والاقتصادية . كان يولي من يشاء ، ويعزل من يشاء متى شاء ، وتجبى اليه الاموال ، وينفقها دون محاسب ، ويعيّن القضاة ويعزلهم ، ويجهز الجيوش ، ويجند الجند ، ويعلن الحرب ، ويعقد الصلح . كان يفعل كل ذلك دون رقيب . كانت الدولة هي الخليفة ، وكان الخليفة هو الدولة ، فمن يسعده الحظ بصداقته يصبح على يقين من ائتلاق نجمه ومناعة اسمه .

غير ان صداقة تنشأ بين ملك وفرد من ابناء الرعية لا تكون

ابداً خالصة من كل شائبة ، وانما هي تقوم ، اذ تقوم ، على اساس من « الاستغلال » بين الطرفين المتصادقين ، تختلف وجهته باختلاف مواهب كل منهما وحاجته للاخر . وتلك هي صداقة عبد الملك للحجاج .

رأى عبد الملك في الحجاج خير « تعبير » عن فكرته في الرجل الذي يحسن استعمال السيف او العنف ، وراح يروز ما يصدر عنه ، فاذا به يحقق له ما يتوق اليه من تجرد في الفتك ، واذعان للاوامر ، وطمع بارضاء الرئيس ، واستهانة بآراء الآخرين وافكارهم . وهذه صفات نادرة قل ان تجتمع في « إنسان » ، واذا تجمعت له في ظرف ، فلا يعقل ان تستمر على تجمعها في كل الظروف لما هي عليه من التضارب والتناقض . فكان من عبد الملك — وهو من افذاذ الخلفاء — ان احتضن الحجاج ، وضمه الى حاشيته ، وقرّبه منه ، واوغل في تقريبه دون ان يترك له مدى حراً يجول فيه . وكان من الحجاج ان ماشى عبد الملك في جميع خطواته ، واخذ عنه دروس العنف ، وهو الميال اليها بطبيعته ، واتقنها ، وراح يطبقها بحذافيرها لا يراعي في تطبيقها غير ارادة « أمير المؤمنين » ورضاه .

واذا انت تدبرت ثقافة ذلك الجيل وقعت على « آداب » خاصة بمعاشرة السلطان ، ونصيحته ، وطاعته ، وصحبته ، وطرائق التصرف معه ، ووجدت ان الحجاج لزمها وتأدب بها وراض نفسه عليها حتى اصبح يمثلها اصدق تمثيل .

واول هذه الآداب ما كان مستقى من القرآن واحاديث النبي وسيرة الصحابة في الدرجة الاولى ، ثم ما رشح الى ابناء ذلك

العصر من مظاهر الحياة المدنية عند جيرانهم كالفرس والروم في الدرجة الثانية ، واخيراً ما وصلوا اليه من تجارب عاشوها ومروا بها .

جاء في القرآن : « يا ايها الذين آمنوا أطيعوا الله والرسول واولي الامر منكم . » وجاء فيه ايضاً : « انما جزاءُ الذين يحاربون الله ورسولَه ويسعَوْنَ في الارض فساداً ان يقتّلوا او يصلّبوا او تقطّع ايديهم وارجلهم من خلاف او يُنفوا من الارض . » وستجد الحجاج يردد هاتين الآيتين لدى كل مناسبة ، ويتترسُ بهما عند كل مهاجمة .

وفي الحديث الشريف : « من فارق الجماعة ، او خلع يداً من طاعة ، مات ميتة جاهلية . » وروي عن النبي ايضاً انه قال في جمع من اصحابه : « الدين النصيحة ! الدين النصيحة ! الدين النصيحة !» فسألوه : « لمن يا رسول الله ؟ » فقال : « لله ولرسوله ولاولي الامر منكم .»

اما سيرة الخلفاء الراشدين فكانت تدور في ذلك الفلك ، فلك « الطاعة » : الخلفاء يطيعون الرسول ، والرسول يطيع الله ، وعلى الناس ان يطيعوا الخلفاء ، لانهم اولو الامر . وما كانت الفتن التي تشتعل لتخمد الا استناداً الى هذا الواجب ، واجب الطاعة . ولا كان الولاة يجبون الاموال ، ويجندون الجند ، ويقيمون حدود الشريعة إلا أداء لفريضة الطاعة الدينية ، فاذا ظهر العصيان قمعته القوة المسلحة ، وذلك هو الجو الفكري الاجتماعي الذي كان يسيطر على الناس في عهد عبدالملك ، وما تقدمه من عهود .

ولكن طاعة الحجاج للخليفة امر مفروغ منه . المهم هو علاقته بالخليفة ، وطراز صداقته له ، واسلوبه الخاص في الافادة

من هاتيك الصداقة :

يقول ابن المقفع : « ينبغي لمن خدم السلطان ان لا يغترّ به اذا رضي ، ولا يتغير له اذا سخط ، ولا يستثقل ما حمّله ، ولا يلحف في مسألته . »

ويقول في مقام آخر : « لا تكن صحبتك للسلطان إلا بعد رياضة منك لنفسك على طاعتهم ، فان كنت حافظاً اذا ولّوك ، حذِراً اذا قربوك ، اميناً اذا ائتمنوك ، ذليلا اذا صرموك ، راضياً اذا اسخطوك ، تُعلّمهم وكأنك تتعلم منهم ، وتؤدبهم وكأنك تتأدب بهم ، وتشكرهم ولا تكلفهم الشكر ، وإلا فالبعدَ منهم كلّ البعد ، والحذر منهم كل الحذر . »

ولم يكن الحجاج غريباً عن هذه النصائح التي يلقي بها ابن المقفع ، بل كان يعيش في صميم الاجواء التي اوحتها ، وكان المثلَ الحيّ الذي يشخص « صحبة السلطان » ان في طاعته ، وان في ذله ، وان في تصرفاته ، وذبذباته في التقرب والابتعاد . وهذا هو الذي ادّى الى وثوق عبد الملك به ، وحمله على استعانته في توطيد ملكه اولاً ، وادارة ذلك الملك اخيراً .

واغرب ما في تلك الصلة بين عبد الملك والحجاج انها لم تكن مبنية على إعجاب ، ولا على مودّة ، ولا على شعبية تحملُ الخليفة على استرضاء عامله . كلّ ما يظهر منها عند الاول تعاظم وامر ونهي وتحقير وازورار ، وعند الثاني تملّقٌ وصغارٌ واستعطاف وتجمّلٌ وتودّد . واستمرّت مع ذلك قرابة اربع عشرة سنة اقوى من الاعاصير والعواصف لم يزعزعها تململ الرعية وتبرمها وتظلمها من الحجاج ، ولا نالتها الحوادث ، على عرامتها ، باضطراب يشلها

ويكفي الناس شرها . وانما كانت تمسّها مساً عنيفاً ، لا تلبث ان تعود من بعده الى سيرتها الاولى ، وينقلب عنفُها الى رفقٍ وموادعة .

ذكر الجاحظ ان عبد الملك جلس يوماً في مجلس خاصته ، وقبض على لحيته فشملها ملياً ، ثم اجرّ نَفَسَه ، ونفخ نفخة اطالها ثم قال : « ما اقول يوم المسألة عن امر الحجاج ، وقد ادحض المحتج على العليم بما طوته الحجب ؟ أمَا إن عليكي له قرَنَ بي لوعةً يلهبها التذكار ! كيف وقد علمت فتعاميت ، وسمعت فتصاممت ، وحمله الكرام الكاتبون [١] . والله لكأني آلفُ هذا الطعن على نفسي ... وما هو إلا الغلّ الكامن . اللهم انت لي اوسع ، غير منتصر ولا معتذر ! »

احس وراء هذا الكلام الذي قاله عبدالملك في اواخر ايامه ان الحجاج كان قد اكره عبد الملك على مصادقته يوم صادقه ، ولكنه إكراه من نوع غريب دقيق في منتهى الدقة . اكراه يظهر به المكرَهُ على عمل انه هو الذي اختار العمل الذي أكره عليه ، ويبدو وكأنه فعله بمل‍ء حريته ، حتى اذا صفا جوه ، وتقادمت الايام عليه ورجع الى نفسه ، خامره نوع من الندم كهذا الذي تلمسه في كلام عبدالملك عن الحجاج . بيد ان الدقة في الموقف تتركز عند هذا السؤال : كيف أكره الحجاج عبد الملك على مصادقته ؟

الواقع ان عبدالملك ولي الامر في ظرف من احرج الظروف ، فهو لم يكن ، كما علمت ، ولي العهد الشرعي ، وانما فرضه ابوه

١ يشير الى العقيدة الدينية التي يعتقدها المسلمون ان عن يمين الانسان وشماله كاتبين يسجلان حسناته وسيئاته .

فرضاً على الناس[1] ، فما كاد يضطلع بأعباء الحكم حتى وجد نفسه محاصراً من جميع الجهات ، والزعازع تثور في وجهه انى تلفت ، وتملك عليه اسباب الهدوء والطمأنينة .

وهنا اترك الكلام المسعودي يعرض لك باسلوبه الخاص واقعة الحال : «كان عبدالملك بن مروان قد سار في جيوش اهل الشام ، فنزل بطنان ينتظر ما يكون من ابن زياد ، فأتاه خبر مقتله ، ومقتل من كان معه[2] ، وهزيمة الجيش بالليل . وأتاه في تلك الليلة مقتل جيش ابن دلجة ، وكان على جيش بالمدينة لحرب ابن الزبير ، ثم جاءه خبر دخول بابل بن قيس فلسطين من قبل ابن الزبير ، ومسير مصعب ابن الزبير من المدينة الى فلسطين ، ثم جاءه خبر مسير ملك الروم لاون بن فلقط ونزوله المصيصة[3] يريد الشام ، ثم جاءه خبر دمشق ، وان عبيدها وأوباشها ودُعّارها قد خرجوا على اهلها ونزلوا الجبل ، ثم اتاه ان من في السجن بدمشق فتحوا السجن وخرجوا منه مكابرة ، وان خيل الاعراب اغارت على حمص وبعلبك والبقاع ...»

تأمل هذه الظروف واحكم ... بيد ان عبدالملك لم يهن ، ولم يضعف ، فقفل راجعاً الى فلسطين ، حيث التقى بابل بن قيس

١ عندما ولي مروان بن الحكم قرر المؤتمرون من بني امية واعوانهم في مؤتمر الجابية ان يكون الامر من بعده لخالد بن يزيد بن معاوية ، ثم لعمرو بن سعيد الاشدق . ولكن مروان نقض العهد وحمل الناس على مبايعة ابنه عبد الملك .

٢ كان ابن زياد قد توجه من قبل الامويين للقضاء على ثورة قام بها الشيعة في العراق اخذاً بثأر الحسين بن علي .

٣ من ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم بقرب طرطوس .

في اجنادين ومزق جيشه ، بعد ان هادن ملك الروم وارضاه بالهدايا .

ثم عاد الى دمشق وجهز الكتائب وأعد العدة وسار لملاقاة زفر بن الحارث ، فحاصره وارغمه على المبايعة . وبينما هو يتأهب للحرب في العراق وافاه نبأ استيلاء عمرو بن سعيد بن العاص الاشدق على دمشق ودعوته الناس لمبايعته بحجة ان عبدالملك مغتصب ، فكرّ ثانية نحو دمشق ، وحاصرها الى ان طلب منه عمرو الثائر الامان فأمّنه ، حتى اذا دخل المدينة غدر بالاشدق ومكّن لنفسه في بلاد الشام ، فلم يبق له بها من منازع .

ولكن الامصار الاخرى : الحجاز واليمن والعراق – العراق على الاخص – كانت تعج بالفتن ، وتموج بالاضطرابات ، فأخذ عبدالملك نفسه بالحزم ، وتجهز لمحاربة الزبيريين ، فوّفق الى القضاء عليهم في العراق ، وقتل مصعب بن الزبير اخ عبدالله ، وولّى اخاه بشر ابن مروان الكوفة ، وخالد بن عبدالله البصرة .

كان الحجاج رفيق عبدالملك وصاحب جنده في جميع هـذه الاحداث . فلما استتب الامر للخليفة في سوريا والعراق ، ولم يبق امامه من معارض غير الحجاز ، شعر الحجاج ان « الفرصة » مؤاتية اذ كان – دون شك – يتتبع القضايا السياسية ويدرس اتجاهاتها ، فتقدم من عبدالملك وقال له :

– رأيتُ في منامي اني سلخت عبدالله بن الزبير من جلده . فابعثني اليه وولّني قتله .

تأمل عبدالملك ، فرأى في هذا « المنام » غرابة لا يرقى اليها خيال ! فاذا كان لاحد ان يحلم قائما بولاية او رئاسة او قيادة .

اما ان يحلم بسلخ امريء من جلده فهذا ما لا يخطر على بال . ولا يبعد ان يكون حلم الحجاج صحيحاً ، فكثيراً ما تصدق الاحلام. وما هي الا إطراقة قصيرة استغرق فيها عبدالملك الذي كان ينوي ان يذهب بنفسه لمحاربة عبدالله بن الزبير ، حتى عَدَلَ عن نيته وامر بتسيير جيش للحجاز بقيادة الحجاج .

ارأيت كيف اكره الحجاج عبد الملك على توليته اول مـــا ولاّه ؟ كل ما في الامر ان الحجاج كان يعرف نقاط الضعف في عبد الملك ، في شخصيته وفي ظروفه . وكان يعلم اتم العلم ان « العنف » وحده هو الذي يمكن سلطان عبد الملك في الارض ، وان لا حياة لعبد الملك إلا به . فكان يُشعِرُه في الساعة اللازمة انه هو القادر على إنقاذ السفينة من الغرق ، كلما تعرضت سفينـة عبد الملك ذاته للغرق ، وما أكثر ما تعرضت له !

هذا الاكراه المحجوب الذي يجريه الحجاج على الخليفة ، ويصطنع فيه اساليب الايحاء عند الظرف العصيب ، كان يتشكل في قوالب عديدة ، تختلف باختلاف الاحوال والمناسبات . وابرز هاتيك القوالب اثنان : الملق والخضوع . فما من مخلوق اتصل بالحجاج او عامله او تحدث اليه او عاش معـه إلا كان يشعر بنفرة منه وشموخ فيـه وعناد مُرّ لا يقوى عليه قوي ، إلا شخص واحد هو عبدالملك ، فانه لم يظهر له منه غير الاذعان والطاعة والذل ، وما اطل عليه عبد الملك إلا رآه بوجهه الخاضع الذليل ، ولا طالع عبد الملك مرة إلا بوجه ذليل خاضع . وقد بلغ مـن حرصه على رضا امير المؤمنين ان كان يصل كلّ من يمدحه عنده ، ويخشى اكثر مـا يخشى ان يتعرض له احد بسوء في حضرة الخليفة .

إسمع : « كان الحجاج يستثقل زيادَ بن عمرو العَتَكي ، فلما اثنى الوفد على الحجاج عند عبد الملك بن مَروان ، قال زياد : يا امير المؤمنين ! إن الحجاج سيفُك الذي لا ينبو ، وسهمُك الذي لا يطيش ، وخادمك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم . فلم يكن بعد ذلك اخفّ على الحجاج ولا احبّ اليه منه [١] . »

وكتب مرة الى عبد الملك في عطسة عطسها فشمّته اصحابه وردّ عليهم ، يقول : « بلغني ما كان من عطاس امير المؤمنين وتشميت اصحابه له وردّه عليهم . فيا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً ! »

وكتب اليه ايضاً في احدى المناسبات : « إن خليفة الرجل في اهله اكرم عليه من رسوله اليهم ، وكذلك الخلفاء ، يا امير المؤمنين ، اعلى منزلة من المرسلين . »

وكان من اثر هذه التملقات في نفس عبد الملك ان جعلته بدوره ضعيفاً خائراً حيال خادمه ، فلم يكن يملك ان يقسو عليه ويخلص منه ، رغم انه همّ مراراً وتكراراً بابعاده ، ولكنه كان يتراجع كلّ مرة عندما يبلغه جواب الحجاج ، ويلمس خضوعه وتذلله وتزلفه .

نمي اليه مرة ان الحجاج يسرف في انفاق المال ، وانه يبذر على غير طائل من غير حساب ، فكتب اليه يلومه على اسرافه ويتوعّده . فأجابه الحجاج شعراً :

اتتني كتب للخليفة ضمنت قراطيس ...

[١] العقد الفريد : كتاب المرجانة في مخاطبة الملوك .

ومنها كتاب فيــه لين وشدة وذكرٌ وفي الذكرى لذي اللب منفع
وكانت بلاداً، جئتها، ذات فتنة بهـــا كل نيران الحوادث تلمع
فما زلتُ فيها اعمل الحزم جاهداً فأعطي عـلى حين العطاء وأمنع
فـلا تتهمني إنـــني لك ناصحٌ ولست مع النصح المبين أضيّعُ

فردّ عبد الملك عليه كتابه وكتب في حاشيتـه : «صدقت يا ابا محمد ، وبورت !»

وحاول مرة ان يستجيب لضراعات الناس وتظلماتهم ، فكتب اليه يأمره باعتزال عمله الكتاب التالي : «من عبدالله عبد الملك بن مروان الى الحجاج بن يوسف . اما بعد ، فقد اصبحت بامرك برِماً يقعدني الاشفـاق ويقيمني الرجاء . عجزت في دار السعادة وتوسط الملك وحين المهل واجتماع الفكر التمس العذرَ في امرك . فأنا لعمر الله في دار الجزاء وعدم السلطان واشتغال النفس والركون الى الزلة من نفسي ، والتوقع لما طويت عليه الصحف اعجز . وقد كنت اشركتُك فيما طوّقني الله حمله ، وألاث بحقوي من امانـة الله في هذا الخلق المرعي ، فدللت منه على الحزم والجد في إماتة بدعة وإنعاش سنّة ، فقعدت عن تلك ونهضت بما عاندها حتى صرت حجة العائب ، وعذر اللاعن ، والشاهد القائم . فلعن الله ابا عقيل وما نجل فالأم والد وأخبث نسل . فلعمري ما ظلمكم الزمان ولا قعدت بكم المراتب . لقـد البستكم ملبسكم ، وأقعدتكم على روابي خططكم ، وأحللتكم على قدر منعتكم . فكنتم بين حافر وناقل ومانح في الفلوات القفرة . ما تقدّم بكم الاسلام ، ولقد تأخرتم . وما الطائف منا ببعيد يجهل اهله . ثم قمت بنفسك ، وطمحت بهمتك ، وسرّك انتضاء سيفِك . فاستخرجك امير المؤمنين من اعوان روح

ابن زنباع وشرطته ، وانت على معاونته يومئذ محسود ، فهفـا امير المؤمنين . والله يصلح بالتوبة والغفران زلته . وكان بك وكان ما لو لم يكن لكان خيراً مما كان . كل ذلك مـن تجاسرك وتحاملك على المخالفة لرأي امير المؤمنين . فقرعت صفاتنا ، وهتكت حجبنا ، وبسطت يديك تحفن بهما من كرائم ذوي الحقوق اللازمة والارحام الواشجة ، في اوعية ثقيف . فاستغفر الله لذنب مـا له عذر . فلئن استقال امير المؤمنين فيك الرأي ، فلقد حالت البصيرة في ثقيف بصالح النبي صلى الله عليه وسلم اذ ائتمنه على الصدقات وكان عبده فهرب بها عنه . وما هو الا اختبـار للثقة ، والمطلب لمواضع الكفاية ، فقعد فيه الرجاء كما قعد بامير المؤمنين فيما نصبك له . فكأن هذا ألبس امير المؤمنين ثوب العزاء ، ونهض بعـذره الى استنشاق نسيم الروح . فاعتزل عمل امير المؤمنين ، واظعن عنه باللعنة اللازمة والعقوبة الناهكة ، ان شاء الله اذا استحكم لامير المؤمنين ما يحاول من رأيه والسلام . »

غير انه تردّد في آخر لحظة ، ولم يشأ ان يقطع رأس الافعى ، فدعا مولى له اسمه « نباتة » كان يعتمده في التجسس لما يعرفه فيه من ذرابة اللسان وصدق النظر ، فناوله الكتاب ، ثم قال له :

– نباتة ! العجل. ثم العجل ، حتى تأتي العراق ، فضع هذا الكتاب في يد الحجاج وترقب ما يكون منه . فان جبُن عند قراءته واستيعاب ما فيه ، فاقلعه عن عمله وانقلع معه حتى تأتي بـه ، وهدّيء الناس حتى يأتيهم أمري ، بما تصفني به في حين انقلاعك من حبي لهم السلامة . وان هشّ للجواب ولم تأخذه الحيرة فخذ مـا يجيب به ، وأقرره على عمله ، ثم أعجل اليّ بجوابه .

قال نباتة : « ... وخرجت قاصداً الى العراق فضمتني الصحارى والفيافي واحتواني القر ، وأخذ مني السفر ، حتى وصلت . فلما وردته ، ادخلت عليه وعليّ شحوبُ مضنى ، وقد توسط خدمه من نواحيه وتدثر بمطرف خزّ أدكن ، ولاث به الناس من بين قائم وقاعد . فلما نظر لي وكان لي عارفاً ، قعد وتبسم تبسم الوجل ، ثم قال :

— أهلاً بك يا نباتة ! أهلاً بمولى امير المؤمنين . لقد اثر فيك سفرُك . واعرف امير المؤمنين بك ضنيناً ، فليت شعري ما دهمَك ودهمَني عنده ؟

سلمت وقعدت . فسأل :

— ما حال امير المؤمنين وخوله ؟

ولما هدأ اخرجت له الكتاب فناولته أياه ، فاخذه مني مسرعاً ويده ترعد ، ثم نظر في وجوه الناس فما شعرت الا وأنا معه ليس معنا ثالث ، وصار كلّ من يطيف مـــن خدمه يلقاه خالياً لا يسمعون منا الا الصوت فلا يقربون . ففك الكتاب فقرأه ، وجعل يتثاءب ويردد تثاؤبه ويسيل العرق على جبينه وصدغيه على شدة البرد ، من تحت قلنسوته ، وعلى رأسه عمامة خزّ خضراء ، وجعل يشخص اليّ ببصره ساعة كالمتوهم ، ثم يعود الى قراءة الكتاب ويلاحظني النظر كالمتفهم الا انه واجم ، ثم يعاود الكتاب ، واني لاقول ما اراه يثبت حروفه لشدة اضطراب يـده حتى استقصى قراءته ، ثم مالت يده حتى وقع الكتاب على الفراش ، ورجع اليه ذهنه ، فمسح العرق عن جبينه ، ثم قال متمثلاً :

واذا المنية انشبت اظفارها ألفيت كل تميمـة لا تنفع

قبح والله منـا الحسن يا نباتة ! وتواكلتنـا عند امير المؤمنين

الالسن ، وما هذا الا سانح فكرة نقها مرصد يكلب بقصتنا مع حسن رأي امير المؤمنين فينا . ثم صاح :

– يا غلام !

فتبادر الغلمان الصيحة ، فملي علينا منهم المجلس ، حتى دفأتني منهم الانفاس فقال :

– الدواة والقرطاس .

فأتي بدواة وقرطاس ، فكتب بيده ، وما رفع القلم الا مستمداً حتى سطر مثل خد الفرس ، فلما فرغ قال لي :

– هل علمت ما جئت به حتى نسمعك ما كتبنا ؟

– لا !

– اذن حسبك منا مثله .

ثم ناولني الجواب وامر لي بجائزة فأجزل ، وجرد لي كساه ، ودعا لي بطعام فأكلت ، ثم قال :

– نكِلُك الى ما امِرْتَ به من عجلة او توان ، واني لأحب مقارنتك والانس برؤيتك .

فأجبت :

– كان معي قفلٌ مفتاحه معك ، ومفتاح قفلك عندي ، فأجدت لك الوافية بالامرين ، فأقفلت المكروه وفتحت العافية وما ساءني ذلك ... وما احب ان ازيدك بياناً ...

ثم نهضت فقام مودّعاً لي ، فالتزمني وقال :

– بأبي انت وامي ، رب لفظة مسموعة ، ومحتقر نافع ، فكن كما اظن .

وخرجت مستقبــــلا وجهي حتى وردت على امير المؤمنين ،

فوجدته منصرفاً من صلاة العصر ، فلما رآني قال :

– ما اجتواك المضجع يا نباتة !

فأجبت :

– من خاف من وجه الصباح أدلج .

ثم سلّمت وانتبذت عنه ، فتركني حتى سكن جأشي ، ثم دفعت اليه الكتاب ، فقرأه مبتسماً . فلما مضى فيه ضحك حتى بدت له سن سوداء ، ثم استقصاه ، فانصرف اليّ فقال :

– كيف رأيت إشفاقه ؟

فقصصت عليه ما رأيت منه ، فتعجب وقال :

– صلوات الله على الصادق الامين ! ان من البيان لَسحراً .

ثم قذف الكتاب اليّ فقرأته ، فاذا فيه :

« بسم الله الرحمان الرحيم ، لعبد الله امير المؤمنين وخليفة رب العالمين والمؤيد بالولاية ، والمعصوم من خطل القول وزلل الفعل بكفالة الله الواجبة لذوي امره من عبد اكتنفته الذلة ، ومد به الصغار الى وخيم المرتع ووبيل المكرع ، من جائل قادح ومعترّ فادح ، والسلام عليك ورحمة الله التي اتسعت فوسعت ، وكان بها التقوى الى اهلها قائداً ، فاني احمد الله اليك راجياً لعطفك بعطفه الذي لا إله الا هو .

« اما بعد ، كان الله لك بالدعة في دار الزوال ، والامن في دار الزلزال ، فانه من عنيت به فكرتك يا امير المؤمنين مخصوصاً فما هو الا سعيد يؤثر او شقي يوتر ، وقد حجبني عن نواظر السعد لسان مرصد ونافث حقد انتهز به الشيطان حين الفكرة فافتتح به ابواب الوسواس بما تحتويه الصدور . فواغوثاه باستعانة امير

المؤمنين من رجيم انما سلطانه على الذين يتولونه ، واعتصاماً بالتوكل على من خصّه بما اجزل له من قسم الايمان وصـــادق السنة ، فقد اراد اللعين ان يفتق لاوليائه فتقاً نبا عنه كيده ، وكثر عليه تحسره ، بليّة قرع بها فكرَ امير المؤمنين ملبّساً[1] وكادحاً مؤرّثاً[2] ، ليفلّ من غربه[3] الذي نصبني ، ويصيب ثأراً لم يزل بـه موتوراً ، وأذكره قديمَ ما متّ به الاوائل حتى لحقتُ بمثله منهم ، وبما كنت ابلوه من خسة اقدار ، ومزاولة اعمال ، الى ان وصلت ذلك بالتشرّط[4] لرَوْحِ بن زنباع . وقد علم امير المؤمنين، بفضل ما اختار الله له تبارك وتعالى من العلم المأثور الماضي ، بان الذي عيّر به القوم ُمصانعهم من اشد ما كان يزاوله اهل القدمـة الذين اجتبى الله منهم ، وقد اعتصموا وامتعضوا من ذكر ما كان ، وارتفعوا بما يكون ، وما جهِل امير المؤمنين – وللبيان موقعه غيرَ محتجّ ولا معتدّ – ان متابعة روح بن زنباع طريقٌ الى الوسيلة لمن اراد مَن فوقه ، وان روْحـاً لم يلبسني العزم الذي به رفعني امير المؤمنين عن خوَله ، وقد ألصقني بروح بن زنباع همةٌ لم تزل نواظرهـــا ترمي بي البعيد وتطالع الاعـــلام . وقد اخذت من امير المؤمنين نصيباً افتسه الاشفاق من سخطه والمواظبـة على موافقته ، فما بقي لنا بعد الاصابة[5] امرٌ تجول به النفس ، وتطرف النواظر .

١ مرائياً مداهناً .
٢ يورث الحقد .
٣ اي يضعف من قوته .
٤ الدخول في سلك الشرطة .
٥ يريد بعد الوصول الى منصبه .

« ولقد سرت بعين امير المؤمنين سير المتبط لمن يتلوه ، المتطاول لمن يقدمه ، غير منبتّ موجِف[١] ، ولا متثاقل مجحف ، ففتّ الطالب ولحقتُ الهارب ، حتى ثارت السنة وبادت البدعة ، وخسِأ الشيطان وحملت الاديان الى الجادّة العظمى ، والطريقة المثلى .

« وامير المؤمنين ولي المظلوم ، ومعقل الخائف ، وستظهر له المحنة نبأ أمري ، ولكل نبأ مستقر . وإن اميرَ المؤمنين لرابعُ اربعة : احدهم ابنة شعيب النبي صلى الله عليه وسلم ، اذ رمت بالظن غرضَ اليقين تفرساً في النجيّ المصطفى بالرسالة ، فحق لها فيه الرجاءُ وزالت شبهةُ الشك بالاختبار ، وقَبْلها العزيزُ في يوسف ، ثم الصدّيق في الفاروق رحمة الله عليهما ، واميرُ المؤمنين في الحجاج . وما حسد الشيطان يا ، امير المؤمنين ، خاملاً ، ولا شرِقَ بغير شجنٍ .

« ولقد سمعتُ لامير المؤمنين في صالح ، صلوات الله عليه ، في ثقيف ، مقالاً هجم بي الرجاءُ ، لعدله ، عليه ، بالحجة في ردّه بحكم التنزيل على لسان ابن عمه خاتم النبيين وسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم . فقد اخبر عن الله عزّ وجلّ بحكاية عُتُرِّ الملأ من قريش عند الاختيار والافتخار ، وقد نفخ الشيطان في مناخرهم قالوا : « لولا نُزّلَ هذا القرآن على رجل في القريتين عظيم » . فوقع اختيارهم ، عند المباهاة بنفخة الكبر ، كبر الجاهلية ، على الوليد ابن المغيرة المخزومي وابي مسعود الثقفي ، فصارا في الافتخار بهما صنوين ، ما انكر اجتماعَهما في الامة مُنكر ، في مد صوت القرآن ومبلّغ الوحي ، وما قدمتني ، يا امير المؤمنين ، ثقيفُ في الاحتجاج

[١] متهور مسرع .

لها ، وإن لها مقالاً رحباً ومعاندة قديمة . ألا إن هذا ايسر ما يحتجّ به العبدُ المشفق[١]، على سيده المغضب. والامر الى امير المؤمنين عزل ام اقر ، وكلاهما عدل متبعٌ وصواب معتدل ، والسلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله . »

وتابع نباتة كلامه : « فأتيتُ على الكتاب بحضر امير المؤمنين عبد الملك ، فلما استوعبته سارقته النظر على الهيبة منه ، فصادف لحظي لحظَهُ ، فقال :

— إقطعه ! ولا تعلمنّ بما كان احداً .

فلما مات عبد الملك فشا عني الخبر ... »

هذان الكتابان رائعان في دلالتهما ، فهما وحدهما يكشفان نوعَ تلك العلاقة بين الحجاج وعبد الملك ، ويظهران درجة تأثير الاول على الثاني ، ويوضحان حاجة كلٍّ منهما للاخر ، بحيث ترى ان لا غنى لهما عن اتفاقهما في حدود الظروف التي كان يجتازها كل منهما بمفرده .

ولكن قصة الحجاج مع انس بن مالك ، خادم النبي محمد ، اوضح اشارة الى موقف عبد الملك من الحجاج . وخلاصتها ان هذا شتم انس بن مالك وبالغ في إيذائه ، فكتب انس الى الخليفة يشكو الحجاج ويتذمر من معاملته .

روى هذه القصة اسماعيل بن عبدالله بن ابي المهاجر ، قال : « بعث اليّ عبد الملك بن مروان في ساعة لم يكن يبعث اليّ في مثلها ، فدخلت عليه ، وهو اشدّ ما كان غيظاً وحنقاً ، فقال :

١ الخائف .

– يا اسماعيل! ما اشد عليّ ان تقول الرعية: «ضعف امير المؤمنين، وضاق ذرعه في رجل من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، لا يقبل له حسنة، ولا يتجاوز عن سيئة.»

– وما ذاك يا امير المؤمنين؟

– أنس بن مالك خادم رسول الله صلى عليه وسلم كتب إليّ يذكر ان الحجاج قد اضرّ به وأساء جواره. وقد كتبتُ في ذلك كتابين: كتاباً الى انس بن مالك، والآخر الى الحجاج، فاقبضهما ثم اخرج على البريد. فاذا وردت العراق فابدأ بأنس بن مالك، فادفع له كتابي وقل له: «اشتد على امير المؤمنين ما كان من الحجاج اليك. ولن يأتي امرٌ تكرهُهُ إن شاء الله.» ثم ائتِ الحجاج فادفع اليه كتابه وقل له: «قد اغترورتَ بامير المؤمنين غِرّةً لا اظن يخطئك شرها.» ثم افهم ما يتكلم به وما يكون منه حتى تفهمني إياه اذا قدمت عليّ ان شاء الله.

«فقبضت الكتابين وخرجت على البريد حتى قدمتُ العراقَ. فبدأت بأنس بن مالك في منزله، فدفعتُ اليه كتابَ امير المؤمنين، وابلغت رسالته، فدعا له وجزاه خيراً. فلما فرغ من قراءة الكتاب قلت له:

– يا ابا حمزة، إن الحجاج عامل، ولو وُضِع لك في جامعة (قيد) لقدِر ان يضرك وينفعك، فأنا اريد ان تصالحه.

– ذلك اليك! لا اخرج عن رأيك.

وجئت الحجاج فرحب بي قائلاً:

– والله كنت احب ان اراك في بلدي هذا.

– وانا والله قد كنت احب أن اراك واقدم عليك بغير ما

أرسلتُ به اليك .

– وما ذاك ؟

– فارقتُ الخليفةَ وهو اغضب الناس عليك.

– ولِمَ ؟

فدفعت اليه الكتاب ، فجعل يقرؤه وجبينه يعرقُ ، فيمسحه بيمينه . ثم قال :

– إركب بنا الى انس بن مالك .

– لا تفعل ! فاني ساتلطف به حتى يكون هو الذي يأتيك ، وذلك للذي اشرت عليه من مصالحته .

اما كتاب عبد الملك فهذا هو : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الملك بن مروان الى الحجاج بن يوسف . اما بعد ، فانك عبدٌ طمت بك الامور ، فطغيت وعلوت فيها حتى جزت قدرك ، وعدوت طورك. وايم الله يا ابن المستفرمة بعجم زبيب الطائف[1] ! لأغمزنك كبعض غمزات الليوث للثعالب ، ولأركضنّك ركضة تدخل فيها في وجارك[2] . اذكر مكاسب آبائك بالطائف اذ كانوا ينقلون الحجارة على اكتافهم ، ويحفرون الآبار في المناهل بايديهم ، فقد نسيت ما كنت عليه انت وآباؤك من الدناءة واللؤم والضراعة . وقد بلغ امير المؤمنين استطالة منك على انس بن مالك ، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جرأة منك على امير المؤمنين ،

١ المستفرمة : المرأة التي تطلب الفرم وهو دواء تتضيق به . والعجم : نوى كل شيء .

٢ الوجار : مكان الضبع .

وغرّة[١] بمعرفة غيَرِه ونقماته وسطواته على من خالف سبيله ، وعمد الى غير محجته ونزل عند سخطته ، واظن انك اردت ان تروزه بها لتعلم ما عنده من التغيير والنكير فيها ، فان سُوِّغتها[٢] مضيت قُدُماً ، وان غصصت بها وليت دَبَراً ، فعليك لعنة الله من عبد اخفش العينين ، اصكّ الرجلين ، ممسوح الجاعرتين . وايم الله لو ان امير المؤمنين علم انك اجترمت منه جرماً ، وانتهكت له عرضاً ، فيما كتب به الى امير المؤمنين ، لبعث اليك من يسحبك ظهراً لبطن ، حتى ينتهي بك الى انس بن مالك ، فيحكم فيك بما احب ، ولن يخفى على امير المؤمنين نبؤك ، ولكل نبأ مستقرّ ، وسوف تعلمون . »

قال اسماعيل : « فانطلقتُ الى انس ، فلم ازل به حتى انطلق معي الى الحجاج . فلما دخلنا عليه قال يخاطب انس :

– يغفر الله لك يا ابا حمزة ! عجلت باللائمة واغضبت علينا امير المؤمنين .

ثم اخذ بيده فأجلسه معه على السرير ، فقال أنس :

– انك تزعم إنا الاشرار والله سمانا الانصار ، وقلت : إننا من ابخل الناس . والله يقول فينا : « ... ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة » . وزعمت انا اهل نفاق ، والله تعالى يقول فينا : « والذين تبوّءوا الدار والايمان من هاجر اليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا » . فكان المخرج والمشتكى

١ جهلا .
٢ وجدتها سائغة : رضيتها .

في ذلك الى الله والى امير المؤمنين ، فتولىّ من ذلك ما ولاّه الله ، وعرف من حقنا ما جهلت ، وحفظ منا ما ضيّعت ، وسيحكم في ذلك ربٌّ هو أرضى للمرضي وأسخطُ للمُسخط واقدرُ على الغير في يوم لا يشوب الحقّ عنده الباطلُ ، ولا النورَ الظلمة ، ولا الهدى الضلالة . والله لو ان اليهود والنصارى رأت مَن خدم موسى بن عمران وعيسى بن مريم يوماً واحداً ، لرأت له ما لم تروا لي في خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين .

فاعتذر اليه الحجاج وترضاه حتى قبل عذره ورضي عنه ، وكتب برضاه وقبوله عذرَه ، ولم يزل الحجاج له معظماً هائباً حتى مات . »

على ان العبرةَ ليست في الجواب العملي الذي اجاب به الحجاج على غضب عبد الملك ، اذ لم يكن في طاقته اكثر من ان يذعن كلما امره الخليفة بشيء ، ولا كان يفكر باكثر من التذلل والاذعان ، وانما العبرة في كتابه لامير المؤمنين جواباً على الرسالة السابقة التي تنضح بالاهانة السافرة ، والشتيمة المزرية ، مما لا يطيقه امرؤٌ يحترم نفسه ولو كلفه الامر ان يخسر حياته ، بله منصبه او نفوذه .

تأمل هذا الصَغار في نفسه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبدالله عبد الملك بن مروان . اما بعد ، اصلح الله امير المؤمنين وأبقاه ، وسهّل حظّه وحاطه ولا اعدمناه ، فان اسماعيل بن ابي المهاجر ، رسول امير المؤمنين ، قدم عليّ بكتاب امير المؤمنين — اطال الله بقاءه ، وجعلني من كل مكروه فداءه — يذكر شتيمتي وتوبيخي بآبائي وتعييري بما كان قبل نزول النعمة بي منه عند

امير المؤمنين – أتم الله نعمته عليه وإحسانه اليه – ويذكر استطالة مني على انس ابن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجرأة مني على امير المؤمنين – اصلحه الله – في قرابته من محمد رسول الله إمام الهدى وخاتم الانبياء ، وامير المؤمنين احقّ من اقال عثرتي وعفا عن ذنبي وامهلني ولم يعجلني عند هفوتي للذي جبل عليه من كريم طبائعه ، ومما قلده الله من امور عباده. فرأي امير المؤمنين، اصلحه الله ، في تسكين روعتي وافراج كربتي ، فقد ملئت رُعباً وفرَقاً من سطوته وفجاءة نقمته . وامير المؤمنين – اقاله الله العثرات ، وتجاوز له عن السيئات ، وضاعف له الحسنات ، واعلى له الدرجات – احق من صفح وعفـا وتغمّد وابقى ، ولم يشمت بي عدوّاً مكبّاً ، ولا حسوداً مضبّاً[1] يجرعني غصصاً . والذي وصف امير المؤمنين من صنيعته اليّ ، وتنويهه لي ، بما اسند اليّ من عمله ، واوطأني من رقاب رعيته ، فصادق فيه ، مجزيّ بالشكر عليه ، والتوسل مني اليه بالولاية ، والتقرب له بالكفاية .

« وقد عاين اسماعيل بن أبي المهاجر رسول أمير المؤمنين وحامل كتابه من نزولي عند مسرة أنس بن مالك ، وخضوعي عند كتاب أمير المؤمنين وإقلاقه إياي ودخوله بالمصيبة علي ما سيُعلمه امير المؤمنين ويشهد اليه ، فان رأى أميرُ المؤمنين – طوّقني الله بشكره ، وأعانني على تأدية حقه ، وبلّغني الى ما فيه مرضاته وموافقته ، ومدّ لي في اجله – ان يأمر لي بكتاب من رضاه وسلامة صدره ، ويؤمنني به من سفك دمي ، ويرد ما شرد من

[1] اي حاقداً على وجه المجاز .

نومي ، ويطمئن به قلبي ، فعل . فقد ورد عليّ امرٌ شديدٌ خطبه ، عظيمٌ امره ، شديدٌ عليّ كربه . أسأل الله ان لا يسخط اميرَ المؤمنين عليّ ، وان ينيله في حزمه وعزمه وسياسته وفراسته ومواليه وحشمه وعماله وصنائعه ما يحمد به حسن رأيه ، وبعد همته ، إنه وليّ اميرِ المؤمنين ، والذاب عن سلطانه ، والصانع له في امره والسلام . »

ولِمَ كل هذا التملق ؟ وعلى مَ هذا الاغراق في إظهار الذلة والمسكنة ؟ وفيم هذا الغلوّ في الجزع والاستطارة من القلق ؟ أصحيح ان الحجاج كان كما وصف نفسه حين تلقى تهديدات عبد الملك وهو الذي تلقى من قبل كثيراً من امثالها ؟

لا اظن انه كان صادقاً في شيء مما اظهر امام الرسول ، ولا كان صادقاً في حرفٍ مما كتب . وكلّ ما في الامر انه – وهو الفطن الحاذق – ادرك العوامل التي كانت تحفز عبد الملك الى مخاطبته بتلك اللهجة ، كما كان يعرف نفسيته ادق المعرفة ، فاستجاب لما يحب عبد الملك ان يستجيب له من ذلّ وضراعة ومسكنة ، حتى لتراه في كتابه ساجداً على قدمي عبد الملك يقبلهما ... كان يعرف ان هذا الاسلوب في الردّ على الخليفة هو الذي يقرّبُهُ من الخليفة ! ثم لم يكن اميرُ المؤمنين نفسه صادقاً في ما كتب الى عامله ، وإلا كان من اسهل الامور عليه ان يأمره باعتزال منصبه ، ما دام لا يحترمه ولا يراه اهلاً للمقام الذي بوّأه إياه . والدليل على ان الاثنين كانا يتكاذبان ، يؤخذ من النهايات التي كانت تنتهي اليها رسائلهما . فقد علمت ما حدث في المرة الاولى . واما في الثانية فقد روى اسماعيل بن ابي المهاجر انه لما قرأ امير المؤمنين

كتاب الحجاج نادى كاتبه وقال : « يا كاتب ! أفرخ روع ابي محمد . » فكتب اليه بالرضا عنه .

والدليلُ الاكبر على ان عبد الملك لم يكن صادقاً في إغضاب الحجاج يؤخذ من وصيته لاولاده وهو على فراش الموت : « اكرموا الحجاج فانه الذي وطّأ لكم المنابر ، ودوّخ لكم البلاد ، وأذلّ الاعداء ... »

ولكن عبد الملك لم يكن ليغفل في الوقت ذاته عن اطماع الرجال ، وما تسوّل لهم نفوسهم حين يستشعرون القوة ، ويلمسون طاعة الناس . فلم يترك للحجاج طريقاً الى الاستقلال برأيه او التمكن من موقفه ، وإنما كان يجهد ابداً ودائماً في إذلاله ، فلا يدعه يرفع رأسه امامه ، ولا يفسح له في المجال للتثبت من شخصيته . ولذا نجد ، في معاملته إياه ، هذه الالوان الغريبة من التحقير والازراء والتعبير تارةً بأمه ، وتارةً بأجداده ، وطوراً بماضيه البائس ، وطوراً بآفاته الجسمية وعيوبه النفسية ، مما يترفع عن مثله الملوك ، وتأبى النفوس الكبيرة ان تتعرض له .

وكان الحجاج ، بما تمّ له من عيوب ، وظهر فيه من نقائص ، « افضل » رجل يعتمده عبدُ الملك في سياسة البلاد يومئذ ، لانه جرّب غيره من ابناء البيوتات الرفيعة ، واصحاب المواهب والفضائل الصحيحة ، فكانوا حرباً عليه ، وأولهم قريبه وابن عمه عمر بن سعيد الاشدق . وهكذا ... كان الظرف الشاذ الذي ولي فيه عبد الملك خلافة المسلمين ، يحتاج الى رجل شاذّ في اخلاقه ، وعقليته ، ونفسيته ، يستعينه في ادارة ملكه ، ويُفيد من شذوذه .

وجاءت تصرفات الحجاج كلها من الفها الى يائها تدعمُ ولاية

عبد الملك من جهة ، وتسيء الى الحجاج نفسه من جهة ثانيــة .
فكان النـاس يهرعون الى امير المؤمنين يطلبون العون والنصفة ،
حتى اذا انصفهم منه ، وارجع اليهم ما هدرَ عاملهُ من كراماتهم
او حقوقهم ، باء الحجاج بغضب الناس ونقمتهم ، وارتفعت الدعوات
الى الله بتأييد امير المؤمنين وإطالة عمره وإدامة عزه .

تأمل ان اول شكوى عليه جاءت من والده اول ما ولي
أمر محاربة ابن الزبير ، اذ جاء يوسف بن الحكم الى عبد الملك
ابن مروان وقال له : « يا اميرَ المؤمنين ، إن غلاماً منا قال في
ابنتي زينب ما لا يزال الرجل يقول مثله في بنتِ عمه . وإن
هذا (يعني ابنه الحجاج) لم يزل يتتوّق اليه ويهم بـــه ، وانت
الآن تبعثه الى هناك ، ومـا آمنه عليه . » فدعا الخليفة بالحجاج
ونبهه قائلاً : « إن محمداً النميري جاري ، ولا سلطان لك عليه . »

هذا هو موقف والده منه في الساعة التي ولي بها . ولكنه
هو الذي اراد ان يذهب الى الحجاز ، وهو الذي احبَّ ان
يحارب عبد الله بن الزبير ، فلننظر ما يكون من امره ... لقد
تهالك على الخدمة العامة تهالك الظامىء على الماء ! لننظر كيف
يفهم الخدمة العامة .

٥ — في الحجاز

كانت الحجاز عامة ، والمدينة خاصة ، تنطوي على كراهية شديدة
لدمشق واهل دمشق ، لما ابدى اهلها من تأييد للامويين ، واقدموا

عليه عهد يزيد من تقتيل وتشريد وتحريق في مذبحة الحرة[١] ، التي وصفها المؤرخ الهندي السيد مير علي بقوله : « ... لقد حوّل جند الشام المسجد الجامع الى اسطبل لخيولهم ، وهدموا الحرم والاماكن المقدسة لسلب ما فيها من اثاث ومتاع . وهكذا ... شاء القدر ان تنتصر الوثنية ولو مرة ضد الاسلام ، تلك الوثنية التي كان ثأرها من الاسلام في هذه المرة ، على ما يصفه مؤرخ اوروبي ، قاسياً مؤلماً ... »

ولكن هذه المذبحة الفظيعة لم تحقق غرضها الابعد ، ولا وصلت الى هدفها المقصود ، اذ كان يراد منها اخضاع عبدالله بن الزبير ، وتأديب الحجازيين ، بعد ان انتهى الحزب الاموي من الحسين ابن علي في العراق ، فكان ان هلك مسلم بن عُقبة في طريقه الى مكة ، ثم جاء نبأ هلاك يزيد ، فتشتت جيش الشام ، ومُزّق شر تمزيق ، اذ كرّ عليه الحجازيون ، ولم يقبلوا منه صلحاً ولا مهادنة ، وانتقموا منه افظع الانتقام ، ونكّلوا به تنكيلاً لا نظير له .

واستمرت بلاد الحجاز خاضعة لسلطة عبدالله بن الزبير طيلة

١ « ... ولما انتهى الجيش (جيش يزيد بقيادة مسلم بن عقبة المري) الى الموضع المعروف بالحرة ، خرج الى حربه اهلها عليهم عبدالله بن مطيع العدوي ، وعبدالله بن حنظلة الغسيل الانصاري ، وكانت وقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير من الناس ، من بني هاشم وسائر قريش والانصار وغيرهم من سائر الناس ... وبضع وتسعون رجلا من سائر قريش ، ومثلهم من الانصار ، واربعة آلاف من سائر الناس ممن ادركه الاحصاء ، دون من لم يعرف .

« وبايع الناس على انهم عبيد ليزيد ، ومن ابى ذلك امره مسلم بن عقبة على السيف ... ولما نزل بأهل المدينة ما وصفنا من القتل والنهب والرق والسبي وغير ذلك ... مما عنه اعرضنا ، خرج عنها مسلم يريد مكة في جيوشه من اهل الشام ليوقع بابن الزبير . »

ـ المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ .

حكم معاوية الثاني ومروان بن الحكم . فلما استتب الامر لعبد الملك في الشام والعراق ولم يبق امامه غير الحجاز خارجة على سلطانه ، تطوّع الحجاج – كما رأيت – لاعادة السلطة الاموية عليها ، وقبل عبد الملك تطوّعه ، وزوّده بالنصائح ، وسيّره على رأس الفي رجل من جند الشام عام ٧٢ للهجرة .

سار الحجاج اذن نحو الحجاز لينهيَ معركة الحرّة الى اهدافها ، تلك المعركة التي اشترك فيها ، وشهد هولها ، وهرب منها قبل سبع سنوات ! ولكنّه ، في هذه المرة ، « قائد » مسؤول ، وكان من قبل جندياً مجهولاً . سار يتمم ما بدأ به مسلم بن عُقبة ، ويفعل بمكة ما فعل رئيسه السابق بالمدينة ، لان عبد الله بن الزبير لجأ الى الكعبة ، واحتمى بالبيت الحرام ، اعتقاداً منه ان للكعبة حرمة في نفوس الشاميين تمنعهم من اقتحامها ، فأطلق عليه اعوانه لقب « عائذ البيت » .

غير ان الحجّاج اصبح يزن الامور ويقدّرها ، بعد ان مارس الحياة العسكرية ، وخبُر شؤونها ، واتصل بأساطينها في ايامه واحتكّ بهم احتكاكاً قريباً ، فلن يخطو خطوة قبل ان يقدّر موضعها لرجله ، ولن يجازف بسمعته كقائد ، وهي التي تلوّثت كجندي . وكان يعلم اوثق العلم انه اذا اخفق في هذه الحملة على الحجاز ، قضي عليه وعلى مطامحه ، وربما انهار عرش امية ، الذي يعلّق عليه كل آماله ، انهياراً نهائياً . فاذا ابطأت به غفلة ، او تملكه وهن ، نزلت عليه لعنات الشاميين انفسهم ، وانتهى الى اسوإ مما انتهى اليه مسلم بن عقبة وجيشه ...

على هذا النحو من الشعور بالخطر ، بدأ الحجّاج حياته السياسية .

هذي نقطة هامة جديرة بالتسجيل ، يجب ان ننتبه الى اثرها العظيم في حيوات الرجال ، كل الرجال . وقيمتها انها تلقي النور على سلوك الحجّاج – وغيره من الاشخاص – ابتداء من اللحظة التي تحرّك بها نحو الحجاز غازياً ، حتى اللحظة التي تنفس بها اهل العراق الصُعَداء فرحاً بهلاكه .

وليس قليلاً في حياة امرىء ان يشعر ابداً ودائماً انه في خطر ، بل إن هذا الشعور الدائم بالخطر يعتبرُ الى حد بعيد « موهبة » من المواهب الروحية التي تُعلي قدر كثير من بني الانسان كالشعراء والموسيقيين والمصورين ، وبعض القواد والساسة والفلاسفة ، لان من شأن هذا الشعور ان يردّ النفس الى حالة من النشاط لا تعرفها إلا حين تمتلىء به ، ولا تمر بها إلا في إطاره ، ثم انه يفتح الذهن بشكل عجيب ، ويجعل صاحبه كتلة من وعي وفكر ، حتى لتنطفىء العاطفة في نفسه ، ويمحي اثرها من اعماله ، ويتحوّل تدريجاً الى ارادة صلبة صمّاء ينحسر من حولها الوجود وما يجذبنا اليه او يحببنا به ، فلا يهزها إلا ما تحقق به ذاتها ، ولا تهتز إلا لتحقق ذاتها . وما كان نيتشه ليهتدي الى قوله « يجب ان نحيا حياتنا بخطر » إلا لانه وضع مثلهُ الاعلى اولاً – وهو الانسان القوي الجبّار الذي يجهل معنى الرحمة ، ولا يأبه إلا للقوة . فانتهى بطبيعة منطقه ، وتسلسل افكاره الى التفاصيل ، والمناهج التي نقع عليها في حيوات اكثر العُتَاة الجبابرة ، والحجاج منهم . واذا انت غلغلت النظر في سيرة الحجاج وجدت انه لا يشوبه ، كي يكون بطلاً نيتشياً ، إلا تقيّده بسلطة عبد الملك ، ولولا هذا التقيد لكان « السوبرمان » الذي يريده نيتشه !

بيد ان سلطة عبد الملك كانت عنصراً هاماً من عناصر الخطر الذي يهدد حياة الحجاج ، فراح يتقيهـا في ان يجاريها ، وان يتملقها ، وان يزيدها قوةً واتساعاً ، ليفيد منها هو نفسه عظمة وسلطاناً .

وبهذه الروح تحرّك نحو الحجاز لاستنقاذها من براثن الزبيريين . وكان عبد الملك قد اوصاه ان يتحامى العنف والشدّة ، جزعاً من ان يناله اللوم ويمنى بخسران شعبيته في نفوس المسلمين على نحو ما اصاب يزيد بعد مجزرة الحرّة ، فقدم الحجاجُ اولَ ما قدِم على الطائف ، مستهدفاً بقدومه هذا عدة اهداف : اولهـا ان يتظاهر بامتثال اوامر الخليفة ، وثانيها ان يظهر لمواطنيه الذين احتقروه في صباه مدى ما بلغ من عظمة ، وثالثها ان يفيد مـن استراتجية الموقع الجغرافي للطائف وهي القائمة على جبل غزوان ، فلن يكون ابن الزبير في يسر من امره اذا خطر له ان يبادره بالهجوم ، ورابعها ان يستثمر خصب الطائف لتغذية الجند لا سيما وهو قادمٌ على إقامة حصار اكثر مما هو مستهدفٌ فتح معركة ، واخيراً ان ينصره اهله اذا دارت الدائرة عليــه ، فلن تبلغ بهم الدناءة ان يخذلوه في بلدهم عندما يصبح وإياهم في قبضة العدو ، مهما كان رأيهم فيه ، وحسدهم له .

وبعد وصوله بايام قليلة ، بدأت المناوشات بين الجبّالة : الحجاج يرسل من جانبه بعض الفرسان في غارة ، وابن الزبير يرد عـلى الغارة بمثلها ، ولكن غارة الحجاج تنتهي بالظفر ، وتعود تلك بالهزيمة ، مما شدّ عزيمة صاحبنا وحمله على استغلال الواقع الذي يلمسه ، فكتب الى عبد الملك : « ... إنك متى تدعِ الزبير وتكفّ عنــه ، ولا

تأمرُ برجمه ومصادمته بكثرْ عددْه وعُدَده وسلاحه . » وهكذا ...
استنزل عبد الملك عن رأيه ، ووسوس له ، واستصدر امراً بالزحف
على مكة . فما كادت الموافقة تبلغه حتى تقدَّمَ بالجيش واحتلَّ
جبل ابي قبيس ، على مرمى حجر من مكة ، دون خسارة تذكر .
ولما ورد كتابه على عبد الملك بحصار ابن الزبير في مكة ، والظفر
بأبي قبيس « كبَّرَ عبد الملك ، فكبَّر من في داره ، واتصل التكبير
بمن في جامع دمشق فكبروا ، واتصل ذلك بأهل الاسواق ، ثم
سألوا عن الخبر ، فقيل لهم : إن الحجاج حاصر ابن الزبير بمكة ،
وظفر بأبي قبيس ، فقالوا : لا نرضى حتى يحمله الينا مكبّلاً ، على
رأسه برنس ، على جمل يمر بنا في الاسواق[1] . »

وهناك ، على قمة ابي قبيس ، نصب الحجاج المجانيق وراح
يقصف بلد النبي قصفاً عنيفاً متواصلاً . فتهدم جانب من الكعبة
اضطرب معه المكيّون اضطراباً عظيماً ، وسرى الذعر الى جيش
الحجاج نفسه .

هاك ما يقوله شاهد عيان حضر الموقعة ، نقلاً عن الطبري :
«... رأيت منجنيق اهل الشام يرمى به ، فرعدت السماء وبرقت ،
وعلا صوت الرعد على صوت المنجنيق ، فاعظم اهل الشام ما
سمعوه ، فامسكوا ايديهم ، فرفع الحجاج بركة قبائه فغرزها
في منطقته ، ورفع حجر المنجنيق فوضعه فيه ، ثم صاح : ارموا ،
ورمى معهم . ثم اصبحوا فجاءت صاعقة يتبعها اخرى ، فقتلت من
اصحاب الحجاج اثني عشر رجلاً ، فانكر اهل الشام ، فقال

١ المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ .

الحجاج : يا اهل الشام ! لا تنكروا هـذا فاني ابن تهامه ، وهذه صواعق تهامة . هذا الفتح قد حضر فابشروا فان القوم يصيبهم مثل ما اصابكم ، فصعقت من الغد ، فاصيب من اصحاب ابن الزبير عدة ما اصاب الحجاج ، فقال الحجاج : ألا ترون انهم يصابون وانتم على الطاعة ، وهم على خلاف الطاعة[١] . »

هكذا كان يدير اول معركة خاضها . هـــذا هو اسلوبه في توجيه جنوده ورفع معنوياتهم . واستغرق حصاره لمكة منذ دخل الطائف ثمانية اشهر ، نفد فيها زاد المكيين وعسر عليهم ايجاد ما يأكلونه ، حتى اضطروا الى أكل الكلاب والهررة ، وطفقـــوا يتسللون مثنى وفرادى الى خارج الحصار يطلبون الامان ، وكان في عداد المتسللين ابنا عبدالله ابن الزبير : حمزة وخبيب اللذان اتصلا بالحجاج وامنهما .

ومذ اشتد الامر على عبدالله ، ولم يجد مخرجاً ، دخل على امه في المسجد الحرام حيث قاوم خمسين ليلة ، فدار بينهما الحوار التالي . قال عبدالله :

– يا اماه ! خذلني الناس حتى ولدي واهلي ، ولم يبق معي الا اليسير ، ومن ليس عنده اكثر من صبر ساعة . والقوم يعطونني ما اردت من الدنيا ، فما رأيك ؟

– انت أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم انك على حق ، واليه تدعو ، فامض له فقد قُتِلَ عليه اصحابك ، وان كنت انما اردت الدنيا فبئس العبد انت ، اهلكت نفسك واهلكت من قتل معك ، وان

١ شرح النهج لابن ابي الحديد .

قلت : قد كنت على حق ، فلما وهن اصحابي وهنتُ وضعفت ، فليس هذا فعل الاحرار ولا اهل الدين . كم خلودك في الدنيا ؟ القتل احسن !

ـ اخاف ، يا اماه ، ان قتلني اهل الشام ان يمثلوا بي ويصلبوني !

ـ يا بني ، ان الشاة لا تتألم من السلخ بعد الذبح ، فامض على بصيرتك واستعن بالله .

ودنا منها فقبل رأسها ، ثم قال :

ـ هذا رأيي الذي خرجت به دائباً الى يومي هذا ، ما ركنتُ الى الدنيا ، ولا احببتُ الحياة فيها . وما دعاني الى الخروج الا الغضب لله وان تستحلّ حرماته . ولكني احببتُ ان اعلم رأيك فقد زدتني بصيرة . فانظري يا امّاه ! اني مقتولٌ من يومي هذا ! فلا يشتد حزنُكِ وسلمي الامر الى الله ، فان ابنك لم يتعهد إيثار منكر ، ولا عملاً بفاحشة . ولم يجرْ في حكم الله . ولم يتعمّد ظلمَ مسلم او معاهد . ولم يبلغني ظلمٌ من عمالي فرضيت به ، بل انكرته . ولم يكن شيء عندي آثرُ من رضاء ربي . اللهم لا اقول هذا تزكيةً لنفسي ، ولكني اقوله تعزيةً لامي حتى تسلو عني .

ـ اني لأرجو ، يا بني ، ان يكون عزائي فيك جميلاً ، وان تقدّمتني احتسبتك ، وان ظفرتَ سررتُ بظفركِ . اخرج حتى انظر ما يصير امرك .

ـ جزاكِ الله خيراً ! فلا تدعي الدعاء لي .

ـ لا ادعهُ لك ابداً ، فمن قُتِلَ على باطل ، فقد قُتلتَ على حق ... اللهم ان عبد الله بن الزبير كان معظماً لحرمتك ، وقد

جاهد فيك اعداءك ، وبذل مهجة نفسه رجاء ثوابك ، فلا تخيبه ولا تخيبنه ، بل اظهره وانصره ! اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل ، وذلك النحيب والظمأ في هواجر مكة والمدينة . وبرّه بوالده وبي ! اللهم قد سلّمته لامرك فيه ، ورضيتُ بما قضيت ، فاثبني ثواب الصابرين الشاكرين .

وانحنى عبد الله على يديها يقبلهما ، فقالت :

– هذا وداع ، فلا تبعد .

– جئت ، يا اماه ، مودّعاً . ارى آخر ايامي من الدنيا .

– إمضِ على بصيرتك وادنُ مني حتى اودّعك .

ودنا منها فعانقها وقبّلها ، فوقعت يدها على الدرع ، فقالت :

– ما هذا صنيع من يريد ما تريد .

– ما لبستُه الا لاشد متنكِ .

– إلبس ثيابك مشمّرةً ، فان الدرع لا يشدّ متني .

هنا نكس رأسه وصمت قليلاً ، فقالت :

– يا بني ! لا تقبل منهم خطةً تخاف فيها على نفسك الذل . فوالله لضربة سيف في عز خيرٌ من ضربة سوطٍ في مذلة .

فخرج من حضرتها ، فحارب من حارب ، وقتل من قتل ، ورجع إلى البيت وهو ينشد :

ولست بمبتاع الحياة بسبة ولا مرتق من خشية الموت سلما

وما ان رآه محاصروه من جند الشام حتى شدوا عليه وتكاثروا من كل باب : اهل حمص في الباب الذي يواجه باب الكعبة ، واهل دمشق في باب بني شيبة ، واهل الاردن في باب الصفا ، واهل فلسطين في باب بني جمح ، واهل قنسرين في باب بني سهم ،

وكان الحجاج وطارق بن عمرو – وهو الذي ولي المدينة فيما بعد – في ناحية الابطح الى المروة .

كان ذلك يوم الثلاثاء اول الصبح في اليوم السابع عشر من جمادى الاولى عام ٧٣ ه. ووقف عبدالله وصاح بأهله : « احملوا على بركة الله ! » وحمل حتى بلغ بهم الى الحجون ، فرُمي بحجر اصاب وجهه ، تخضب من بعده بالدم ، ثم هوى الى الارض ، فصاحت مولاة له : « واأمير المؤمنيناه ! » وكانت مختبلة ممسوسة ، فعلم القوم ان عبدالله اصيب الاصابة المميتة .

وطيّر بعض الجنود الخبر للحجاج ، فسجد حين تلقاه ، وسار هو وطارق فوقفا عليه . قال طارق :

– ما ولدت النساء اذكر من هذا .

فامتعض الحجاج قائلاً :

– أتمدح من يخالف طاعة امير المؤمنين ؟!

– لولا هذا ما كان لنا عذر انّا محاصروه وهو في غير خندق ولا منعة منذ ثمانية اشهر ، ينتصف منا ، بل يفضل علينا في كل ما التقينا نحن وهو .

وبلغ ذلك عبد الملك فقال : « الصواب ما قال طارق » . ثم بعث الحجاج برأس طارق ورأس عبدالله بن صفوان ورأس عماره ابن عمرو بن حزم الى المدينة فنصبت فيها ثلاثة ايام ، وارسلت من ثم الى دمشق .

وكان رد دمشق على هذه الهدايا الثلاث تنصيب الحجاج والياً على مكة ، وطارق على المدينة . ثم لم يكتف الحجاج بانتصاره ، فصلب جثمان عبدالله بن الزبير ، وخلاه مصلوباً مدة من الزمن ،

فجاءته اسماء امه — وكانت امرأة عجوزاً طويلة مكفوفة البصر تقودها جارية — وقالت له :

— أما آن لهذا الفارس ان يترجل ؟

فعبس الحجاج ، وأجابها بخشونة وعصبية ظاهرة :

— من ؟ المنافق ؟

— والله ما كان منافقاً ! ولكنه كان صوّاماً قوّاماً برّاً .

— إنصرفي فانك عجوز قد خرفت .

— لا والله ما خرفت ! أشهد اني سمعت رسول الله (هي ابنة ابي بكر الصديق) يقول : « يخرج من ثقيف كذّابٌ ومبير[1] » . اما الكذاب فقد رأيناه (تعني المختار) ، وأما المبير فأنت .

وانصرفت العجوز الثاكل خائبةً ، وظلّ ابنها مصلوباً الى ان كلّم عروة بن الزبير (شقيق عبدالله) عبدالملك في شأن دفنه ، فأنزل عن الخشبة ودفن .

كان هذا الحدث — وقد تناقله الحجازيون وشيّعوه في كل قطر وناد — اول ما دشن به الحجاج عهدَ ولايته في مكة .

أمعن النظر فيه تجد ان الواليَ الجديد كان في غنى عن صلب خصمه بعد ان ظفر به واحتزّ رأسه ، وتحوّل الى جيفة ، وكان في انتصاره كفاية عن التنكيل . وما كان ليعتب احدٌ عليه فيما لو رقّ لتلك العجوز المسكينة المفجوعة ، واجابها لما طلبت ، وهي لم تطلب شيئاً يدعوه الى تأنيبها وتبكيتها على نحو ما فعل ! بيد ان في قرارة هذا الرجل ضرباً عجيباً من « الحقد » دائم الاضطرام ،

١ مبير : من « أبار » اي خلق البوار : الهدم والخراب .

دائم التوهج ، دائم التحرق ، لا يرتوي ولا يهدأ ولا يطامن إلا بحركة مؤذية مقذعة مُرّة ، حتى لتحسب انه يحمل في صميم وجوده بركاناً من الشر يتمثل في سلسلة تفجرات عميقة تجرحه باستمرار ، وتقذف الاساءات باستمرار ، لا تفترّ طرفة عين ، ولا يفترّ معها عن الاذى طرفة عين ، وهو من هذا الغليـــان الداخلي في شغل شاغل عن العالم الخارجي ، وما يدور فيــــه من آلام وتأثرات واحزان ... او هو حجرٌ مشتعلٌ بما يتأكل كيانه ، لاهٍ عمـــا يتأكل غيره .

اما سر هذا التحجر المدهش امام العذاب الانساني ، فلا احسب انا قادرون على تبينه ، ولا اظن ان له مثيلا في تاريخ الرجال وسيرهم ! أيكون احتقار الناس إياه هو الذي اذكى في نفسه هذا الحقد حتى على الجيفة ؟ أم تكون الآلام التي عاناها في صغره هي التي ردّته الى قسوة لا نظير لها ؟ أم ان شذوذ تكوينـــه الجسمي أدّى الى ذلك الانحراف العاطفي عنده ؟ أم هي وراثاته التي تجذبه الى شعور همجي قديم موغل في أبعاد القدم ؟ ثم مـــا هي هذه الهمجية التي تلبس انساناً يصعقك بتفكيره حين يفكر ، ويقنعك بحجته حين يناقش ، ويأخذك ببيانه حين يتكلم ؟

نحن هنا تجاه ظاهرة لا نعثر لها على تفسير ! لقد بدأنا نحتكّ بالذات « الحجاجية » . واغرب ما في الحجاج هو تلك « الذاتية » الصاخبة العنيفة المليئة بالفكر وحسن التفهم للواقع والقـدرة على الايذاء ، الى هدوئها حيال ما تجترم من مقابح واساءات .

اسمع الآن خطابه في مسجـد مكة في اليوم الذي قتل به ابن الزبير ، اذ اجتمع الناس والجنود ذاهلين مشدوهين ، وصعد

المنبر متلثماً ، فحط اللثام عنه وقال :

« موجُ ليل التطم ، وانجلى بضوءِ صبحه !

« يا اهل الحجاز ! كيف رأيتموني ؟ ألم اكشف ظلمة الجور ، وطخية[١] الباطل بنور الحق ؟ والله لقد وطئكم الحجاج وطأة مشفق ، وعطفة رحم ، ووصل قرابة ، فاياكم ان تزلوا عن سنن[٢] اقمناكم عليه ، فاقطع عنكم ما وصلته لكم بالصارم البتار ، واقيم من أودِكم[٣] ما يقيم المثقف[٤] من أودِ القناة بالنار . »

ثم نزل وهو يقول :

أخو الحرب إن عضّت به الحرب عضها

وإن شمرت عن ساقه الحرب شمّرا

في اليوم الثاني ، رفع جثمان عبدالله على الصليب ، فارتجت مكة بالبكاء ، فصعد المنبر وقال :

« ألا ان ابن الزبير كان من احبار هذه الامة ، حتى رغب في الخلافة ونازع فيها ، وخلع طاعة الله ، واستكن بحرم الله . ولو كان شيء مانعاً للعصاة لمنع آدم حرمة الجنة ، لان الله تعالى خلقه بيده ، واسجد له ملائكته ، واباحه جنته ، فلما عصاه اخرجه منها بخطيئته ، وآدم على الله اكرم من ابن الزبير ، والجنة اعظم من الكعبة . »

لا يهمني اثر هذا المنطق في نفوس الذين سمعوه ، واكبر الظن

١ ظلمة .
٢ طريق .
٣ اعوجاج .
٤ مقوم الرماح .

انه كان قوياً بالغاً ، وانما المهم هو ان نعرف صدق الحجاج من كذبه في هذه المواقف . أصحيح أنه حارب ابن الزبير – وهو يعترف انه كان من أحبار هذه الأمة – لانه خلع طاعة امير المؤمنين ؟ ذاك ما أشك فيه ، وإلا فما الداعي الى صلبه والتمثيل به ؟ ثم لِمَ كان يعبر عنه بـ « المنافق » كلما عرض الناس لذكره ؟

الحقيقة ان الحجاج كان يجهد في تحقيق شيء واحد : ان يحترمه الخليفة ويثق به ليتمكن من السلطان ، ويدفع عن نفسه الاخطار التي تحدق بها من شانئيه ومحتقريه والساخرين منه !

وهذا ما فطن اليه الحسن البصري – وهو من ادمغة ذلك العصر – يوم قال عنه : « ألا تعجبون من هذا الفاجر : يرقى عتبات المنبر ، فيتكلم بكلام الانبياء ، وينزل فيفتك فتك الجبّارين ، يوافق الله في قوله ، ويخالفه في فعله ؟ »

وهنا ... لا بدّ من الوقوف عند هذه الظاهرة الغامضة من سيرة الحجاج ، لان احداً من مؤرخيه لم يتعرّض لها ، ومنهم من لم يشر اليها في قليل او كثير . والحجاج نفسه كان يحرصُ اشدّ الحرص على اشتهار صيته بالصدق خاصة ، ولم يبالِ ان يتهمه الناس بالظلم والقسوة والغلظة وما شاكل هذه الاوصاف واتصل بها او تفرّع عنها ، ولكنه كان يغضب الغضبَ كله حين يرميه اخصامه بالكذب او النفاق .

والواقع انه كان ، على الرغم من هذا كله ، عبقرية نفاقية من الطراز الاول ! ونفاقه يظهر في جملة سيرته ويختفي وراء تفاصيلها . وهذا هو جانب العبقرية من نفاقه ، بل انه بلغ من اتقان الكذب درجة ضاع بها عن نفسه ، فكان يُخيّلُ اليه انه يعمل ما يعمل

بوحي من مبادىء يؤمن بها ، وما كان يؤمن بشيء مما آمن بـه معاصروه ، وجاهدوا في سبيله ، وضحّوا من اجله .

تأمل انه « خطب مرة فذكر الذين يزورون قبر رسول الله صلى الله عليه وآله بالمدينة فقال : تباً لهم ! انما يطوفون بأعواد ورمة بالية ! هلاّ طافوا بقصر اميرِ المؤمنين عبد الملك ! ألا يعلمون ان خليفة المرء خيرٌ من رسوله[1] ? »

وسمع احد الحاضرين هذا الخطاب فقال له : « لله عليّ ان لا أصلي خلفك ابداً . ولئن رأيت قوماً يجاهدونك لأقاتلنك معهم . » فقاتل في دير الجماجم حتى قُتل[2].

وانه لمما يدعو الى التعجب حقاً ان تكون عقيدة الحجاج بالنبي على هذا النحو من التضعضع ، ثم يتخذ من نفسه حامياً للشريعة التي جاء بها النبي ، ويقتل النـاس ، ويفتك بالآلاف استناداً لتلك الرسالة ، فأي نفاق يعلو على هذا النفاق او يسبقه ?!

وليست هذي هي الخطبة الوحيدة التي تظهر كفره بالنبي . فقد خطب مرة وهو في طريقه الى الحج بعد ان استخلف على العراقيين ابنه محمد فقال : « يا اهل العراق ، اني قد استعملتُ عليكم محمداً وبه الرغبة عنكم . أما انكم لا تستأهلونه ، وقد اوصيته فيكم خلاف وصية رسول الله بالانصار ، فانه اوصى ان يقبل مـن محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم ، وقد اوصيته ان لا يقبل من محسنكم ، ولا يتجاوز عن مسيئكم ! »

ومردّ هذا النفاق الاجمالي في سلوك الحجاج انـه لم يكن

١ شرح النهج لابن ابي الحديد ، ج ٣ ، ص ٤٧ .
٢ مروج الذهب للمسعودي ، ج ٣ ، ص ٨٧ .

ينطوي إلا على عاطفة سلبية هي جوهر كيانه الشخصي ، وينبوع تصرفاته جمعاء ، ان في الحياة الشخصية وان في الحياة العامة ، ألا وهي « الكراهية » .

كان يكره الاسلام كدين ، ويكره صاحب الرسالة الاسلامية ، ويكره انصار النبي محمد من العرب ، ويكره الهاشميين ، ويكره كل ذي نعمة ، جمالاً كانت او ثروة او جاهاً . وهو لم يؤيد الامويين عامة ، والمروانيين خاصة ، حباً بهم او إعجاباً بمزاياهم وفضائلهم ، لا ... وانما هي كراهيته للروح الدينية الجديدة التي حملته على السير في اتجاههم ، ودفعته دفعاً في تيارهم السياسي والفكري . واليك هذا الحوار بينه وبين عبد الملك . قال هذا :

– إنه ليس من احد إلا وهو يعرف عيبَ نفسه ، فصف لي عيوبك .

– أعفني يا امير المؤمنين !

– لست افعل .

– انا لجوجٌ لدودٌ حقودٌ حسود .

– ما في إبليس شرٌ من هذا [١] .

وبلغ هذا الكلام خالد بن صفوان فقال : « لقد انتحَل الشر بحذافيره [٢] . »

هذه الرواية وحدَها ، التي ترويها جميعُ المصادر ، تدلّ على ان الحجاج كان يدركِ ما فيه من عيوب . بيد انه لم يكن يدرك ان

١ العقد الفريد ، « كتاب الياقوتة في العلم والادب » .
٢ امالي القالي .

« النفاق » الذي يتحامى ان يوصم به ليس إلا « محصّلة » هـذه الامراض النفسية التي شخّصها في نفسه . ومن المعقول ان يكون الحجاج قد نشر في الناس عامداً متعمّداً حكاية صدقه وإخلاصه ، تفادياً لردّ الفعل في نفس امير المؤمنين حين يرجف المرجفون بتلونه وريائه وكذبه ، فكان يصارح اعداءه واصدقاءه على السواء بآرائه فيهم ، حتى اشتهر بالصراحة ، والصراحة الفظّة على الاغلب ، مما القى في روع عبد الملك ان عامله مخلصٌ له لا يداهنـه ولا يتملّقه .

ولكن الدقة في نفاق الحجاج هي موقفه من نفسه ، فقد كان يخادعها في اقوى مظهر ُعرف به ، اعني إخلاصه لعبد الملك . والحاكم الذي يألف الحكم ويصر على الاستمرار فيه رغم تقلّب الاحداث وتغاير الايام ، ينتهي حتماً الى النفاق مع نفسه وتاريخه ، اذ يضطر الى مراعاة الظروف ، ومسايرة الاحوال ، والتنازل عن باطل كان يراه امسِ حقاً ، او الرجوع الى حق كان يراه باطلاً ، دون ان يستهدف مثلاً اعلى ، او يستوحي فكرة يؤمن بها . فمثله الاعلى ان يظل حاكماً ، وفكرته الاولى والاخيرة ان يعيش في رغـد ورفاهية .

وتلك هي رواية الحجاج الخفيّة ، فان جملة ما لدينا من اخباره ، بعد ان احتلّ مكة وعُيّن والياً عليها ، يُفيد بوضوح لا لبس فيه انه اراد شفاء احقاده ، والتثبت من اهميته الشخصية كانسان اكثر مما حاول توطيد خلافة امير المؤمنـين عبد الملك . وشاءت المصادفات ان تنسجم هاتان الناحيتـان في سلوكه أتم انسجام واروعه . ولم يكن يتاح لنا ان نفرّق بينهما او ان نميز احداهما

عن الاخرى لو لم ينقل الينا المؤرخون الاوامر التي كان الخليفة يُصدرها اليه في كثير من المواقف التي تتعارض بها مصلحة الخلافة ونفسية الحجاج .

خذ مثلاً على ذلك الحادثة التالية : « كتب محمد ابن الحنفية[١] الى عبد الملك : ان الحجاج قدُم بلدنا (مكة) ، وقد خفتُه ، فأحب ان لا تجعل له عليّ سلطاناً بيد ولا لسان . فكتب عبد الملك الى الحجاج : ان محمد بن علي كتب اليّ يستعفيني منك ، وقد اخرجت يدك عنه ، فلم اجعل لك عليه سلطاناً بيد ولا لسان ، فلا تتعرض له .

« ولقيه الحجاج مرة في الطواف فعضّ على شفتيه ثم قال : لم يأذن لي فيك امير المؤمنين . فقال له محمد : ويحك ! أما علمتَ ان لله تبارك وتعالى في كل يوم وليلة ثلاثمائة وستين لحظة ، لعله ان ينظر إليّ منها بلحظة ، فيرحمني ، ولا يجعل لك عليّ سلطاناً بيد ولا لسان[٢] ! »

وكتب اليه عبد الملك في رسالة ثانية : « ... جنبني دماء آل ابي طالب ، فاني رأيت الموت استوحش من آل حرب (بني امية) حين سفكوا دماءهم . » فما كانت هذه الوصية لتبرح بال الحجاج كلما لقي طالبياً .

واذا كان لعبد الملك ان يحول بينه وبين ما يشتهي من التنكيل بالهاشميين ، فليس له ان يمنعه من إرواء غليله عن طريق آخر ، كأن ينكّلَ بحزب عبدالله بن الزبير وغيره من الاحزاب ، إياً

١ الحنفية امه ، وابوه الامام علي بن ابي طالب.
٢ المسعودي، مروج الذهب ، ج ٣ .

كان الاسلوب ، وأية كانت الوسيلة . المهم ان يؤذي وان يسيء وان يجرح .

نحن نعلم انه دخل مكة فاتحاً وهو في الثانية والثلاثين من سنيه ، وكان الى يومه ذاك عزباً ، ففكر ، اول ما فكر ، بعد ان حقق حلمه في الولاية ان يتزوج . وذهب به الظن أو الغرور الى ان امرأة لن تجسر على رفض يده اذا مدّها خاطباً . فتقدم من زجلة بنت منظور الفزارية يعرض عليها نفسه . وكانت هذه امرأة عبدالله بن الزبير الذي صلبه بالامس ، ولها منه ولدٌ اسمه هاشم تكنى به . فلما نمي اليها الخبر قلعت ثنيتها وقالت : « ماذا يريد الى ذلفاء ثكلى حرّى ؟! » ثم ردّت رسوله مزوّداً بهذه الابيات :

أبعد عائذ بيت الله تخطبني جهلاً جهلتَ ، وغِبّ الجهل مذموم

فاذهب اليك فاني غير ناكحة بعد ابن اسماء ما استن الدياميم

من يجعل العير مصفرّاً جحافلهُ مثلَ الجواد ، وفضل الله مقسوم[١] ؟

وكانت الصدمة ، او الصفعة ، عنيفة مادت لها اعصاب الحجّاج اول الامر ، حتى اذا هدأ ادرك ان ولايته على مكة لم ترفع من قيمته في نظر غيره . وجاءت هذه الحادثة تزيد في حقده ، وتوقد النار في صدره ، وتحقّره في عين نفسه . فراح يعمل خفية على زحزحة طارق عن المدينة ، ويتزلّف لعبد الملك ما شاء له التزلف ، الى ان صدرت الاوامر بعزل طارق وإيلائه المدينة ، ثم الحجاز بكامله ، ثم اليمن واليمامة .

١ تقول : انا لا استبدل رجلا حضرياً باعرابي عاش ايامه في الصحراء ، وانا لا استبدل بهذا الجواد الكريم حماراً اصفر الشفاه .

ولم تكن سيرته في المدينة افضل منها في مكة ، فقد صرف همّه فيها الى ايذاء الانصار واذلالهم ، والبطش بكل من يشتبه فيه السخط على الحكم الاموي ، كأنما اراد ان يقتصّ للطائف من الذين حاصروها عهدَ النبي وارغموها على الاستلام واعتناق الاسلام ، فكان يستخف باهل المدينة ، ويقسو عليهم قسوة يجد لها مبرراً في مخاطبتهم « انتم قتلة امير المؤمنين عثمان » . وشدّ ما كانت تظهر قسوته في معاملة اصحاب رسول الله خاصة ، اذ راح يختم على ايديهم بالرصاص ليكيدهم ويُذلّهم على نحو ما كان الفاتحون يعاملون الاجانب ويحقّرونهم ، مما اغضب السكان ونفّرهم وايقظ فيهم روح النقمة والتمرّد .

واطرف ما نجد في سيرة الحجّاج خلال ولايته على الجزيرة العربية ، ذلك « النبوغ » في ابتكار وسائل التحقير والاهانة . ولا غرابة فـ « البغض اقوى اهواء النفس على الاختراع » ، كما يعبر فوفينارغ . والحجّاج اتقن فن البغض ، ومارسه وعاشه ، فلن تجد له فيه مثيلاً ، سواء عند الاقدمين او المحدثين .

اليك هذه الطريقة في مكافأة رجل شهدَ معه مشاهده كلها ، وشهد معه تحريق البيت ، وكان من انصاره الاصفياء ، يقال له عبد الله بن هانيء ، وهو رجل من أود (حي من اليمن) ، شريف في قومه ، منظور في عشيرته .

اراد الحجّاج ان يكافئه ، فارسل الى اسماء بن خارجة (وكان من فزارة ، اي من قبيلة زجلة التي رفضت يد الحجّاج في مكة) فجاءه . قال له :

— زوّج عبد الله بن هانيء ابنتك.

– لا ... ولا كرامة !

فصاح الحجاج باعلى صوته :

– يا غلام ، هاتِ السياط !

فارتجف ابن خارجة وقال :

– دعني يا امير . انا ازوجه .

ثم بعث الحجاج الى سعيد بن قيس الهمداني ، رئيس اليمامة (والهمدانيون معروفون بولائهم الشديد لعلي ابن ابي طالب) ، فقال له :

– زوّج عبدالله بن هانيء ابنتك .

– ومن أود ؟.. والله لا ازوجه ولا كرامة .

فصاح الحجاج :

– هاتوا السيف !

فقال إنقاذاً لعنقه في تلك اللحظة :

– دعني اشاور اهلي .

وما ان شاور امرأته واهله حتى قر رأيهم على الاذعان لما يريده الامير ، قائلين :

– زوّجه ! لا يقتلك هذا الفاسق !

وعندما تم الزواجان ، وقف الحجاج يفاخر صديقه بسطوته قائلا :

– يا عبدالله ! لقد زوجتك بنت سيدِ فزارة ، وابنة سيد همدان وعظيم كهلان ، وما أودُ هنالك[1] ؟

فأجابه هذا بما يرفع به الحيف الذي لحقه قائلا :

[1] يريد ان يقول له : أكان لقومك المحتقرين ان يبلغوا هذا المجد ؟

– لا تقل – اصلح الله الامير ! – ذلك ، فان لنا مناقِبَ ما هي لاحد من العرب !

– وما هذه المناقب ؟

– ما سُبَّ اميرُ المؤمنين عثمان في نادٍ لنا قط .

– هذه والله منقبة .

– وشهِدَ منا صفين مع امير المؤمنين معاوية سبعون رجلاً ، وما شهِدَ مع ابي تراب (الامام علي) منا إلا رجل واحد كان ، والله ، ما عَلِمتُه امرأ سوء.

– هذه والله منقبة !

– وما منا احد تزوج امرأة تحت ابي تراب ولا تولاه .

– هذه والله منقبة .

– وما منا امرأة الا نذرت ان قُتِلَ الحسين ان تنحر عشر جزائرَ لها ، ففعلت .

– وهذه والله منقبة .

– وما منا رجلٌ علم من ابيه شتم ابي تراب ولعنه الا فعل ... وازيدكم ابنيه الحسن والحسين وامهما .

– وهذه والله منقبة .

– وما احد من العرب له من الملاحة والصباحة ما لُنا .

وهنا ، ضحك الحجّاج لان مخاطبه كان دمياً مجدوراً ، قبيح الوجه ، احول ، مائل الحولة . فلوى عنه وجهه وهو يضحك وقال : « اما هذه فدعها ... »

هذا مثلٌ من اساليبه في ارهاق الحجازيين وإعناتهم ، وكلها يصدُر فيها ، كما رأيت ، عن كراهية ، عن حقد ، عن نيــة غير

واعية في الانتقام من مؤسسي الحركة الاسلامية ومناصريها ومؤيديها والجادّين في الايمان بها ونشرها .

اما العمل العمراني الوحيد الذي قام به في اثناء ولايته على الحجاز فهو تعمير الكعبة التي دمرها بيده . وما كان ليعمّرها الا امتثالاً لاوامر الخليفة ، وسيراً مع التيار العام الذي لم يكن في استطاعته ان يصدّه بحال من الاحوال .

ذلك ان الروح الوثنية اصيلة في الحجّاج ، وجوّه الذي عاش فيه كان من طبيعته ان يحطم كل وثني ، فنشأ ذلك الصراع الهائل المدهش الرائع بينه وبين معاصريه . وليست حياة الحجاج الا قصة ممتعة من قصص النزاع بين الوثنية المحجوبة والايمان السافر . وما الحجّاج ، بعد كل حساب ، غير وثني اكرهه طموحه على اصطناع الايمان .

مع الحجاج

١ — فتن وثورات

ساءت سيرة الحجّاج في الحجاز فساءت سمعته ، وترامت الشكاوى الى عبد الملك متوالية جادّة ، تنفض له من قسوته وغلظته الاخبار المقلقة ، وتجعله منه امام طاغية جبّار ، فاخذ يفكر في عزله ، ولكنه كان يجد نفسه ، كلما فكر في عزله ، حيال احداث جسام لا يقوى على دفع خطرها غير امرىء عات لا يهمه من الدنيا غير منصبه ، ولا يصدّه عن البطش لوم ، ولا تأخذه بالعصاة شفقة ، فيعود عن تفكيره ليفيد من الحجّاج ... هكذا كانت الظروف تخدم جبّار ثقيف ، وهكذا كان جبّار ثقيف يخدم الخليفة .

وكان العراق خاصة مسرح قلاقل واضطرابات متصلة ، لم يهدأ ولم يستقرّ منذ قتل عثمان واستخلف الامام علي ونشأ الخوارج الذين اصروا على عدم الاعتراف بشرعية السلطة الاموية ، فراحوا يناضلونها ، ويناضلون معها كل سلطة ... فلما ولي عبد الملك حارب مصعبَ بن الزبير عامل اخيه عبد الله على العراق ، فدحره وبايعه اهل الكوفة ، واستعمل خالد بن عبد الله على البصرة ، واخاه بشراً على الكوفة ، كما انفذ الحجّاج الى الحجاز ، ورجع الى دمشق .

وفي عام ٧٥ للهجرة، نظّم الخوارج صفوفهم واشتدوا في مقارعة العمال الامويين وهدّدوا العراق واوشكوا ان يتغلبوا.

كان بشرٌ حاكم الكوفة قد وجه اليهم القائد اليمني المهلّبَ بن ابي صفرة نزولاً على رغبة اخيه الخليفة، لا ثقةً منه به، اذ كان يريد تسليم القيادة لغيره، فلم يرسل معه جيشاً قوياً. ووجه عبد الرحمان بن مخنف في جند الكوفة بعد ان زوّده بكل ما يحتاج اليه من عدّة وعتاد. فما كاد الجيشان يسيران للقاء الخوارج حتى نعى الناعي بشراً. فترك جنود الكوفة معسكراتهم وحملوا المؤن والاسلحة الى بيوتهم. فلم يبق امام الخوارج غير المهلّب في جيشه الهزيل. فكتب هذا الى عبد الملك، وقد اضطرب جنده وتآمروا على الانسحاب اقتداء بجند الكوفة: «... إما ان تبعث لي رجالاً، او فافتح طريق البصرة للعدو ...»

في هذه الفترة العصيبة، كان الحجّاج في دمشق، جاء من المدينة ليعزي عبدالملك باخيه بشر، فجمع الخليفة اعوانه واصفياءه يستشيرهم في امر العراق والبلاء الذي يكابده من اهله، وكان ما ذكرناه[1] من اختيار الحجّاج الذي تطوّع لتأديب العراقيين.

غير ان الحجاج لم يقدم على هذه المغامرة التي تحاماها اقطاب الادارة والسياسة في عصره إلا لان الحجازيين برِموا به، واعرضوا عنه، وابدوا له جانب المقت والازدراء، وعملوا ما امكنهم على التخلص منه بالتي هي احسن، وقد آثروا التلطف والاناة في إقصائه كي لا يصيبهم من جند الشام ما اصابهم يوم ثاروا على عامل يزيد

١ انظر فصل « ميدان الاستبداد »، ص ٥٩ و٦٠ .

وخلعوه ... ولولا هذه السابقة في تاريخهم القريب لما خرج الحجاج من الحجاز حيّاً .

ذلك هو سر تهالكه على ولاية العراق ! ولم يكن في مستطاعه بعدُ ان يعيش امرأ عادياً كغيره ، كأي فرد من افراد الرعية ، وكان يجد انه خُلق للحكم ، فلا يستطيع ان يمارس عملاً آخر غير الحكم ، وهو قائل تلك الكلمة التي « وقذت [1] » الحسن البصري لشدة إعجابه بها وهي : « إن امرأ ذهبت ساعة من عمره في غير ما خُلق له ، لحريّ ان تطول عليها حسرته . » ونفسه كانت آنذاك ملأى بالحسرات على الساعات الطويلة التي قضاها في الدباغة والتعليم ... فهل يُعقل ان يترك الولاية على العراق ولو كان فيها هلاكه ؟ ثم كيف يتأخر والحجازيون اقاموا الدنيا واقعدوها بما تظلموا وشكوا وتذمروا ؟ ومن اين له ان يتأخر واميرُ المؤمنين يستنجد ويستغيث من اهل العراق ؟

وبلغ العراقيين نبأ تعيينه فتلقوه بالاستياء والاستنكار ، حتى اذا اجتمع رؤساؤهم وزعماؤهم في الكوفة ، في المسجد الجامع ، وقف الغضبان بن القبعثرى الشيباني – وهو من ألمع رجال العصر – خطيباً فيهم ، وقال :

« يا اهل العراق ! ويا اهل الكوفة !

« إن عبد الملك قد ولىّ عليكم من لا يقبل من محسنكم ، ولا يتجاوزُ عن مسيئكم ، الظلومَ الغشومَ الحجاج بن يوسف الثقفي .

[1] وقذ : الهب ، اضرم ، والحسن البصري هو الذي رواها قائلا : « لقد وقذتني كلمة سمعتها للحجاج من هذه الاعواد ... »

ألا وإن لكم من عبد الملك منزلة ، بما كان منكم من خذلان مصعب وقتله ، فاعترضوا هذا الخبيث في الطريق فاقتلوه ، فان ذلك لا يُعَدّ منكم خلعاً ، فانه متى يعلو على متن منبركم ، وصدر سريركم ، وقاعة قصركم ، ثم قتلتموه ، عُدّ خلعاً ، فأطيعوني ، وتغدّوا به قبل ان يتعشى بكم ... »

هذا هو صدى تعيين الحجاج في نفوس العراقيين ! امـا سر هذا الاستياء فقد كان يكمن في « صيتـه » السيء الذي انتشر في طول العالم الاسلامي وعرضه ، على انـه مثال القسوة والشراسة ، اذ عاش ثلاثة اعوام في الحجاز يتناقل بها المسلمون اخباره واعماله كلما اجتمعوا في ايام الحج ، فليس عنده مـن سبيل الى إخفائها ، مهما جهد في التخفيف من قيمتها او عمل عـلى كتمها ... وسيرة والي الحجاز معرضة للنقد اكثر من سِيَر الولاة الآخرين ، لانها منكشفة لكل حاج ، وبالتالي ، لجميع المسلمين ...

وليست قسوة الحجّاج السبب الاوحد في استياء العراقيين من تعيينه ، وانما هنالك اسباب جمة : اهمها ما عرف عنه من غيرة على مصلحة العرش الاموي الذي خاصمه العراقيون وأبوا ان يعترفوا به ، على اختلاف مللهم وميولهم ، في مختلف المراحل .

وقبل ان يسير الى العراق خطب اولى بنات النعمان بن بشير . ومذ رآها استوحش منها وخالجته مرارة عميقة ، فطلّقها ، وخطب اختها . وكان من قبل قد تزوج من ابنة اسماء بن خارجة الفزاري ، فلم يطق الحياة معها اكثر من اشهر وطلقها .

على ان زواجه من ابنتي النعمان قبل مسيره الى العراق حادث ذو مغزى ، فنحن نعلم ان الحجّاج ابعد الرجـال عن « الحب

العاطفي» او هو أبعدهم عن الحب اطلاقاً ، فكان اختياره لابنتي النعمان تعبيراً عن السياسة التي يرغب في انتهاجها تجاه العراقيين في جانب ، وشفاء لاحقاد دفينة ، في جانب آخر .

وايضاح ذلك ان النعمان بن بشير كان الانصاريّ الوحيد من اهل المدينة الذي انضم الى معاوية ايام اصطدامه والامام علي . وكانت له في صفين مواقف يذكرها له اهل العراق بحنق وغيظ . وعيّن من بعد والياً على حمص ، حتى اذا هلك يزيد ودبّ الشقاق في صفوف الامويين ، انحاز الى عبدالله بن الزبير وتزوج احدى بناته . وعندما انتقل الامر الى مروان بن الحكم ، جدّ هذا في تعقبه بعد ان هرب ، ولحق به خالد بن عُديّ الكلاعي فقتله .

اراد الحجاج اذن من زواجه ان يظهر للعراقيين تعلقه باعوان الامويين اولاً ، وللحجازيين كراهيته لهم ثانياً ، ولاهل عبدالله ابن الزبير قدرته على نكايتهم واستثار انتصاره في قهرهم ، لانه كان ينوي طلاق الفتاة الثانية بعد استقراره في العراق . وهذا ما فعله ...

وفي صباح يوم من ايام شعبان توجه الحجاج الى الكوفة في ركب من اثني عشر رجلاً تحملهم النجائب . فوصل في نهار مشمس من رمضان . وارسل احد رفاقه يعلم الناس بقدومه ، فتجمهروا في المسجد الجامع .

وبينا كانوا ينتظرونه اذ اقبل يمشي ، وعلى رأسه عمامة حجبت اكثر وجهه ، متقلداً سيفاً ، متنكباً قوساً . واستمر يمشي ويبدأ ويمشي حتى بلغ المنبر فارتقاه ، ووقف ملثماً لا يبدي ولا يعيد ، واهل الكوفة ينظرون اليه صامتين ، وهم احسن ما يكونون

حالاً ، وابهج ما يظهرون منظراً ، يدخل الواحد منهم المسجد ومعه العشرون او الثلاثون من اهل بيته ومواليه عليهم الخزّ والديباج ، وتلمح في وجوههم نضرة النعيم ، وتحس انهم مقبلون على الحياة .

وطال وقوف الحجاج وطال صمته حتى غصّ المسجد باهله ، واخذوا يتهامسون فيما بينهم بكلمات الهزء والاستنكار : « ما له ترّحه الله لا يتكلم !» و« قبح الله بني اميّة حيث تستعمل مثل هذا على العراق ! » وذهب باحدهم الهزء الى درجة حاول معها ان يقذفه بالحصى ، فمنعه مَن حوله مِن الحضور .

ومذ ابصر عيون الناس شاخصةً اليه ، حسر اللثام عن فمه وقال :

« انا ابن جلا وطلاّع الثنايا   متى أضعِ العمامة تعرفوني[1]

« يا اهل الكوفة !

« أما والله إني لأحمل الشر بحمله ، وأحذوه بنعله[2] ، وأجزيه بمثله . واني لارى ابصاراً طامحة واعناقاً متطاولة ، ورؤوساً قد أينعت وحان قطافها ، واني لصاحبها ، وكأني انظر الى الدماء بين العمائم واللحى تترقرق :

هذا أوان الشد فاشتدي زِيَم   قد لفّها الليل بسوّاقٍ حُطم[3]
ليس براعي إبلٍ ولا غنم   ولا بجزّار على ظهر وضم[4]

١ ابن جلا : رجل يضرب به المثل في شدة البأس ، كان يطلع في الغارات من ثنية الجبل (لسان العرب) . والثنايا مفردها ثنية وهي الطريق الوعرة في الجبل .

٢ يريد : اقابل الشر بالشر عيناً وتماماً .

٣ الشد : الركض .

٤ زيم : اسم علم للفتنة او للحرب او للغارة . الحطم والحطمة : الراعي الظلوم للماشية . الوضم : كل ما قطع عليه اللحم . يقول : لست راعياً ولا جزاراً يرحم الماشية ، وانما هو سائق حطم سيدفعهم الى الموت بلا رحمة .

وهدأ قليلاً كأنما اراد ان يمدّ في شأو نفسه ، ثم تابع :

قد لفّهـا الليـل بعصلـبي اروعَ خرّاجٍ من الدَّوّيِّ
مهاجرٍ ليس بأعرابي[١]

قد شمرت عن ساقها فشدوا وجدّتِ الحربُ بكم فجدوا
والقوس فيهـا وترٌ عُرُدّ مثل ذراع البكر او اشدّ[٢]
لا بد مما ليس منه بدّ

« اني والله – يا اهل العراق ، ومعدن الشقاق والنفاق ومساوىء الاخلاق ! – ما يقعقع لي بالشنان[٣] ، ولا يغمزُ جانبي كتغماز التين[٤] ، ولقد فُررتُ عن ذكاء[٥] ، وفُتّشتُ عن تجربـة ، وجريت الى الغاية القصوى . وان امير المؤمنين – اطال الله بقاءه – نثر كنانته ونثلها[٦] بين يديه فعجم عيدانها[٧] ، فوجدني امرّها عوداً واصلبها مكسراً ، فوجهني اليكم ، ورمى بي في نحوركم ، لانكم طالما اوضعتم في الفتن[٨] ، واضطجعتم في مراقد الضلال ، وسننتم سُنَن الغي ، تسائلون ماذا قال اميركم وماذا يقول ؟..

١ العصلبي : الشديد القوي . الاروع : الذكي الشجاع . الدوي : الفلاة التي يسمع دويها في الليل. خراج : اي قادر على الافلات من البلاء . المهاجر : الذي هجر البادية ، فهي هنا ضد اعرابي .

٢ عرد : شديد ، صلب . البكر : الفتي من الابل .

٣ قعقع له بالشنان : مثل يضرب لمن يرتاع لاشياء لا حقيقة لها .

٤ اي : لا ينال مني بسهولة.

٥ فر الدابة : فتح حنكها وكشف اسنانها ليعلم سنها . وفر عن الامر : بحث .

٦ الكنانة : جعبة السهام. نثل : افرد كل سهم على حدة ليتفقد صلاحه من فساده.

٧ عجم العود : عضه ليعلم صلابته من خوَره .

٨ اوضع ايضاعاً : اسرع في سيره .

« اما والله لألحونكم لحوَ العصا[1] ، ولأقرعنكم قرع المروة[2] ، ولأعصبنّكم عصب السلمة[3] ، ولأضربنّكم ضرب غرائب الابل[4] ، فانكم « لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعمِ الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون[5] . » واني والله لا اعدُ الا وفيت ، ولا اهمّ الا امضيت ، ولا اخلق الا فريت[6] ، فأياي وهذه الشفعاء[7] والزرافات[8] والجماعات .

« اما والذي نفسُ الحجّاج بيده لتستقيمن على طريق الحق او لأدعنّ لكل رجل منكم شغلاً في جسده ، فاقبلوا الانصاف ودعوا الارجاف قبل ان اوقع بكم إيقاعاً يترك النساء ايامى[9] ، والولدان يتامى . وان امير المؤمنين امرني ان اعطيكم اعطياتكم[10] وان اوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلّب بن ابي صفرة ، واني اقسم بالله لا اجد رجلاً تخلّف بعد اخذ عطائه بثلاثة ايام الا سفكتُ

١ اللحاء : قشر الشجرة ، ولحا العصا : قشرها .
٢ المرو : حجارة بيض براقة توري النار .
٣ السلمة: شجر كثير الشوك تعصب اغصانه وتخبط بالعصي لاسقاط الورق والاشواك.
٤ غرائب الابل : هي التي تضرب اشد الضرب عند الهرب ، وعند الخلاط ، وعند الحوض .
٥ هذه آية من القرآن استشهد بها الحجاج .
٦ يريد : لا اعزم الا صممت .
٧ الشفعاء : مفردها شفيع ، وكانوا يجتمعون الى السلطان فيشفعون في اصحاب الجرائم .
٨ الزرافات : الجماعات من الناس ، يريد منعهم من التجمع .
٩ ايامى : مفردها ايم وهي التي فقدت بعلها .
١٠ الاعطيات هي المرتبات التي كان يأخذها الجنود سلفاً .

دمه وانهبت[١] ماله وهدمتُ منزله[٢] ... »

ثم اتجه نحو غلامه قائلاً :

– يا غلام ! إقرأ عليهم كتاب امير المؤمنين .

فبدأ الغلام : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبدالله عبد الملك امير المؤمنين الى من بالكوفة من المسلمين . سلام عليكم ... » فقاطعه الحجاج :

– أكفف يا غلام .

ثم اقبل على الناس فقال :

– سلّم عليكم امير المؤمنين فلم تردوا شيئاً ! هذا والله ادبُ ابن نهية[٣] ! أما والله لأؤدبنكم غير هذا الادب ، او لتستقيمن ... إقرأ يا غلام كتاب امير المؤمنين .

واعاد الغلام الكرة ، فلما بلغ الى قوله « سلام عليكم » لم يبق في المسجد احدٌ إلا قال : « وعلى امير المؤمنين السلام ! »

ومذ انتهى الغلام من تلاوة الكتاب ، نزل عن المنبر ، فاجتمع حوله وجهاء الكوفة ، وخرج الجمهور من المسجد ، فقال لهم :

– ما كانت الولاةُ تفعل بالعصاة ؟

– كانت تضرب وتحبس .

فحدّق فيهم الحجاج وقال :

– ليس لهم عندي إلا السيف ! إن المسلمين لو لم يغزوا المشركين

١ انهبت ماله : تركت الناس يغيرون عليه وينهبونه .

٢ لهذه الخطبة صيغ كثيرة ، فهي عند المسعودي غيرها عند الطبري ، وعند الطبري غيرها عند الجاحظ ، الخ ... وقد آثرنا هذه الصيغة لانها تجمع ما في الباقية .

٣ ابن نهية : رجل كان على الشرطة قبل الحجاج .

لغزاهم المشركون . ولو ساغت المعصية لاهلها ما قوتل عدو ولا جبي فيء ولا عزّ دين .

ثم جلس لتوجيه الناس ، والتفت الى قائد الشرطة ورئيس الحرس قائلاً لهما : « اذا مضت ثلاثة ايام فاتخذا سيوفكما عصياً . »

قدِمَ الحجاجُ الى العراق اذن بمهمة عسكرية خالصة هي تجنيد العراقيين لمحاربة الخوارج في الدرجة الاولى ، ولغزو البلاد المتاخمة وفتحها في الدرجة الثانية . وتلك هي المهمة التي وفق فيها مع الشرطة في الشام والتي انتدب اليها في الحجاز، ولكن خشيته على منصبه كانت تحفزه دوماً الى السهر والتيقظ ، وتلزمه جانب القسوة في جميع معاملاته واحتكاكاته بالآخرين .

لذلك ، سيعمدُ الى « إشغال » الجماهير بالاستعدادات المتواصلة للحرب ، والجندية ، والشرطة ، ولن يترك لها ادنى فرصة ينصرف بها تفكيرها الى الناحية السياسية ، لانه كان على يقين ان ادنى تراخ يبدو منه يتحوّل تفكير العراقيين اليه ، ويقع فيما وقع به غيره من بلبلة واضطراب . فراح يجهد اكثر ما يجهد في تنظيم الشرطة ، وتدريب الحرس ، ونشر العسس ، وبث العيون . وكان منه ، بعد ان القى خطبته الاولى التي ذكرناها ، ان سأل وجهاء الكوفة :

– دلوني على رجل اوليه الشرطة .

– اي رجل تريد ؟

– اريد دائم العبوس ، طويل الجلوس ، سمين الامانة ، اعجف الخيانة ، لا يحنق في الحق على حُرّة ، ويهون عليه سؤال الاشراف في الشفاعة .

– عليك اذن بعبد الرحمان بن عبيد التميمي .

فأرسل اليه فاستعمله . ثم ضرب البعث (بعث الجند الى الغزو) على المحتلمين ، ومن راهق وبلغ مبلغ الرجال من الصبيان . فكانت المرأة تجيءُ الى ابنها وقد ُجرّد من ثيابه فتضمه اليها وتقول له: « بأبي » جزعاً عليه ، فسمّي ذلك الجيش « جيش بأبي » .

وبعد ثلاثة ايام عاشتها الكوفة في جوّ من الاستعدادات العسكرية ، جاء الحجاج عميرُ بن ضابيء البرجمي فقال له :

– أصلح الله الامير ! إني شيخ كبير زَمِنٌ عليلٌ ضعيف ، ولي عدّة اولاد ، فليختر الامير ايهم شاء مكاني ، واشدّهم ظهراً ، واكرمهم فرساً ، واتمهم اداة .

– لا بأس بشاب مكان شيخ .

وهمّ عمير بالانصراف مسروراً لهذه النتيجة ، ولكن احد الجلساء استوقفه وسأل الحجاج :

– اصلح الله الامير ! أتعرف من هذا ؟

– لا .

– هو عمير بن ضابيء البرجمي الذي وثب على امير المؤمنين عثمان ، وهو مقتول ، فكسر ضلعاً من اضلاعه .

فاعترضه ابن ضابيء يخاطب الامير :

– إنه كان حبس ابي شيخاً كبيراً ضعيفاً ، ولم يطلقه حتى مات في سجنه .

فقال الحجاج :

– ايها الشيخ ! هلاّ بعثت الى امير المؤمنين عثمان بدلاً يوم الدار ؟ أوليس ابوك الذي يقول:

هممتُ، ولم افعل، وكدت، وليتني   تركتُ على عثمان تبكي حلائله

أما والله ان في قتلك ايها الشيخ لصلاحَ المصرين ! ان عذرك لواضح ، وان ضعفك لبين ، ولكني اكره ان يجترىء بك الناس عليّ .

وأمعن بصعّدُ بصره اليه ، ويعضّ على لحيته مرة ، ويسرحها اخرى ، ثم قال :

– يا عمير ! أسمعت مقالتي على المنبر ؟

– نعم .

– إنه لقبيح بمثلي ان يكون كذّاباً .

والتفت الى غلامه :

– قم اليه يا غلام ، فاضرب عنقه .

وكان اول اعدام اقدم عليه . فما كاد الخبر ينتشر في المدينة حتى دب الذعر في قلوب أهليها ، وشاع فيهم الهلع ، وخرجوا على وجوههم ذاهلين يريدون اللحاق بالمهلب بن ابي صفرة . وازدحموا على الجسر حتى ضاق بهم ، وسقط بعضهم في الفرات . فجاءه حارس الجسر وقال له :

– أصلح الله الامير ! لقد سقط بعض الناس في الفرات .

– ويحك ! ولِمَ ذلك ؟

– ازدحم اهل هذا البعث على الجسر حتى ضاق بهم .

– انطلق فاعقد لهم جسرين.

وخرج عبدالله الاسدي الشاعر مذعوراً ، فلقيه نسيبه ابراهيم ، فسأله : « ما الخبر ؟ » فقال له : « الشر ! الشر ! قُتل عمير من بعث المهلّب! » ونظم الابيات التالية :

اقول لابراهيم لمّـا لقيته   ارى الامر امسى مهلكاً متصعبا

تجهز ! فاما ان تزور ابن ضابيء   عميراً ، وإما ان تزور المهلبا
هما خطتا خسف نجاؤك منهما   ركوبك حيراناً من البلج أشهبا
فأضحى، ولو كانت خراسان دونه   رآها مكان السوق او هي أقربا
وإلا فما الحجاج مغمدُ سيفه   مدى الدهر حتى يترك الطفل أشيبا

وهذا ما حمل الناس على ارتياد المعسكرات من تلقاء انفسهم ، وراحوا يرسلون الى اهلهم : « زوّدونا ونحن بمكاننا . »

بعد يومين من هذا الحادث ، خرج الحجاج في اليوم الثالث من قصره يؤم الجامع ، فسمع تكبيراً في السوق ، فخيّل اليه ان الكوفة تتمخض بثورة ، وان سكانها قادمون لا محالة على الانتقام لعمير ، فصعد المنبر متأثراً ، منهيج الاعصاب وقال :

« يا اهل العراق ! يا اهل الشقاق والنفاق ومساوىء الاخلاق !

« اني اسمع لكم تكبيراً ليس بالتكبير الذي يراد به الترغيب ، ولكنه تكبير الترهيب . الا انها عجاجة تحتها قصف ، يا بني اللكيعة ، وعبيد العصا ، وابناء الاماء . انما مثلي ومثلكم كما قال ابن براقة :

وكنت اذا قوم غزوني غزوتهم   فهل انا في ذا ، يا لهمدان ، ظالم؟
متى تجمع القلب الذكيّ وصارماً   وأنفاً حمياً تجتنبك المظالمُ ...

« أما والله لا تقرع عصا عصا إلا جعلتُها كأمس الدابر ... »

وراح ينفذ تهديداته هذه بضبط ودقة الى ان خلق في الكوفة جواً من الارهاب صرف به الناس عن التفكير في السياسة والخلافة ، وحملهم على الاخلاد للسكينة ، وشغلَهم بتجنيد الشبان وتموين الجيوش واخبار الغارات والمعارك .

وما ان اطمأن الى الموقف الداخلي في الكوفة حتى ذهب الى

البصرة ، وكان نجاحه هناك حافزاً له على اتباع الخطط نفسها هنا ، فتوجّه الى مسجد البصرة رأساً وصعدَ المنبر ، وقال :

« من اعياه داؤه فعندي دواؤه . ومن استطال اجلَه فعليّ ان اعجله . ومن ثقل عليه رأسه وضعتُ عنه ثقله . ومن استطال ماضي عمره قصرت عليه باقيه .

« ان للشيطان طيفاً ، وللسلطان سيفاً ، فمن سقمت سريرته ، صحت عقوبته ، ومن وضعه ذنبُه رفعه صلبه ، ومن لم تسعه العافية لم تضق عنه التهلكة ، ومن سبقته بادرة فمه ، سبق بدنه بسفك دمه .

« اني انذرُ ثم انظر ، وأحذّر ثم لا اعذر ، وأتوعد ثم لا اعفو . انما افسدكم ترنيق[1] ولاتكم . ومن استرخى لببُه[2] ساء ادبه .

« ان الحزم والعزم سلباني سوطي ، وابدلاني به سيفي ، فقائمه في يدي ، ونجاده في عنقي ، وذبابه قلادة لمن عصاني .

« والله لا آمر احدكم ان يخرج من باب من ابواب المسجد ، فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه . »

فلما نزل عن المنبر جاءه شريك بن عمرو اليشكري ، وكان شيخاً كبيراً اعور ، يضع على عينه العوراء صوفة ، وقال له :

– اصلح الله الامير ! إن بي فتقاً ، وقد عذرني بشرٌ[3] ، ووددتُ

١ الترنيق : الضعف في الامر ، وفي الادارة ، وفي الجسم ...

٢ اللبب : ما يشد في صدر الدابة ليمنع استئخار السرج . وهو يقصد : ان اللين والمسايرة يفقدان انتظام المجتمع .

٣ بشر بن مروان شقيق الخليفة عبدالملك ، وكان والي البصرة قبل الحجاج .

العطاء لتردّه الى بيت المال .

فأجابه الحجّاج :

– انك عندي لصادق .

ولكنه لم يكد يتلفظ بآخر كلمة حتى امر الحرسيّ بضرب عُنُقه لانه استعفاه من الخدمة العسكرية ، فلم يشأ ان يبدأ ولايته في البصرة باعفاء ...

تلك اول حادثة ، والحادثة الثانية هي تلك التي جرت له مع حائك بصري اتى به شرطي من بني سُلَيم وقال له وهو جالس الى مائدته يتغدى مع رهط من حاشيته :

– اصلح الله الامير ! إن هذا الرجل عاصٍ .

فقال الرجل ، وهو يرتجف من الخوف :

– انشدك الله ايها الامير في دمي ، فوالله ما قبضتُ ديواناً قط ، ولا شهدت عسكراً ، واني لحائكٌ اخذت من تحت الحف[1] .

فلم يكن من الحجّاج الا ان امر بضرب عنقه . فلما احس المسكين بالسيف سجـد ، فلحقه السيف وهو ساجـد . فتوقف مؤاكلوه ، وامتنعوا عن تناول طعامهم . فنظر اليهم الحجّـاج غاضبـاً وقال : « مـا لي أراكم صفِرتْ ايـديكم ، واصفرّت وجوهكم ، وحدّ نظركم من قتل رجل واحد ؟! ان العاصي يجمع خلالاً تخلّ بمركزه ، فهو يعصي اميره ، ويغرّ المسلمين وهو اجير لهم ، وانما يأخذ الاجرة كما يعمل ، والوالي مخيّر فيه ، ان شـاء قتل ، وان شاء عفا ... »

١ الحف : قصبة الحياكة .

لا استطيع ان اجد للحجّاج عذراً في هذه القسوة سوى انه كان يكره العراقيين ، اذا كان كره العراقيين يشكّلُ عذراً للحجّاج وامثاله ... وليس هذا الكلام الذي يبرر به قسوته الا هراءً في هراء .

قال المعتذرون عنه : « انه كان موظفاً ينفذ ما يؤمر به . » واحسب ان احداً لا يقتنع بهذا العذر في اقدامه على قتل ذلك المسكين الاعور شريك بن عمرو اليشكري الذي اعفاه أخُ الخليفة من الخدمة لمرضه ، ولا في قتل هذا الحائك الذي جاءه به احد الجواسيس ، فأين هو في هذين الموقفين من عبدالملك وأوامره ؟ بل اين هو من أداء وظيفته على احسن ما يكون أداؤها ؟ أفي الوظيفة ان يسفك الوالي دم الابرياء من الرعيّة ؟ ومتى كان القيام بواجب الوظيفة يفرضُ التجبّر والقسوة والظلم ؟ وهل من الادارة الحازمة ان يثير الحاكم الاحقاد في نفوس محكوميه ؟

وقالوا ايضاً : « لم يكن امام الحجاج غير الشدة على العراقيين ليردهم الى حظيرة الجماعة ، ويقف دون تمردهم على السلطة . » وما كان احرانا بقبول هذا العذر لو ان الحجاج انتظر الشر ليرد عليه ، او ليؤدب فاعليه ، ولكنه عمد الى الارهاب قبل ان يبدر من الكوفيين او البصريين ما يبرر شدته ويحمل الناس على إعذاره .

الحقيقة هي ان الحجاج قدم العراق وصدره موغَرٌ على اهله . وكان في نيته ، منذ تحرّكت ركابه نحوه ، ان يفعل ما فعل دون ان يراقب او يوازن او يتروّى ، بل كان في شوقٍ حادٍّ مُلح للتنكيل بالعراقيين وسفك دمائهم واهدار كراماتهم . ولم تكن

الاسباب لتهمه بمقدار ما كان يهمه ان يروّي غليله ، ويشفي احقاده .

هاك هذا الحوار الذي جرى بينه وبين جامع المحاربي – وكان جامع هذا شيخاً صالحاً خطيباً لبيباً جريئاً – اذ جعل الحجّاج يشكو سوء طاعة اهل العراق وقبح مذهبهم ، فقال له جامع :

– اما إنه لو احبوك لأطاعوك ، على انهم ما شنئوك لِنسبِك ولا لبلدِك ولا لذات نفسك ، فدع عنك ما يبعدهم منك الى ما يقرّبهم اليك ، والتمس العافية ممن دونك تعطَها ممن فوقك ، وليكن ايقاعك بعد وعيدك ، ووعيدك بعد وعدك .

فأجابه الحجّاج بصَلَفٍ وكبر :

– ما ارى ان اردّ بني اللكيعة الى طاعتي الا بالسيف !

– ايها الامير ! ان السيف اذا لاقى السيف ذهب الخيار .

– الخيار يومئذ لله !

– ولكنك لا تدري لمن يجعله الله .

فغضب الحجاج هنا واحتدّ مزمجراً :

– يا هناه[1] ! انك من محارب ...

– وللحرب سُمّينا وكنا محارباً اذ ما القنا امسى من الطعن احمرا

– والله لقد هممت بان اخلع لسانك فأضرب به وجهك .

– ان صدقناك اغضبناك ، وان غششناك اغضبنا الله ، فغضب الامير اهون علينا من غضب الله .

لم يكن الحجاج اذن ليشتد – كما ترى في هذا الحوار – على

١ هن : كلمة يكنى بها عن اسم الانسان ، وتزاد عليها الالف والهاء في حالات الانفعال .

اهل العراق نتيجة آلام عاناها منهم ، ولا كان سلوكه معهم منبثقاً عن تجارب مرّ بها في ادارتهم ، وانما هي شهوة الحكم ولذة الانتقام وانتفاضات النفس الحاقدة المريضة التي كانت توجهه بجملتها وتسيّر اعماله ، كأنما كان يستفزّهم ويحملهم على العصيان والتمرد عامداً متعمّداً ، لينقضّ عليهم مبرّراً انقضاضه بعد ذلك بعصيانهم وتمرّدهم . وهكذا ... نشأت بين الجانبين ازمة وجدانية من اطرف الازمات واغربها ، تُعطينا صورة شبه كاملة عن كل ازمة تقع بين الحاكم والمحكوم في كل عصر ومصر ، وأهم ما فيها استغراق كل من الطرفين في وجهة نظره ، فأصبح الحجاج يشدّ ازر الشاميين يوماً عن يوم ، ويتحدى العراقيين في كل حركة وسكنة ، ويستلّ سيفه لدى الصغيرة والكبيرة من الحوادث ، ويُطيل لسانه بالسباب والاهانة في جانب ، والثناء والاكرام في الجانب الآخر ، مسترسلاً مع ميوله الدفينة العميقة ، مستجيباً لأبعد الاحاسيس التي تنبع في قرارته عن حسه الوثني الاصيل . واصبح العراقيون في حال من القلق والاضطراب والتضعضع لا يسعهم معها ان يهبوا بوجهه هبة رجل واحد ، فيخلصوا منه ومن شروره ، وراحوا يثأرون لكرامتهم على شكل فردي يعوزه النظام والانتظام ، ويردون على إهاناته بانتفاضات وقتيّة لا تلبث ان تهمد بعد اشتعالها . وكانت اولى هذه الانتفاضات ثورة عبدالله بن الجارود العبدي ، والحجاج هو المسؤول عنها في الدرجة الاولى .

وتفصيل الحادث ان الحجاج قرر ان ينقص اعطيات الجند عما كانت عليه ايام عبدالله بن الزبير ، فخطب الناس قائلاً : « ان الزيادة التي زادكم اياها ابن الزبير انما هي زيادة ملحد منافق فاسق

ولسنا نجيزها . » فوقف ابن الجارود يعارضه :

– ايها الامير ! ليست بزيادة ابن الزبير ، انما هي زيادة امير المؤمنين عبد الملك اذ انفذها واجازها ، وجرت على يد بشر بن مروان .

فغضب الحجاج لهذه المعارضة التي حسبها وقحة وقال لمخاطبه :

– ما انت والكلام لتحسن حمل رأسك والا سلبتك اياه .

– ولمَ تسلبني رأسي ؟ والله اني لك لناصح ، وان قولي هذا لقولُ من ورائي !

وما انفض المجلس حتى تجمهر لفيف المستائين حول ابن الجارود ، مما حدا الحجاج على التوقف عن تنفيذ قراره طيلة نحو من شهر . ثم رجع اليه ورجع ابن الجارود الى معارضته وكان قد التف حوله جماعة من المحاربين والقواد ورؤساء القبائل امثال قتيبة بن مسلم القائد الشهير ، والهذيل بن عمران البرجمي ، وعبدالله بن حكيم المجاشعي . ولم يبق الى جانب الحجاج غير حرسه واعوانه من جند الشام وبعض المرتزقة الذين لا يؤبه لهم .

واجتمع قادة المعارضين ورؤساؤهم ، واتفقوا فيما بينهم على تأليف كتلة برئاسة ابن الجارود تعمل على اخراج الحجّاج من العراق بالطرق السلمية الهادئة . فكتبوا الى عبدالملك يشكون عامله وما يقترف من سيئات ، ويلحق بهم من اضرار واهانات ، راجين ابداله بغيره ، ولكن الحجّاج علمَ بامرهم – ولا يبعد ان يكون عبدالملك نفسه قد ارسل اليه يحذره ! فاحتاط لنفسه ، واحتال ما امكنته الحيلة ، حتى قسّمَ المعارضين وضم اليه بعض انصار ابن الجارود . وما ان استوثق من قدرته على الظفر حتى

فتح المعركة ، وبدأها بالقبض على زعماء المعارضة . فلم يطُل الكرّ والفر اذ دب الشقاق في صفوف الثائرين الذين بوغتوا بالحرب ، وفوجئوا باعتقال كبرائهم ، وانتهى الامر ان قطّع الحجّاج رؤوس الزعماء وارسلها الى المهلّب ليعرضها على الخوارج ، ويرهب بها كل من تسوّل له نفسه التمرّد على اوامره .

ادرك العراقيون بعد هذه الثورة التي اخفقت اخفاقاً ذريعاً ان عبدالملك ادهى من ان يعينهم على الحجّاج ، وانه اشد تعلقاً به مما كانوا يتصورون ، فقنطوا من مساعدته او من عدله فيهم بتعبير اصحّ ، وراحوا يناضلون ، وهم المنقسمون المشتتون شيعاً واحزاباً ، كل حزب بما لديه من وسائل وادوات ، على غير هدى ، في غير نظام ...

وادرك الخوارج ان سيرة الحجّاج في اهل العراق تتجه نحو النفور منه ، فاشتد املهم في التغلب عليه ، وتجهزوا وأعدّوا العدة لمقارعته اثناء اشتغاله بثورة ابن الجارود .

وما كادت هذه الثورة تخمد حتى اندلعت ثورة الزنج . والزنج هؤلاء شراذمُ لصوص متشردين جاءوا بعد الفتح العربي لافريقيا الشرقية من سواحل الصومال ، وألّفوا عصابات مسلحة اندسّت في صفوف الخوارج ، وعاثت في اطراف العراق فساداً . وكان مصعب بن الزبير قد حمل عليهم حملات تأديبية لم توفق الى محوهم . فلما ولي خالد بن عبدالله امر البصرة خرج لقتالهم فأسر من اسر ، وقتل من قتل ، وصلب من صلب ، ولكنهم عادوا الى جمع صفوفهم في وادي الفرات عندما ولي الحجّاج واشتدت عليه المعارضة .

كان الحجّاج يومذاك في الكوفة ، فكتب الى عامله على البصرة زياد بن عمرو العتكي يأمره بتجهيز حملة قوية تكفيه شرهم ، فأرسل هذا ابنه حفص على رأس كتيبة من الجنود البصريين ، ودارت معركة قتل فيها حفص وفر منها جنده .

وطيّر خبر هذه الهزيمة الى الحجّاج ، فقدم البصرة هائجاً مزبداً ، وصعد المنبر وخطب :

« يا اهل البصرة !

« ان عبيدكم وكساحيكم رأوا معصيتكم فتأسوا بكم . وايم الله لئن لم تخرجوا الى هؤلاء الكلاب فتكفوني شرهم لأعقرنّ نخلكم ، ولانزلن بكم ما انتم له اهل ، باستخراجكم وفسادكم . »

ثم وجه حملة ثانية لمحاربتهم اشرف بنفسه على تجهيزها ، وجعل كُرازَ بن مالك السلمي قائدها — وبنو سُلَيْمٌ معروفون مشهورون بفروسيتهم وحسن بلائهم في الحروب . فلم يزل هذا يقاتل الزنج حتى تمكن من الايقاع بهم وقتل زعيمهم ، وبذلك هدأت البصرة واستتب بها الامن .

ولكن ثورة ابن الجارود وظهور الزنج المتمردين على السلطة حادثان لم ينتهيا ، رغم انتصار السلطة فيهم ، اذ فتحا عيون الخوارج على المصاعب التي يعانيها الحجاج في حكم العراق ، فأخذ الازارقة[١]

١ انقسم الخوارج الى تسع فرق هي : ١) المحكمة : وهم الذين يمنعون التحكيم . ٢) الازارقة : اتباع نافع بن الازرق وهم الذين خرجوا بفارس وكرمان ايام ابن الزبير وقاتلهم المهلب بن ابي صفرة وهم يكفرون علياً مع جمع من الصحابة كما يكفرون القعدة عن القتال مع الامام وان قاتل اهل دينه ، ويبيحون قتل اطفال المخالفين ونسائهم ، ويسقطون الرجم عن الزاني المحصن دون قاذف المرأة المحصنة ، ويخرجون اصحاب

منهم يزدادون عنفاً على عنف ، ويوالون هجماتهم ، ويستبسلون في غاراتهم .

لم يكن الحجاج ليحارب الخوارج بنفسه ، وانما صرف همّه ، كل همّه ، في إعداد المدد ، وتهيئة العتاد ، وارسالها الى الجبهات ، ثم في توجيه الخطط وتغذية الحركات العسكرية بجميع ما تحتاج اليه من مال وسلاح ورجال ، واخيراً في ضبط الجبهة الداخلية وتدارك ما ينتابها من تصدعات . وترك الحرب العملية للمهلب بن ابي صفرة ، وهو ابرع شخصية عسكرية عرفها عصره ، ومدّه برجال يعاونونه وينفذون خططه ، حفظ التاريخ اسماءهم لما ابدوا من مضاء وشجاعة وحسن تدبير كعبد الرحمان بن مخنف ، وسفيان بن الابرد الكلبي ، وعتاب بن ورقاء ، والحارث بن عميرة وغيرهم .

وطال امر هذه الحرب مع الخوارج وطال ... طال زهاء

الخطيئات الكبيرة عن الاسلام ويقولون : التقية لا تجوز ، خلاف ما يعتقد الشيعة . ٣) النجدات : وهم اصحاب نجدة بن عامر ، يكفرون بالاصرار على الصغائر ، دون فعل الكبائر من غير اصرار ، ويستحلون دماء اهل العهد والذمة واموالهم ، ويتبرأون ممن حرمها . ٤) البيهسية : اصحاب ابي بيهس بن خالد يرون انه لا حرام الا ما وقع عليه النص لقوله تعالى : « قل لا اجد فيما اوحي الي محرماً ... » ويكفرون الرعية بكفر الامام . ٥) العجاردة : وهم الذين ينكرون كون سورة يوسف من القرآن ، ويوجبون التبري من الطفل ، فاذا بلغ دعي الى الاسلام . ٦) الاباضية : يرون ان مرتكب الكبيرة كافر النعمة وليس مشركاً ، ويرون ان دار مخالفيهم من المسلمين دار توحيد ، وان السلطان ظالم . ٧) الميمونية : وهم يقولون ان الله يريد الخير دون الشر ويجوزون نكاح بنات البنات ، وبنات اولاد الاخوة والاخوات . ٨) الثعالبة : يرون ولاية الطفل حتى يظهر عليه انكار الحق فيتبرأون منه . ٩) الصفرية : يرون ان ما كان من الكبائر فيه حد كالزنا لا يكفر به ، وما كان منها ليس فيه حد كترك الصلاة يكفر به . — صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٢٢٤ .

سنتين ونصف عاشها الحجاج والعراقيون في خطر دائم ، وشغل شاغل ، وبلاء متصل ، واوشك الخوارج ان ينتصروا فيها اكثر من مرة ، ولكن الشقاق دب في صفوف الازارقة ، وكان اختلافهم ذا صبغة عنصرية ، اذ تجزّأت قيادتهم بعد ان كانت موحدة ، واصبح امرهم موزعاً بين فئتين : الاولى عربية يقودها قطريّ بن الفجاءة المازني - وهو من رجالات عصره المعدودين ، والثانية فارسية يقودها عبد ربه الصغير - وهو مولى لبني قيس بن ثعلبة كان يمارس تعليم الصغار في كتّاب . ثم ما لبث هذا الخلاف ان تشعب واتسع حتى انصرفوا الى التناحر فيما بينهم . واستغل المهلب انقسامهم ابرع استغلال ، فوفق بعد مداورات دقيقة وغارات عنيفة الى القضاء على قطري وابني عبد ربه الكبير والصغير ، وانتهى بذلك من الازارقة ومشاكلهم ...

بيد ان الحجّاج لم يعرف الهدوء ولا ذاق طعم الاستقرار على الرغم من الاخبار المفرحة التي وردت من المهلّب وظفره باعدائه . فقد تحرّكت جبهة خارجية في الموصل اشد من الازارقة ، وهم الذين يرون رأي الصفريّة ، تحركوا يستهدفون الحجّاج نفسه ، وكان يرأسهم بادىء الامر صالح بن مسرح الذي عاش ايامه ناسكاً مصفرّ الوجه - وهذا مصدر اسم فرقته - موغلاً في الزهد والتعبّد ، وله اتباعٌ ينشر فيهم ويقرؤهم القرآن ويفقههم في الدين ويقصّ عليهم ما رشح اليه من سير وتواريخ ، وما افضت اليه تأملاته من آراء . فكان اذا جلس مجلس الامام ذكر الله وحمده ، وثنى بالصلاة على محمد النبي ، واثنى على ابي بكر وعمر ، حتى اذا وصل لعثمان وعلي تبرّأ منهما ودعا الى مجاهدة أئمة الضلال

قائلا : « تيسّروا يا اخواني للخروج من دار الفناء الى دار البقاء ، واللحاق باخواننا المؤمنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة ، ولا تجزعوا من القتل في الله ، فان القتلَ أيسرُ من الموت ، والموت نازلٌ بكم ، مفرّق بينكم وبين آبائكم وإخوانكم وأبنائكم وعلائلكم ، وإن اشتدّ لذلك جزعكم . ألا فبيعوا أنفسكم طائعين ، وأموالكم انفقوها في الجهاد ، تدخلوا الجنة ... »

كان لهذا التحريض البليغ وأمثاله ، المقرون بالعمل ، الظاهر في سيرة المحرّضين ، اثره البالغ في نفوس سامعيه . فانبثوا في المدن والقرى يدعون الناس الى اتباع صالح والاندماج في حركته . وكان شبيب بن يزيد الشيباني اول من لبّى النداء وانضم اليه بمن معه من الرجال . واجتمعوا في هلال صفر ليلة الاربعاء عام ٧٦ للهجرة وتداولوا فيما بينهم مناهج العمل ، وخطط السير في الحرب . وانهى صالح مداولاتهم بخطبة قال فيها : « اتقوا الله عباد الله ، ولا تعجلوا الى قتال احد من الناسَ الا ان يكونوا يريدونكم ، فانكم انما خرجتم غضباً لله ، حيث انتهكت محارمه ، وعُصيَ في الارض ، وسفكت الدماء بغير حق ، واخذت الاموال غصباً ، فلا تعيبوا على قوم اعمالاً ثم تعملونها ... »

ومشت الحملة فاحتلت ذرعان ، وهي بليدة في جزيرة العراق . ثم سارت نحو آمد . وراح الحجاج يرسل في تعقبهـا النجدة تلو النجدة ، وهي تنتقل من مكان الى مكان حتى بلغت خانقين على تخوم ارض فارس . وهناك وقعت معركة هائلة قُتل فيها صالح ابن مسرح ، ووَلي من بعده شبيب الذي شد على الحارث بن عميرة - وكان الحجاج قد ارسله في ثلاثة آلاف - فقتله وفلّ جيشه .

واستمر شبيب يجالد ويقارع ، في سلسلة معارك خرج منها مظفراً ، حتى بلغ الكوفة ، فاحتلها وانضم اليه الناقمون على الحجاج حكمه .

ولكن الحجاج كان قد ارسل الى عبد الملك يعلمه بخطورة الموقف وخذلان العراقيين له ، كما انذره بسوء العواقب التي ينتهي اليها ملكه اذا لم يسرع في انجاده . فما كاد شبيب يدخل الكوفة حتى وصل سفيان بن الابرد على رأس اربعة آلاف من جند الشام ، وتلاه حبيب بن عبد الرحمن بن مذحج في الفين . ودارت رحى المعارك في قطاعات مختلفة لم يملك معها شبيب ان يستقر في الكوفة ، فهرب يتنقل من قطاع الى قطاع ، والخسائر تلحق بجنده ، والعدو يتكاثر عليه الى ان بلغ كرمان في بلاد العجم . فلحقه سفيان بن الابرد عند جسر دُجيل الاهواز (عربستان اليوم) حيث نشبت معركة لم يكن لفريق فيها غلبة . وفي المساء امر شبيب اصحابه بالرحيل ، فعبروا الجسر امامه ، وتبعهم راكباً على فرسه الذي نزا عند الجسر فسقط في الماء ، وسقط معه شبيب وهو مثقل بالحديد من درع ومغفر وسيف فغرق ، ولم يمكن انقاذه حياً .

عند الصباح ، بلغ سفيان خبر غرق عدوه وانصراف اصحابه ، فأتى ومن معه الى النهر فاستخرجوا جثة شبيب ، وشقوا بطنه ، واخرجوا قلبه ، وضربوا به الارض ... فكان ينزو كما تنزو الطابة على ما ذكر المؤرخون ، وقيل انه وجد فيه قلب آخر فكان صلباً لازدواجه هذا .

ولم تكن هذه الهزيمة لتكبح جماح العراق الثائر ، فثار اهل الشمال (الموصل ونواحيها) من جديد اخذاً بثأر شبيب . وقاد

الحركة المطرف بن المغيرة بن شعبة الثقفي . وكان هذا ممن استهواهم شبيب بجولته وادبه وصلابة ايمانه . فانتقض على الحجاج بعد ان كان عامله على المدائن (قرب البصرة) ، واصبح يجد في الامويين وولاتهم بلاء الامة وفساد الدين. وراح يدعو الى «الحكم بالحق والعدل في السيرة»، متأثراً بآراء الخوارج ، معتبراً بسيرة ابن عمه الحجاج التي لم ترض احداً من الصالحين ، مستنداً الى هذه النقمة العارمة عليه في وسطه وابناء إقليمه ، ولكن ثورته اخفقت ولم يتح لها ان تتسع لما اتخذ الحجاج من تدابير ، وبث من عيونه ، وجهّز من فرسان ، فقُتل في احدى المعارك التي خاضها عام ٧٧ للهجرة .

وما كان إخفاق العراقيين في ثوراتهم المتقطعة هذه ، إلا ليزيد النار في صدورهم ضراماً ، ويجعلهم في موقف نفسي يدقّ عن الوصف اذ انبت بهم الامل من عدل السلطان ، وحوربوا في افكارهم وآرائهم ومعتقداتهم التي يتمثل لهم صوابها في كل ما يعانون من حياة ، ويكابدون من مرارة ، وخرجت القضية عن ان تكون قضية والٍ يريدون عزله ، ولا يطيقون حكمه ، كما كان الامر عهدَ معاوية الاول ، وانما اصبحت قضية اقليمية معتاصة تشمل العراق بجملته ، والشام بجملتها ، فلن تُحلّ الا ان يتغلب احد الاقليمين على الآخر ... هذا ما افضت اليه سياسة الحجّاج الرعناء !

ولكن الحجّاج كان يزداد سروراً كلما اتسعت شقة الخلاف بين الشاميين والعراقيين . وبلغ به الفرح اوجَهُ يوم انتصر على المطرف ، وهدأت الحال عام ٧٨ للهجرة .

صحيح ان الحال هدأت ، ولكن الجمر كمَنَ تحت الرماد ، ولم يظهر لعين الحجّاج نفسه الا يوم ولّى عبد الرحمن بن الاشعث

قيادة الجيوش لمحاربة الاتراك الذين استغلوا اضطراب السياسة الداخلية في البلاد العربية ، وامتنعوا عن دفع الجزية . فلما اطمأن الحجّاج الى سكينة العراقيين ، ارسل الى عامله على سجستان يطلب اليه الاتصال برُتبيل[١] ملك الترك واستيفاء ما بذمته ، فان ابى تجهز له ، وحمل عليه .

وكان ان رفض رُتبيل ووقعت الواقعة بينه وبين عبيدالله ابن ابي بكرة عامل الحجّاج ، ودارت الدائرة فيها على عبيدالله الذي تراجع امام العدو تراجعاً اساء الى معنويات الجيش العربي .

ومذ بلغ الحجّاج نبأ انسحاب جنده خاف على نفسه ، وجزع من تأثير هذه الهزيمة في صفوف العراقيين ، وكلهم موتورون ، فكتب الى عبدالملك يستأذنه في ارسال جيش قوي يناجز الترك ويكسر شوكتهم . فلما اتته موافقة الخليفة جنّد عشرين الفاً من اهل الكوفة واهل البصرة ، وبذل المال ، واغدق في العطاء ، وأعدّ الخيل والسلاح ، وعيّن عبدالرحمان بن محمد الاشعث قائداً ، وكان يرمي من تعيينه الى قتله والتخلص منه لانه كان يكرهه[٢] ، اعتقاداً منه ان الحملة صائرة حتماً الى الهزيمة ، وهكذا ... يصيب ثلاثة عصافير بحجر واحد : يعبيء العراقيين المتمرّدين في خدمة بني أمية ، ويشغلهم عنه ، ويشتفي حقده بموت عبدالرحمان ... وستجد في تطورات الحادث ما يضع هذا القول موضع اليقين .

١ كان العرب يطلقون اسم رتبيل على كل ملك من ملوك الترك مثل كسرى للفرس وقيصر للروم .

٢ يقول ابن الاثير : « كان الحجاج يبغض ابن الاشعث ويقول لاصحابه : ما رأيته قط الا اردت قتله . »

سار عبد الرحمان بجيشه الى ان بلغ ارض العدو ، فبعث اليه رتبيل يقدم خضوعه ويعده بأداء الجزية فور توقفه عن الزحف ، ولكن القائد المظفر لم يأبه لهذه العروض التي أتت متأخرة ، واوغل في بلاد الترك ينسف الحصون ، ويحتلّ المراكز المنيعة ، ويجتاز المدن والقرى المستسلمة بعد ان يولي عليها عماله ، ويترك فيها حامية عسكرية ، كما اوغل رتبيل في الهرب مخلياً له السبيل . وما ان اتسعت جبهة عبد الرحمان حتى التزم جانب الانتظار ، تاركاً لجيشه فرصة الاستجمام ، ثم كتب الى الحجاج يخبره عن سير العمليات الحربية ، وعن خطته التي قر عليها رأيه في الراحة والانتظار .

وعندما قرأ الحجاج كتابه ثارت ثائرته (لماذا ؟ ألأن قائده انتصر ؟! وماذا يريد اكثر من ذلك ؟ أم انه غضب لوقوف الزحف وهو بعيد عن المعركة ؟) فكتب الى عبد الرحمان الكتاب التالي :

« ... ان كتابك كتاب امرىء يحب الهدنة ، ويستريح الى الموادعة ، قد صانع عدداً قليلاً ذليلاً قد اصابوا من المسلمين جنداً كان بلاؤهم حسناً وغناؤهم عظيماً ، فامض لما امرتك به من الوغول في ارضهم والهدم لحصونهم ، وقتل مقاتليهم ، وسبي ذراريهم ... » ثم عزّز هذه الرسالة بثانية وثالثة يتهدّده بهما ، ويأمره بالتنحي اذا كان قد صمّم على التوقف .

لا ادري كيف يجيز الحجاج الحكم لنفسه في موقف حربي يبعدُ عنه آلاف الفراسخ ... الا ان يكون رامياً الى القضاء على المحاربين وقائدهم ... ثم انظر اليه كيف يهوّن شأن الانتصار الذي

احرزوه ، ويحرّض على الاقدام في معركة لا يعرف مصيرها ، ولا يشهد تطوراتها !

ولم يكن من عبد الرحمان ، إزاء هذا العنف من الحجاج ، الا ان جمع جيشه وخطب فيه قائلاً :

« ايها الناس !

« اني لكم ناصح ، ولصلاحكم محب ، ولكم في كل ما يحيط به نفعكم ناظر ، وقد كان رأبي فيا بيني وبين عدوي بما رضيه ذوو احلامكم وأولو التجربة منكم ، وكتبت بذلك الى اميركم الحجاج ، فأتاني كتابه يعجزني ويضعفني ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في ارض العدو ، وهي البلاد التي هلك فيها اخوانكم بالامس ، وانما انا رجل منكم امضي اذا مضيتم وآبي اذا ابيتم . »

فكان جواب الجيش ان نادى بسقوط الحجاج ، وخلع عبد الملك ، وهتفَ بابن الاشعث اميراً للمؤمنين . واجتمع ذوو التجربة والرأي ، وقرّروا محاربة الحجاج واخراجه من العراق . وتبعهم الامراء وقادة الجند . ومشت العامة في ركابهم تترقب الفرج بعد الشدة .

ومذ بلغ الحجاج الخبر ، ارسل فوراً يستنجد بعبد الملك ، ويستعجله المدد . فما ان وافاه جندُ الشام حتى توجه بنفسه على رأسهم الى البصرة ، وانتقل منها الى « تستر » حيث دارت معركة ُهزم فيها الحجاج ومن معه ، فلحق بهم اصحاب ابن الاشعث وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، واستولوا على اسلحتهم وقسم كبير من عتادهم ، ودخلوا البصرة ظافرين ، فبايع اهلها عبد الرحمن دون ان يعارض منهم احد . وتوالت المعارك بين الشاميين والعراقيين ضارية هائجة عندما اتجه ابن الاشعث نحو الكوفة ،

اذ اخرج الكوفيون عامل الحجاج واستقبلوا الخليفة العراقي استقبالاً رائعاً، واقاموا الاحتفالات والزينات تيمناً بقدومه.

غير ان المعركة، التي حدثت قبل وصول عبد الرحمان الى الكوفة، احدثت في العراقيين فوراناً شديداً اذ تمكن الحجاج من السيطرة على الموقف، في فترة من الفترات، نادى اثناءها بالامان، فأسر احد عشر ألفاً خدعهم بأمانه، ثم قتلهم عن بكرة ابيهم، ويعرف ذاك اليوم بيوم الزاوية.

وتجمهر الناس في الكوفة، واتفقت كلمتهم على حرب الحجاج، وبلغ عددهم نحواً من ٢٠٠٠٠٠ اكثرهم محاربون. وكرّ الشاميون نحو الكوفة. وابتدأت المعركة الفاصلة المعروفة بـ «دير الجماجم»، حيث خندق الطرفان المتحاربان، واشتد القتال وطال دون ثمرة يجنيها احد الفريقين.

ورأى عبدالملك ان يفاوض العراقيين في ان يعزل الحجاج على ان يخلدوا الى طاعته، ويجعل عبدالرحمن والياً مدى الحياة حيث شاء من العراق، فأرسل ولده عبدالله واخاه محمد يفاوضان باسمه، ويعملان على تهدئة العاصفة.

وما ان علم الحجاج بالغاية التي قدما من اجلها حتى جن جنونه، ومادت اعصابه، وخشي ان يجري الصلح على حسابه، وتحقن الدماء بعزله، فكتب الى عبد الملك يقول:

«... والله لو أعطيت اهل العراق نزعي لم يلبثوا الا قليلاً حتى يخالفوك، ويسيروا اليك، ولا يزيدهم ذلك الا جرأة عليك. ألم ترَ ويبلغك وثوبُ اهل العراق مع الاشتر على عثمان بن عفان، سؤاله نزع سعيد بن العاص، فاذا نزعه لم تتم لهم السنةُ حتى

ساروا الى عثمان فقتلوه ، وان الحديد بالحديد يفلح . »

« ثم راح يعمل على إحباط المفاوضات الدائرة في جانب ، ويبذل اقصى ما لديه من قوة لاشتداد الحرب في جانب ، الى ان حقق ما يتوق اليه من الناحية السياسية اذ رفض العراقيون عروض عبدالملك بعد التداول والتشاور ، وفترت حماستهم للحرب ، بينما اشتدت حماسة جند الشام ، ومن هذه الثغرة نفذ الحجاج الى النصر ، فانهزم عبدالرحمن الى البصرة ، وتبعه جبار ثقيف يسد عليه الشعاب والطرق ، فهرب الى سجستان حيث استقبله رُتبيل واحسن وفادته . وتحولت الثورة التي قادها الى مناوشات فردية مضطربة ، ولم تلبث ان خمدت ، بعد ان فر القائد ، واصبح الثائرون في قبضة الحجّاج بين اسرى وجرحى ومتوارين وهاربين ... وكان الطاعون قد انتشر عام ٨٠ للهجرة ، اي في إبان احتدام الثورة الاشعثية ، فلم يقوَ العراقيون على الاستمرار في المقاومة ، وملّوا من الغزوات والغارات المخفقة ، وأمعن الحجّاج فيهم تنكيلاً وتعذيباً بعد التقتيل والسجن . فما اقبل العام ٨٤ هـ . حتى هدأ العراق واستكان للسلطة التي اعياه تبديلها ، وأراح الحجّاج من الحروب ...

٢ — طغيان

لم يطق الحجاج انتصاراته المتلاحقة على الثورات المتكرّرة اذ لم يكن في طاقته احتمال نفسه منتصراً ، فمضى في قسوته واوغل في طغيانه يتجبر غير عابىء بمصير ولا مبال بعاقبة . والظفر يحتاج

الى قوة نفسية تصُدّ الظافر عن الطغيان اضعاف ما يحتاج اليها المندحر المكسور لتصرفه عن الذل والصغار . بيد أن الحجّاج – وهو الذي كان يرقص من غير دفّ – اصبح كتلة من الكره والحقد على كل من هو عراقي ، وقنِطَ من نفسه ان ترأف ، ومن الحياة ان ترأف به ، ومن النـاس ان يرقوا له او ان يحترموه . ولم تكن تلك التجارب القاسية التي مر بها لتزيده الا عتُوّاً على عتُوّ ، واستكباراً على استكبار ، فما افاد منها غير الاصرار على الظلم ، والاغراق في الاذى ، والاسترسال مع الحقـد . واذا بلسانه الذي اقام دنيا العراق واقعدهـا يشتد في الشتيمة ، واذا بسيفه الذي سلّه على الافراد الابرياء وهزّ الجماهير الى الثورة يمتد الى الجماعات ويحصد الالوف عوضـاً عن الآحاد ، واذا بالسجون تمتلىء من النسـاء بنسبة ما تمتلىء من الرجال او اكثر ، واذا بالجوع يطغى ، وبالمرض يساند الجوع ، ويخيّم من هذا وذاك على المجتمع العراقي جوّ من الذل تختنق معه الافكار ، وتذوب فيه الحيوية ، وييأس به الناس من كل قول او عمل .

وكان اول ما فعل بعد انتصاره الساحق على ابن الاشعث ان توجه الى الكوفة ، ودخلها دخول الفاتحين على رأس انصاره من جند الشام ، ويمّم وجهه شطر المسجد ، والقى هذه الخطبـة التي لا تعد خطبته الشهيرة الاولى شيئاً الى جانبها . قال :

« يا اهل العراق !

« انـ الشيطان قد استبطنكم[1] ، فخالط اللحم والدم والعصب

---

[1] جعلكم بطانته .

والمسامع والاطراف والاعضاء والشغاف[١] ، ثم افضى الى الامخاخ والاصماخ[٢] ، ثم ارتفع فعشش ، ثم باض وفرّخ ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً ، واشعركم خلافاً ، اتخذتموه دليلاً تتبعونه ، وقائداً تطيعونه ، ومؤامراً تستشيرونه ، فكيف تنفعكم تجربة او تعظكم وقعة او يحجزكم[٣] إسلام ، او ينفعكم بيان ؟ ألستم اصحابي بالاهواز حيث رمتم المكر ، وسعيتم بالغدر ، واستجمعتم للفكر ، وظننتم ان الله يخذل دينه وخلافته ، وانا ارميكم بطرفي وانتم تتسللون لواذا[٤] ، وتنهزمون سراعاً ؟

« ثم يوم الزاوية ! وما يوم الزاوية ؟! بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم ، وبراءة الله منكم ، ونكوص وليكم عنكم ، اذ وليتم كالابل الشوارد الى اوطانها ، النوازع الى أعطانها[٥] ، لا يسأل المرء عن اخيه ، ولا يلوي الشيخ على بنيه ، حتى عضكم السلاح ، وقصمتكم الرماح .

« ثم يوم دير الجماجم ! وما دير الجماجم ؟ بها كانت المعارك والملاحم ، بضرب يزيل الهام[٦] عن مقيله[٧] ، ويذهل الخليل عن خليله ، فما الذي ارجوه منكم يا اهل العراق ؟ أم ما الذي اتوقعه ؟ ولماذا استبقيكم ؟

١ غلاف القلب .
٢ ثقوب الآذان الداخلية .
٣ يمنعكم .
٤ متراجعين .
٥ مبارك الابل .
٦ الرؤوس .
٧ موضعه .

« ولاي شيء ادخركم ؟ أللكفرات بعد الفجرات ؟ أللغدرات بعد الختوات[١] ؟ أللنزوات بعد النزوات ؟ ان بعثتكم الى ثغوركم غللتم[٢] وخنتم ، وان امنتم ارجفتم ، وان خفتم نافقتم ، لا تذكرون حسنة ، ولا تشكرون نعمة .

« هل استخفكم ناكث ، او استغواكم غاو ، او استنصركم ظالم ، او استعضدكم خالع[٣] الا تبعتموه وآويتموه ؟ هل شغب شاغب ، او نعب ناعب ، او زفر زافر الا كنتم اتباعه وانصاره ؟

« يا اهل العراق ! ألم تنهكم المواعظ ؟ ألم تزجركم الوقائع ؟ »

ثم التفت الى اهل الشام ، وهم حول المنبر ، فقال :

« يا اهل الشام ! انما انا لكم كالظليم[٤] الرامح[٥] عن فراخه ، ينفي عنها المَدَر ، ويباعد عنها الحجر ، ويكنّها من المطر ، ويحميها من الضِّباب[٦] ، ويحرسها من الذئاب . يا اهل الشام ! انتم الجُنّة[٧] والرداء ، وانتم العدة والحذاء ... »

هذا كلام رجل موتور لا يريد من ورائه غير التشفي ، ولا يقصد فيه إلا الى ما تسميه العامة « زوْزَرة » . فانت لا تحس فيه إشراقة المنتصر الذي استعلى به الانتصار عن السفاسف ، ولا

١ جمع ختره وهي واحدة الختر : الغدر .
٢ حقدتم .
٣ الذي يخلع طاعة السلطان . واستعضدكم : سأل مساعدتكم .
٤ ذكر النعام .
٥ المدافع برمحه .
٦ جمع ضب : حيوان كالحرباء .
٧ الجنة : ما يجن به اي يحتمى .

تشعر معه انك امام انسان حقق غاية جهد من اجلها ، فارتاح ضميره الى تحقيقها . وما ذاك الا لان الحجاج كان ، في واقع موقفه السياسي ، ابداً معتدياً ، ابداً متحدياً ، ابداً مستفزاً ، فلم تخالجه ، بعد ان وفق ، نسمة من نسمات الراحة النفسية التي تهب على المجاهدين في سبيل مبدإ حين يظفرون . وكيف يرتاح امرؤ بنيت اعماله على اساس من العدوان ؟

ثم ان الاعتداء يتحول ، اذا وفق ، الى ضرب من الظمأ الحاد المتوتر الذي يزداد حدة وتوتراً كلما اصاب غرضه او نجح في ما اراد ، فلا يرتوي بعد ذلك ، ولا يهدأ ، ولا يستقر الا باخفاق صاحبه او موته . ولذا كان الاعتداء الموفق اشد خطراً على صاحبه من الاعتداء الفاشل ، بل هو اشد على صاحبه منه على ضحاياه !

ذلك هو السر في تلك السلسلة من المظالم التي ظهر بها الحجاج بعد انتصاره على ابن الاشعث ، والتي افاض المؤرخون في سردها وتعدادها ، وذكرها الادباء والشعراء مشدوهين حائرين امامها .

وكان ابن القرّية — وهو من اعلام الادب والبلاغة والفقه — اول ضحية . خرج مع ابن الاشعث ثائراً ، وتسلم ديوان انشائه ورسائله وخطبه ، اي انه شغل منصب مستشار ثقافي . قيل انه لما وقع اسيراً اقبل عليه الحجاج نفسه وضربه بحربة في نحره فأتى عليه ، وقيل ضربه بالسيف فشقه .

وتلاه الشاعر الشهير اعشى همدان ، وكان اول من خلع عبدالملك والحجاج بين يدي ابن الاشعث بسجستان ، فقال له الطاغية : وايه ! انت القائل :

من مبلغ الحجـاج أني   قـد جنيتُ عليه حربا
وصففت في كف امرىءٍ   جلْدٍ اذا ما الامرُ عبّى

. . . .

نبِّئتُ أن بُنيّ يوسف خرّ مـن زلقٍ فتنبّـا ... »
قال الشاعر : « لا ... ولكني الذي يقول :

أبى الله إلا أن يتمّم نوره   ويطفىء نور المفتنين فيخمدا
وينزل ُذلاً بالعراق وأهـله   بما نقضوا العهدَ الوثيق المؤكدا
وما أحدثوا من بدعةٍ وضلالةٍ   من القول لم تصعدْ الى الله مصعدا

فأجابه الحجّاج : « لسنا نحمدُك على هذا القول ، انما قلته تأسفاً على ان لا تكون ظفرت وظهرت ، وتحريضاً لاصحابك ، وليس عن هـذا سألتك . اخبرني عن قولك : « امكن ربي من ثقيـف همدان ... » وعن قولـك في ابن الاشعث : « بخ بخ لوالدهْ وللمولود ! »

ثم امر الحرسي بضرب عنقـه ، وهو ينظر اليه قائلاً : « والله لا تبخبخ لاحد بعدها . »

وما زال يؤتى برجلٍ رجل حتى اتي بعامريّ كان من فرسان الجماجم الذين اثخنوا بجند الشام ، فقال له :

– والله لأقتلنك شرّ قتلة !
– والله ما ذلك لك .
– ولِمَ ؟ ولمِنَ ؟
– لان الله يقول في كتابه العزيز : « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فاما منّاً بعدُ وإما فداء ، حتى تضع الحرب اوزارهـا . » وانت قد قتلت

فأثخنت ، وأسرت فأثخنت ، فاما ان تمنّ علينا او تفدينا عشائرنا .

– أتشهدُ على نفسك بالكفر ؟

– نعم كفرت وغيرت وبدلت .

فالتفت نحو الحرّاس قائلاً :

– خلوا سبيله .

وهكذا عاش نحواً من اثنتي عشرة سنة ، وله في كل يوم حادثة قتل عدا عن الاسر والنفي والحبس . « ... واحصي من قتله صبراً سوى من قُتلَ في عساكره وحروبه ، فوجد مائة وعشرين الفاً . ومات وفي حبسه خمسون الف رجل ، وثلاثون الف امرأة ، منهن ستة عشر الفاً مجرّدة . وكان يحبس النساء والرجال في موضع واحد . ولم يكن للحبس سترٌ يسترُ الناس من الشمس في الصيف ، ولا من المطر والبرد في الشتاء[١] . »

وكان له ولع خاص باستجواب من يقدمُ على تعذيبهم او على قتلهم ، ويفتن في التعذيب والاستجواب افتنان ماهر خبُرَ اساليب الايذاء وطرائق التحدّي . فقد حبس اسماء بن خارجة وضيّق عليه ، ومنع عنه الطعام الصالح ، وأمر ان يُشابَ له الماء الذي يشربه بالرماد والملح . وكان يأتي بالقصب الفارسي فيشقّه ويشدّه على السجين وهو عارٍ ، ثم يسُلّهُ قصبة قصبة حتى يقطع جسده ، ثم يصبّ عليه الخل والملح حتى يموت .

اما استجواباته للضحايا فكانت تتجه نحو إذلالهم وتحقيرهم كأن يشهدوا على انفسهم بالكفر ، او يتملقوه في رأي ، ومنها ما كان

١ مروج الذهب للمسعودي ، ج ٣ ، ص ١٠٥ .

مجرد خلق جو يفيد منه شخصاً في معاملة الآخرين .

جيء برجل من ضغم ، وكان شيخاً هرماً ، قضى ايامه معتزلاً لا يتدخل في شأن من الشؤون العامة ، فسأله عن حاله ، فأخبره باعتزاله ، فقال له :

– انت متربّص ، أتشهد انك كافر ؟

– بئس الرجل انا ! اعبد الله ثمانين سنة ، ثم اشهد على نفسي بالكفر .

– اذاً أقتلك ؟

– وان قتلتني !

فأمر بضرب عنقه . ولم يبق احد من اهل الشام والعراق الا وبكى من اجله .

وجيء بفارسيّ انخرط في الثورة الاشعثية ، وكان كثير الغنى ، وافر الثروة ، فقال له :

– يا أبا عثمان ، ما اخرجك مع هؤلاء ، فوالله ما لحمك من لحومهم ولا دمك من دمائهم .

– فتنةٌ عمّت الناس .

– اكتب لي أموالك !..

– وانا آمنٌ على دمي ؟

– والله لتؤدينّها ، ثم لأقتلنك .

– والله لا يجمع بين دمي ومالي .

ثم اصدر للحرسي امره بضرب عنقه .

وعندما انحاز الغضبان بن القبعثرى الى ابن الاشعث ، وكان

اول المعارضين للحجاج كما رأيت في خطبته ، جهد هذا في القبض عليه ، الى ان تمكن من اسره ، فلما جيء به قال له :

– ألست صاحب الكلمة التي بلغني أنك قلتها : « تغدّوا بالحجاج قبل ان يتعشى بكم » ؟ فوالله لأحبسنك عن الوساد ، ولانزلنّك عن الجياد ، ولأشهرنّك في البلاد .

– الامان أيها الامير ! فوالله ما ضرّت من قيلت فيه ، ولا نفعت من قيلت له .

– ألم اقل لك : كأني بصوتك يجلجل في قصري هذا ؟

وامر الحرّاس فساقوه الى السجن .

وتلك هي اكثر حكاياته عند اكثر المؤرخين ... وبلغ من طغيانه عند انهيار المقاومة في العراق ان خلق جوّاً من الرعب يشوبه الملل ، فكان الناس اذا تلاقوا في المحافل والنوادي والمساجد والاسواق يتحدثون عمن قتل امس ، ويتساءلون عمن يُصلب اليوم ، ويروون موقف فلان الذي جُلد ، وموقف ذاك الذي ذبح ، كأن هذه الحوادث وامثالها اشياء عادية متعارفة يتناقلونها دون ان تثير فيهم النقمة التي كانت تبعثها من قبل ... بل دون ان تهزّهم الى التفكير في الخلاص منها .

ويحكى انه ركب يوماً يريد الجمعة ، فسمع ضجةً اضطرب لها فقال :

– ما هذا ؟

اجابه بعضُ المارّة في الطريق :

– المحبوسون يضجّون ويشكون ما هم فيه من البلاء .

فالتفت نحوهم وقال :

– إخسؤا فيها ولا تكلمون[١] .

على ان هذا الجو الرائن على العراق لم يكن ليروق الحجاج ، فهو الوحيد الذي كان يعرف انه جو مصطنع ، وهو الوحيد الذي كان يحس برمق المقاومة يردّد في انفاس بعض المؤمنين الذين امتد سيفه الى اعناقهم .

من هؤلاء سعيدُ بن جبير الذي كان موضع إعجاب الخاصة ، وتكريم العامة لزهده وتقواه وصلاحه ، قبض عليه بعد انحيازه الى ثورة ابن الاشعث ، ووضعه في السجن اعواماً ، حتى خطر له ان يتحدث اليه مرة فأمر باحضاره ، وقال له :

– ما اخرجك عليّ وانا الذي اشركتك في الولاية ؟

– انما كانت بيعة لابن الاشعث في عنقي .

وهنا دار بينهما حوار طويل كان به سعيد مثـال الجرأة ، انتهى بصدور الامر المعتاد : « يا حرسي ... إضرب عنقه ! »

وجلس مرةً لمحاكمة الاسرى ، فقدّم اليه رجلٌ منهم ، فقال له :

– على دين من انت ؟

– على دين ابراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين .

فأمر ان تضرب عنقه . ثم قدم آخر ، فسأله :

– على دين من انت ؟

– على دين ابيك الشيخ يوسف .

– أما والله لقد كان صوّاماً قوّاماً ! خلّ عنه يا غلام .

فلما خلّى عنه ، تقدّم اليه هذا الاسير وقال :

[١] هذه آية قرآنية قيلت في شأن اهل النار .

– يا حجاج ! سألت صاحبي : على دين من انت ؟ فقال : على دين ابراهيم حنيفاً ... فأمرت به فقتل . وسألتني : على دين من انت ، فقلت : على دين ابيك الشيخ يوسف ، فأمرت بتخلية سبيلي . والله لو لم يكن لابيك من السيئات إلا انه وَلَدَ مثلك لكفاه .

هنا غضب الحجاج وامر به فقتل ...

لم تخمد المقاومة الفكرية اذن ، والحجاج كان على أتم المعرفة بها ، اذ لم يتوانَ الافرادُ عن السخرية منه ، والهزء به ، والتنكيت عليه ، وكان يشعر ان إمعانه في العسف والارهاق لا يقابل بشيء من الاهتمام ، ولذا قضى ايامه دائم العبوس ، شديد التقطيب ، قلق الخاطر ، يحسب لكل حركة حساباً ويجازي على النظرة والاشارة والحركة ...

وكأني به وقد أحسّ الفراغ من حوله ، وانصراف الناس عنه ، وإهمالهم لكل ما من شأنه ان يحرّك شره فيهم ، اذ اخذ العراقيون يهاجرون الى الحجاز – وكان واليها يومئذ عمر بن عبد العزيز – ويضربون في الارض هائمين على وجوههم ، كأني به اراد ان ينسى نفسه ، وينسى من يحيط به ، فاتجه نحو الشؤون العمرانية والادارية ، واستقلّ بنفسه مع خاصتهِ من اهل الشام في مدينة انشأها لنفسه ، وحظّر على احد دخولها ...

٣ – عمران وادارة

عندما ولّي زياد بن ابيه العراقين (البصرة والكوفة) ، بعد وفاة المغيرة بن شعبة ، رأى ان يقيم ستة اشهر في الكوفة ، وستة

في البصرة ، حفظاً للامن ، وقياماً بما يقتضيه حسن الادارة لشؤون الرعيّة ، وضبطاً للموقف السياسي العام في ارض لم يرقها استيلاء معاوية على مقدرات الخلافة .

وكان الحجّاج يتأثر خطى السالفين من ولاة الامويين وعمالهم ، ويسترشد بسيرة زياد خاصة . بيد أن الاوضاع السياسية اختلفت في عهده عما كانت عليه عهد معاوية ، وذاق الامرّين من البصريين والكوفيين على السواء ، وتهددت حياته في البلدين ، واصبح لا يأمن ان يغتالوه بين وقت وآخر ، ولا يطمئن الى احد منهم في القيام على شؤونه الخاصة . فما كاد ينتهي من الفتن والثورات وما جرّت وراءها من حواش وذيول ، حتى فكر في انشاء مدينة جديدة تقع في نقطة جغرافية متوسطة بين البصرة والكوفة ، وباشر العمل في اواخر عام ٨٣ هـ . (٧٠٣ م) فاستغرق انشاؤها ثلاث سنوات سخّرَ بها العراقيين ، وانفق على بناء المسجد والقصر والسور ٤٣٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، وسماها « واسط » اشارة الى توسطها وكان موقعها على جانبي دجلة ، غير ان الجانب الشرقي منها كان قبل الحجاج عامراً ، تقوم فيه بلدة ساسانية يسكنها الموالي من الفرس وغيرهم ، وتدعى كسكر ، واتخذ له فيها قصراً ذا قبة خضراء اطلق عليه اسم « الخضراء » وهو اسم قصر الخليفة معاوية الاول الذي اصبح فيما بعد بلاط الخلافة الاموية .

« وقد اظهرت تنقيبات مديرية الآثار العامة العراقية ، التي استمرت ستة مواسم منذ سنة ١٩٣٦ ، جامع الحجاج وقصره ذا القبة الخضراء التي كانت ترى من فم الصلح ، على سبعة فراسخ من شمالها ، اي ٣٥ كيلومتراً . وعُثِر فوق هذا الجامع على ثلاثة

مساجد جامعة اخرى ، ولم يبق من الاول والقصر غير بقايا الاسس والسواري وأجزاء صغيرة من الجدران ، اذ الظاهر ان من شيدوا الجوامع التي اعقبته استعملوا في بنائها نقض الجامع الذي قبله. وكانت البقايا المكتشفة كافية للاستدلال بها على ابعاد الجامع وعدد بلاطاته وأروقته . فالجامع مربع الشكل ذرعه ١٠٣ × ١٠٣ من الامتار ، وجدرانه ثخينة تناهز المترين ونصف المتر ، مشيدة بجص وآجر أصفر اللون ، محكم التشكيل . وفي مصلى الجامع خمسة اروقة يتألف كل منها من تسع عشرة بـلاطة ، وفي مؤخره رواق من تسع عشرة بلاطة ايضاً ، وفي كل من جانبيه رواق واحد فيه ثلاث عشرة بلاطة . ويلاصق الجامع في جهته القبلية قصر الحجاج الذي اظهرت الحفريات قسمه القريب من الجامع بواسطة انفاق بقيت في النقض الى عمق ثمانية امتار . وكان يقوم عند تقاطع اسس البلاطات مع اسس أروقة المصلّى ، سوارٍ مؤلفةٌ من قطَع الحجارة الرملية . ويلاحظ فيما هو موجود ان قطع السارية الواحدة كانت موضوعةً قطعةً على قطعة تصلُ بينها اصابع الحديد[١] ... »

اقام الحجاج اذن في هذه المدينة المسحورة ، وعُني بسورها عناية فائقة ، بحيث لم يكن يتاح لعراقي دخولها ، ولا يقدر العدو على مهاجمتها ... فكانت ثكنةً شاميّة ، بها تجمع جند الشام ، وقلعة احتمى بها الوالي ، ومركزاً تدار منه بلاد العراق وما يليها .

[١] من محاضرة القاها الاستاذ بشير يوسف فرنسيس في مؤتمر الآثار العربية المنعقد في دمشق صيف ١٩٤٧ عن « المظاهر الفنية في عواصم العراق القديمة » .

ثم انصرف بعد انشائها الى اجراء اصلاحات عمرانية مختلفة ، فعمّر السدود في السواد وهي المنطقة الزراعية الخصبة الواقعة بين الفرات ودجلة ، بغية ريّ الاراضي ، وحفر الترع ومجاري المياه كالزاب ، والنيل الذي دعاه بهذا الاسم تيمناً بنيل مصر . وقامت فيما بعد ، على جانبه ، بليدة تخذت اسمه وازدهرت فيها الزراعة ، وبعض الصناعات الزراعية .

ولم يكتفِ بهذه الاعمال العمرانية التي نشط معها اقتصاد البلاد ، وانما عمد الى بناء السفن ، فكان اول من سيّرَ السفن المدهونة المسمّرة في البحر ، وانشأ المنارات العالية الضخمة بين واسط وقزوين ، ترى نارها ليلاً ، ودخانها نهاراً للمخابرة .

ورأى ان اختلاط العرب بالاعاجم افضى الى بلبلة اللسان العربي فأمَرَ بوضع الاعجام والشكل في المصاحف ، وكانت الحروف من قبله مهملة اي لا تنقيط لها . وقام بهذه العملية رجلان هما : نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر تلميذا ابي الاسود الدؤلي ، فميّز الحروف المتشابهة بترك الاول منها دون نقط ، ووضع عدد من النقاط للثاني اقلها واحدة ، واكثرها ثلاثة .

ثم عُني بقضية العِملة العربية ، اذ كان العرب ايام الجاهلية وصدر الاسلام يتداولون العملتين : الفارسية واليونانية ، وكان عمر قد امر بسكّ العملة الفضية ، وتبعه معاوية . ولما جاء مصعب ابن الزبير الى العراق ، أمرَ بضرب النقود ونقش بعض الآيات القرآنية عليها . ولكن الحجاج انشأ داراً خاصة لضرب العملة جمع فيها الطبّاعين وختم ايديهم ، وحملهم على سكّ نقود باسمه . ويقول المستشرق « بيريه » : ان قطعاً نقدية عرضت في قاعة المداليات ، في

بارِس ، ونقش عليها اسم « الحجاج بن يوسف » ، وعلى الوجه الثاني نقشت الآية : « قل هو الله احد ، الله الصمد . »

وعني الحجاج أيضاً بتنظيم الجهاز الاداري في الدولة الاموية ، وكان أهم الاصلاحات التي ادخلها نقل الدواوين الى العربيّة ، والتوسّع فيها ، اذ كانت من قبله مضطربة مشوشة يستخدم موظفوها اللغة الفارسيّة في العراق وفارس ، والقبطية في مصر ، واليونانية في بلاد الشام . فلما وليَ الحجاج امر صالح بن عبدالرحمان ان ينظم جميع الدواوين : ديوان الجيش (الذي تسجل فيه أسماء الجنود وانسابهم واعطياتهم) ، وديوان الخراج (سجل التحصيلات) ، وديوان الخاتم (سجل اوامر الخليفة ، وكل ما يصدر عن مقامه إلى الوالي) ، وديوان الرسائل (سجلات المراسلات والمخابرات بين الوالي والموظفين) .

ثم راح يشتغل بالفتوحات بعد ان هدأ واستقر ، فولّى قتيبة ابن مسلم خراسان ، ومدّه بالجيوش ، فاحتل القسم الاكبر من بلاد العجم التي لم تكن خاضعة الا اسماً ، وتوغل في ازبكستان واحتلّ بخارى وسمرقند ، وانقلب الى التركستان الصيني فافتتح عاصمته . بيد انه لم يتغلغل في الصين ، وقفل الى بلاد فارس .

وولّى ابن اخته محمد بن القاسم بن محمد الثقفي قيادة جيش عظيم ، ووجهه لاحتلال الهند ، فأخضع بلوخستان والسند ومولتان ، وزحف على البنجاب ، ففتح قسماً منها .

وبقي الحجاج مشتغلاً طيلة ولايته بهذه الزحوف والتجهيزات والامدادات ، متتبعاً حركات الجيوش ، منصرفاً اليها بروحه وعقله وفكره ...

ولكن هذه الاعمال العمرانيـة والادارية لم تكن اكثر من وسائل إلهاء للعراقيين وغيرهم ، فهو لم ينصرف اليها ، في الواقع ، إلا ليصرف الرعية عن التفكير فيه وفي مظالمه ، وليحوّلها عـن البحث في قضية الخلافة ومشاكل السياسة من جهـة ، ثم ليحتفظ بمنزلته في نفس الخليفـة ، وبمنصبه في الدولة الذي ارتفع واتسع وزاد مع الايام بسطةً وارتفاعاً ، من جهة ثانية .

وتلك ظاهرة بارزة في سيرة كل طاغية ، اعني هذا « الالهاء » للناس في تحويل انظارهم عن طغيانه الى العمران ، الى الفتح ، الى ما اشبه ذلك مما تستغرق فيـه الجماعات استغراقاً تاماً ، وينتحل الحاكم لنفسه ، في غفوة استغراقها ذاك، شرفَ العمل ومجدَ الانتصار ... هذي هي سيرة نابوليون يوم ارهق فرنسا ثم دوّخ اوروبا ، وهذي هي سيرة موسوليني يوم طغى على ايطاليا ثم افتتح الحبشة ، وهذي هي سيرة هتلر وغيره وغيره .

اما تعلقه بالحكم ، او شـدة ولعه بالمنصب ، فلا اظن اننـا في حاجة بعد الى اقامة الدليل عليها ، بيد أنهـا ظهرت حين استتبّ الامن وساد الهدوء على اعنف مـا يمكن ان تظهر ، فكانت لولب محرّكاته الادارية كلها ، ومصدر عبقريته في تشتيت الاعداء ، وتقريب الخلصاء ، وانتقاء الاصفياء ، ناهيك بما كانت توحي اليه من افكار ، وتزين له من اعمال .

كان من امر هذه الشهوة للحكم في نفسه ان اوحت اليه فكرة إيلاء الخلافة للوليد بن عبدالملك من بعد ابيه ، لانه كان على يقين من العزل اذا خرج الامر عن يد الوليد ، ففعل عين ما فعله المغيرة ابن شعبة حاكم الكوفة يوم زيّن لمعاوية ان يدعو النـاس الى

مبايعة ابنه يزيد في حياته ، فكتب الى عبدالملك يشجعه على تبنّي الفكرة ، ويشد أزرها في نفسه وقلبه . ولكن عبدالملك كان يخشى انتقاض اخيه عبدالعزيز والي مصر ، ويرى في قرارة حسّه ان اخاه لا يكون مرتاحاً الى هذه الخطوة ، ويحسب انها ربما انتجت الكوارث على نحو ما انتجت خطوة معاوية ، ولكن الحجاج مضى في تشجيعه ولجّ حتى اوشك ان يفسد الصلة بين الخليفة واخيه ، لان عبدالعزيز أبى الموافقة . وكادت العلاقات تتوتر لولا ان عُلّقت المشكلة وأجّل حلّها ، اذ كتب عبدالعزيز الى اخيه : « اني وإياك يا امير المؤمنين قد بلغنا سناً لم يبلغها احد من اهل بيتك الا كان بقاؤه قليلاً ، وإنا لا ندري أينا يأتيه الموت اولاً ، فان رأيت ان لا تفسد عليّ بقية عمري فافعل . »

وتشاء المصادفات ان لا تخيب امل الحجاج ، وان لا تنغص عليه لذته في الحكم ، فقد نُعي عبدالعزيز الى اخيه بعد اشهر قليلة من هذه الازمة . وما ان انتهى امير المؤمنين من تقبّل التعازي حتى امر الناس بمبايعة الوليد ، فبويع دون ادنى معارضة ، على ان تكون ولاية العهد لاخيه سليمان .

اطمأن الحجاج وارتاح باله ... فقد ادرك ما امّل . ولما هلك عبد الملك وتولى الوليد – وذلك عام ٨٦ هـ . – كتب الخليفة الى عامله على العراق يسأله عن اسلوبه في الحكم ومناهج ادارته ، فكتب الحجاج يصف سيرته :

« اني ايقظت رأيي وأنمتُ هواي ، وادنيتُ السيد المطاع في قومه ، ووليّتُ الحربَ الحازمَ في امره ، وقلدتُ الخراج الموفرَ لامانته ، وقسمتُ لكل خصم من نفسي قسماً واعطيته حظاً من

لطيف عتابي ، وصرفت السيف الى المريب المسيء ، والثواب الى المحسن البريء ، فخاف المريب صولة العقاب ، وتمسّك المحسن بحظه من الثواب . »

الواقع ان الحجاج يصف هنا اسلوبه في الادارة كما تمناه ان يكون ، لا كما كان . وهذي ايضاً من ظواهر الحياة النفسية الخاصة التي يحياها الطغاة ولا يحياها غيرهم . فانهم يدركون الحقائق ، ويفهمون دقائق الواقع المسؤولين عنه وعن سيئآته ، ويعرفون كلّ ما يتصل بهم ويتفرع عن سلوكهم ، حتى اذا حملوا على وصف انفسهم ، او استجوبوا عن مواقفهم رأيتهم في الذروة من احكام الرأي وسداد المنطق وبلاغة الحجة ! ولكن اعمالهم لا تشير في كثير ولا قليل الى اعتقادهم بصحة ما يقولون ، ولا الى تطابق بين افكارهم وتصرفاتهم ، ولا الى انسجام بين كلماتهم وما تعنيه . فليس صحيحاً ان الحجاج ايقظ رأيه وانام هواه ، فقد رأيت انصياعه لاهوائه واسترساله مع أحقاده . وليس صحيحاً انه صرفَ السيف الى المريبِ المسيء ، والثواب الى المحسن البريء ، فثورات العراق ، وتململات الحجاز ، واعتزاله رعيته في مدينة خاصة بـه وبحاشيته ، تؤكد كلها انه لم يوفق الى إرضاء احد قط ، وبالتالي انه لم يسلك السلوك الذي وصفه ! الصحيح انه استغلّ اختلاف وجهات النظر بين العراقيين والشاميين والحجازيين في قضية الامامة ، وأفاد من معطيات هذه البيئات الثلاث ادق الافادة في بناء شخصيته ، وتحصيل مركزه ، وتوطيد نفوذه ، فوفق الى احتلال المكانة التي احتلها ، ولم يكن له من هدف يرمي اليه غير الاستمتاع بلذائذ الحكم والتقلب في نعيمه .

تلك هي عبقرية الحجاج ، وهذا هو سر نجاحه في الادارة من ناحية عامة . اما مواهبهُ الشخصية ، فقد كانت في مستوى المنصب الذي بلغه ، واهمها علو كعبه في الادب والخطابة .

٤ — ادب وخطابه

الحجاج اديبٌ من الطراز الاول .

اريد ان اقول انه كان يملك من القدرة على التعبير ، والبراعة في تصريف الكلام ، واليُسر في بيان افكاره وتجليـــة خواطره واغراضه ، ما لا يحرزه امرؤ إلا ان يكون موهوباً من الناحية الادبية . وليس الادب ، في التحليل الاخير ، غير هذه الميزة التي تجعل الانسان يعبر حيث يقف الآخرون عاجزين صامتين ...

ولا غرابة ان يكون الحجاج اديباً ، وهو الذي زاول التعليم ، وخبرَ فنون الكلام ، وعانى كتابة الرسائل ، والصعود ، فيما بعد ، على المنابر .

غير ان الحياة السياسية وما تقتضيه مـــن اتصال بالجماهير ، واحتكاك بالعامة من الناس ، جعلت ادب ذلك العصر خطابياً في الدرجة الاولى ، حتى لتجد على الشعر ، شعر هاتيك الايام ، مسحةً خطابيةً واضحة الاشارات . ولو لم يوفق الحجاج الى تولي المنصب الذي شغله ، اي لو لم يتلهَّ بما تلهّى به من اعمال ادارية ومهامَّ عمرانية وعسكرية ، لنبغَ في دنيا الادب ، وكان له فيها شأن لا يقلّ عن شأنه في عالم السياسة .

واذا انت دققت النظرَ في سيرة الحجاج ادركتَ انه كان

يمارس السياسة بروح اديب ، او بروح ُمعلم يقيم للكلمة وزناً لا يخف عن وزن العمل ، ونجد مصداق ذلك في كل ما انتهى الينا من اخباره .

ولكن الحجاج كان اديباً وثنياً بكل ما في الوثنية من فكر وروح . كان يشخص ابرز ما في الحضارة الوثنية القديمة ، الموغلة في مجاهل التاريخ العربي البعيد : من تقديس للمادة ، وعبادة للسلطة ، وعزوف عن التأمل الغيبي والاستغراق الفلسفي ، الى ولع شديد بمظاهر القوة وزخارف العظمة ، واستكناه دقيق لاسرار السلوك العملي ، وعرامة بيّنة في الاخلاق والمعاملة ، الى تأثر عميق – ولكن آني – بجمال المرأة وأنوثتها ، الى انسياق عفوي مع التيار الفكري العام ، فهو يمثل لنا ، بما ظهرَ من شخصيته ، صفحة الوثنية العربية التي طواها الاسلام ، وكان عنيفاً عليها ، شديداً في محاربتها ...

واغرب ما في الوثنية العربية من ظواهر ، هو ذلك « الشغف » بالبيان الذي لا نجد له مثيلاً عند امة من الامم ، ولا في بيئة من البيئات . وحسبك دليلاً على قيمة البيان في نفس العربي انه لم ينتقل من الوثنية الا حين قرىء عليه القرآن ، فأخُذ بما فيه من روعة البيان وسحر البلاغة ، قبل ان يؤخذ بما يحملَ اليه من تعاليم وافكار . فكان ايمانه استجابة للحس البياني اكثر منه تلبيةً لشعور ديني عبّر له القرآن عنه . فمن اقوال العرب القديمة التي تصوّر عقليتهم افضل تصوير قولهم : « أنفذ من الرميّة كلمة فصيحة . »

وجاء الاسلام فمحا كل ما يمتّ الى الوثنية بنسب ، ولكنه لم يمحُ هذه العقلية البيانية التي لا تتأثر إلا بالكلمة الفصيحة ، بل

فعل عكس ذلك تماماً ، اي زاد العرب تعلقاً بالكلمة ، وبنى على هذا الاساس بناءه الشامخ في حياتهم وكيانهم ومجتمعهم .

ثم جاء الحجاج الوثني بروحه ، الوثني بكيانه الاخلاقي ، الوثني بنظرته الاجمالية للحياة ، فكان بحكم وثنيته هذه علماً من اعلام البيان والفصاحة . وما كانت استشهاداته المتكررة بآيات القرآن عن ايمان ، وانما هي توكيد للجانب الجمالي من وثنيته ، لان استشهاد الولاة بالقرآن في عهده كان « موضة » يتزينون بها ، ووسيلة قوية نافذة للتأثير في نفوس السامعين ، ان لم تكن اقوى الوسائل وانفذها ، وذلك بالاضافة الى ان وثني العرب لم ينكروا على القرآن بلاغته ، ولا رأوا فيه إلا كل ما يدعوهم الى الاعجاب ويحملهم على الاذعان ، فكيف بهم وقد انتحلوا الاسلام وحملوا لواءه وجعلوا من انفسهم اولياء المؤمنين ، وأئمة المهتدين ؟

تأمل ان الوليد بن عبد الملك دعا الحجاج ، في وفدة وفدها عليه بعد استخلافه ، الى تناول شيء من الخمرة . وكان الحجاج يمتنع عن الشراب ، فقال له : « يا اميرَ المؤمنين ! ليس بحرام ما أحللته ، ولكني امنع اهل عملي عن الخمر ، واكره ان اخالف قول العبد الصالح : وما اريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه . »

وتأمّل انه كتب الى عبد الملك مرة يقول له : « ان خليفة الله في ارضه اكرم عليه من رسوله اليهم ... »

لم يكن الحجاج ، اذن ، في قرارة نفسه ، غير وثني . ولكنه وثني مكبوت ، لا يستطيع ان يظهر للناس حقيقته ، ففي حقيقته هلاكه . ومن اعماق هذه الوثنية كان ينضح ادبه ، اذ نشأ في نفسه صراع امتد فيما بعد الى خارج النفس ، فتحوّل صراعاً مع الناس ،

وانقلب على ممر الايام الى قلق داخلي لا يشفيه إلا التعبير ، ولا يخفف من حدته غير الكلام ، ولا يرتاح معه الا للحديث والمطارحة والجدال ، وتلك هي حال الاديب عيناً وتماماً .

وانك لتعجب حتى لا ينتهي تعجبك حين تلحظ ان الحجاج لم يكن مرة « انساناً » الا مع الادباء الذين يخلبون لبه ، او يسترعون انتباهه بنكتة تبدر منهم ، او كلمة بليغة يدافعون بها عن انفسهم ، او فكرة جديدة لم تخطر له على بال .

ويلاحظ كل من يتتبّع مواقفه او يستقرىء نفسيته خلال تصرفاته ان ذهنه مليء بعلامات الاستفهام والاسئلة عن الرجال وطباعهم ، والنساء واحوالهن ، والنعيم وكيف يكون ، والعظمة وكيف يفهمها الآخرون ... اذ كان يستجوب الادباء والفقهاء والبلغاء من الاسرى والمحكومين استجوابات تدل على نوع المشاكل التي يفكر فيها ، وهي مشاكل انسانية عامة اولاها الادباء والشعراء كل جهودهم ، وكانت مدار آثارهم ، ومحور افكارهم . وليس تفكير الحجاج بها ذلك التفكير المتصل الا توكيداً لأصالة النزعة الادبية في نفسه .

وهذه النزعة لا تتأكد في ما كان يعاني من تفكير وحسب ، وانما تجدُها واضحةً في ما انتج من رسائل ودبّج من خطب ، وانتقد من شعر ، ونظم من قصائد ، لانه كان ينظم بعض الاحيان وينتقد الشعراء .

اما اسلوبه فقد كان عنيفاً ، صاخباً ، هدّاراً ، يلجأ فيه الى الكلمات الضخمة ، والصور القوية البارزة ، والعبارات الموجزة ، الجزلة ، الشديدة في وقعها . ولا غرابة في ذلك ، « فالاسلوب هو الرجل .»

وقد يكون فيما ذكرنا من خطبه ورسائله وكلماته الامثلة الكافية على مناهج بيانه وطريقة أدائه. واني لاحسب في هذه الرسالة القصيرة، التي بعث بها الى قوم من الاعراب، وقد بلغه انهم يقطعون الطريق، مثالاً يحملُ صورة مجملة عن ادب الحجاج كله، بما فيه من خصائص فكرية وبيانية. كتب اليهم يقول: «أما بعد، فانكم قد استخفتكم الفتنة، فلا عن حق تقاتلون، ولا عن منكر تنهون، واني اهمّ ان ترد عليكم مني خيلٌ تنسف الطارف والتالد، وتدع النساء ايامى، والابناء يتامى، والديار خراباً...» فلما اتاهم كتابه كفّوا عن قطع الطريق.

هذا ما كان من امر رسائله وتأثيرها في نفوس قطاع الطرق! وذلك هو تأثير خُطَبِهِ في نفوس العامة والخاصة على السواء.

وكان يطارح الادباء والشعراء ويغدق عليهم العطاء، ويرتاح الى مسامراتهم ومجالسهم ويشاركهم في آرائهم الادبية، وتذوقهم للشعر والغناء، حتى ليتساءل المرء، حين يراه في جلسة ادبية، قائلا: «اصحيح إن هذا... هذا الذي يتلقى الشعر بهذه الحماسة والاريحية، هو الحجاج هو... وليس امرأً غيره؟»

ولكن الحجاج لم يكن ليولي الادب والادباء تلك العناية، او ليستغرق في سماع الغناء ذلك الاستغراق، الا ابتعاداً عن نفسه وتهرّباً من حياته الشخصية.

٥ — حياته الشخصية

... والحجاج حيوان سياسي .

تتجلّى حيوانيته لعينيك في اكثر ما رشح الينا من احواله الشخصية ومظاهر سلوكه الخاص ، مما يدعونا الى التفكير في ان سيرته السياسية العامة لم يكن لها من محركات اولية او بواعث اساسية غير الحصول على اكبر كمية ممكنة من وسائل المتع واللذائذ المادية، شأنه في ذلك شأن كل وثني بروحه وعقائده . وإلا ... اي ان لم تفترض هذا الافتراض فسيعسُرُ عليك فهمُ سلوكه ، وستقع في مأزق دقيق حين تحاول تفسير تلك السلسلة من الظواهر الشاذة في كيانه النفسي .

نحن نعلم انه لم يكن ذا مثل اعلى يصبو الى تحقيقه ، ويجهد في الوصول اليه ، اي انه لم ينشد الحكم او السلطة لخدمة مذهب اجتماعي معين ، او فكرة مثالية معينة ، او مبدإ روحي معين على نحو ما فعل اي خارجيّ في عهده . ونعلم انه فتك بالآلاف ، ان لم يكن بعشرات الآلاف ، دون ان يقدّم لنا عذراً يجده هو معقولاً يبرر به فتكه . كل ما يمكن ان يقال في امره انه وضع نفسه ، من تلقاء نفسه ، تحت تصرف عبد الملك ، وتفانى في خدمته وارضائه . ولكن لماذا ؟ وما كانت غايته ؟ ذلك هو السؤال ...

لقد اجاب الحجاج عليه عملياً بما كان من امره بعد ان حكم ، وبعد ان تغلب على اخصامه ، وبعد ان اتسع سلطانه . اجاب عليه بما اختط لنفسه من مناهج طبقها في سياسته العامة وحياته الشخصية ، فاذا هو لا يبغي اكثر من ان يعيش آمراً ناهياً متمتعاً باكبر

قسط من الرغد والراحة ، محاطاً باوفر عدد مـــن اهله واقاربه ، مسترسلاً مع غرائزه وشهواته .

لذلك ... لذلك اعتزل اهل العراق ، وابتنى مدينة خاصة بـه وبحرسه . واقام في قصر كلّف بيت المال ملايين الدنانير ، حشد فيه النواعم الغيدَ من الجواري ، والاطايب من المآكل . وراح يقرّب من شاء من الرعية ، ويبعد من شاء ، ويوظف اقاربه ، ويعلي مـن شأنهم ، ويتملق الخليفة واهله ، فولىّ اخاه اليمن ، وزوّج اخته زينب مـن الحكم بن ايوب وولاّه البصرة ، ثم ولى شرطةَ البصرة مكاري زينب الذي نقلها من الحجاز الى الشام عندما كانت عروساً ، وعيّن قريبه محمد بن القاسم الثقفي قائداً على الجيوش التي وجهها لغزو الهند ، وزوّج ابنة اخيه من يزيد بن عبد الملك . ولم يترك كبيراً او صغيراً من بني ثقيف الا واكرمه واغدق عليه عطاياه .

اما غرامه بالنساء فلم يكن « غراماً » بالمعنى الشائع المعروف . كان يسمع بالمرأة او بالفتاة فيخطبها ويتزوج ، حتى اذا قضى منها لبانته طلقها واستعاض عنها بغيرها ، ولكن بيته لم يخل ، بعد ان اقام في واسط ، من ثلاث نساء على الاقل . وهكذا ... عاش حياتـه يتزوج ويُطلّق . تزوج ابنتي النعمان بن بشير وطلقهما . وتزوج هند بنت المهلّب بن ابي صفرة وطلقها . وتزوج هنـــد بنت اسماء بن خارجة وطلقهـا . وتزوج بنت عبدالله بن اسيد اخت خالد الذي ولي الكوفة في ايام بشر بن مروان وطلقها . وهنـاك امرأة اسمها « الفارية » ، لا يذكر التاريخ من امرها سوى انه تزوجها كعادته وطلقها كعادته .

ولم يكن الحجاج يصدُرُ في زيجاته هـذه عن حبٍّ او تعاطف

او تشهٍّ محض ، وانما كان الجانب السياسي يلعب دوره في كلٍّ منها . واعني بالجانب السياسي، في زواج رجل كالحجاج ، تلك العنعنات بين القبائل والحزازات بين الاسر . فهو لم يخطب زوجة عبدالله بن الزبير بعد ان صلبه إلا من قبيل النكاية والتشفي ، فأخفق . وكان اخفاقه هذا عاملاً كبيراً في حياته مع المرأة ، ونظره الى المرأة . وهو لم يتزوج من هند بنت اسماء بن خارجة الذي سجنه فيما بعد وعذّبه عذاباً نكراً ، إلا انتقاماً من بني فزارة وهم اهل امرأة ابن الزبير التي رفضت يده بكبر وإباء.

وعلى هذا الاساس خطب ابنة عبدالله بن جعفر بن ابي طالب . فقد كان يودّ التباهي بعلو المنزلة التي بلغها ، اذ يقول الناس عنه انه اصبح صهرَ الهاشميين في جانب ، وليُذِلّ الهاشميين حين يكرههم على تزوجه في جانب آخر . ولكن عبدالله بن جعفر استمهل صهره الجديد سنةً في نقل ابنته فأمهله . ثم اتصل بعبد الملك ، عن طريق خالد بن يزيد ، معلناً سخطه وسخط ابنته على هذه النهاية المحزنة التي انتهى اليها بنو هاشم على يد الامويين . فما كان من عبد الملك الا ان امر الحجاج بتطليقها فطلقها .

إزاء هذه الحياة المنزلية المضطربة ، كانت حركاته العامــــة في لمجتمع تخلقُ له الوساوس والاضطراب ، فعاش ايامه عابساً ، قلِق الخاطر ، ضئيلَ الاحساس بالسعادة ، رغم ان وسائلَ الرفاهيـــة توافرت لديه على احسن ما يمكن ان تتوافر لانسان . وقد رزق اربعة اولاد وابنة زوّجها فيما بعد من مروان بن الوليد بن عبدالملك . ولكن ابنه أبان هلك في حياته . اما ابنه عبد العزيز فقد قتله مروان ابن محمد بن مروان في اواخر الدولة الاموية .

بيد ان البلاء الذي كان يعالجه الحجاج ، والذي جعله دائم الهمّ والعبوس ، لم ينشأ عن ظروفه العائلية ، ولا عن النكبات التي نزلت به ، وانما هو « وجدانه » الذي كان يستيقظُ في فترات يعيش بعدها في جحيم مما ينهال على ذهنه وخياله من خواطرَ مقلقة ، وصور مفزعة ، وتهاويل مصبوغة بالدم ، فائرة كالتنور . فكان يطلّق نساءه نتيجة حلم رآه ، ويأمر الناس بحلق لحاهم ، ويعاقب من يخالفه بتسميره في الحائط نتيجة تخوفه من شخص استشعر له هيبةً في نفسه حين رأى لحيته ، ويقدِمُ على اعمال لا يمكن اعتباره معها موزوناً بحال من الاحوال .

وبلغ به التشاؤم في اواخر أيامه درجة كان يهذي معها بالموت ، اذ مرض واشتد عليه المرض . فتنفس اهل الكوفة الصعداء ، وايقنوا ان نهايته دنت . ومنهم من نشر في البلاد خبر موته قبل اوانه حتى بلغ مسامعه . فتحامل على نفسه ، وتجلد ، وخرج الى المسجد ، وخطب : « ... ان اهل الشقاق والنفاق نفخ الشيطان في مناخرهم فقالوا : مات الحجاج ، ومات الحجاج ، والله ما ارجو الخير كله الا بعد الموت ... »

واكبر الظن ان الحجاج مرض لاسرافه في تناول المآكل . فقد حدث عنه الرواة انه كان اكولاً نهماً ، ينفق من الاموال على ولائمه ما لا يكاد يصدق ، اذ كان يصنع في كل يوم الف خوان في رمضان ، وفي سائر الايام خمسمائة خوان ، على كل خوان عشر انفس وعشرة ألوان وسمكة مشوية وأرز بسكر . ولم يكن يسمح لعراقي بمؤاكلته . فاهل الشام دون سواهم كانوا منادميه ومعاشريه . ولأهل الشام ارتياحه ، وفي سبيلهم بذله وإنفاقه .

في اوائل شهر رمضان عام ٩٥ هـ. طلب الحجاج سعيد بن جبير لمقابلته ، فجيء به من السجن ودارت بين الرجلين محاورة ابدى بها سعيد – وكان معروفاً بالتقوى والصلاح – جرأة بالغة وايماناً رائعاً ، فلم يتمالك الحجاج ان يصفح عنه ، وامر بضرب عنقه ...

وفي العشرين من رمضان اشتد المرض على حاكم العراقين ، وطيف سعيد يلاحقه ، وندمه على قتله يقوى ويشتد ، فلا يجلس لمائدة الا ويتمثله امامه ، ولا ينام الا ويراه في حلمه ، ولا يتحدث اليه عواده الا ويتلمس وجوده بينهم ، ولا يسمع صوتاً الا ويحسبه صوت سعيد .

وفي الخامس والعشرين من رمضان تقدم منه طبيبه «تيودوكوس» الذي كان يسهر على صحة كسرى من قبل ، وجس نبضه ، فاذا هو امام جثة هامدة .

وذاعت البشرى ، فتناقلها الناس ساجدين لله في الشوارع متسائلين :

– ما الخبر ؟

– مات الحجاج ...

– شكراً لله !

بعد الحجاج

١ — نقمة وملل

لم تكن سيرة الحجاج لتثير ، في نفوس العامّة والخاصّة على السواء ، غير السخط والتبرم والألم ، على الرغم من كل ما انشأ واصلح وفتح في اواخر عهده .

صحيح انه وفق الى ضبط الامن ، وصحيح انه وحّد اجزاء الامبراطورية العربية آنذاك ، وصحيح انه استطاع ان يخضع الثائرين على السلطة الاموية من كل جنس وبلد ، ولكنه عطّل القيم الروحية في الامة ، واساء الى المجموعة العربية اساءات لا نزال نعاني آثارها ونكابد اوجاعها الى يومنا هذا ...

فهو هو الذي غذّى العصبية الاقليمية في نفوس الشاميين والعراقيين والحجازيين ، وجعلها بركاناً يتفجر بالاذى والضغينة .

وهو الذي مهّد للاجانب سبل الانتقاض على السلطات العربية بما اظهر نحوهم من شراسة ، وعمل على اذلالهم وتنفيرهم .

وهو الذي قبض عليه الاجانب حجة في ايديهم للنيل من صلاح العربي للحكم ، والغض من شأنه في مراس الاستقلال .

وهو الذي بث التخاذل ، وعمم روح الدس بين ابناء البلد الواحد ، والفكرة الواحدة ، والروح الواحدة .

فعل كل ذلك ليخدم عبدالملك اولاً ، وابنه الوليد ثانياً ، وليزيح من طريقها كلّ من تحدثه نفسه بالحكم ، وكل ما يمكن ان يزعزع سلطانها . وهدفه الحقيقيّ الابعد ان يكون هو نفسه ، اي الحجاج ، والياً طيلة حياته .

هذا الاخلاص للخليفة المشوب بالمنفعة الشخصية ، هذه الحماسة لايلاء الوليد امارة المؤمنين بعد ابيه ، هذا الطغيان في القسوة على المخذولين المنكسرين من اخصامه ، هذا الفتك العنيف بالابرياء والعصاة على السواء ، هذا الاقذاع في لسانه ، هذه المحاباة في معاملة اهل الشام ، هذه الحياة الشخصية الحافلة بالتظاهر الزائف والبذخ الارعن والتجبر البغيض والاستهانة بالناس — هذه الاحوال والمظاهر كلها جعلت العامّة في حالة من الملل حملها على ازدراء كل شيء حتى وجودها . فلم يبق للناس مثلٌ اعلى يخدمونه ، ويجهدون في التضحية من اجله ، وارتدّوا الى حيوانية جامدة يتقلبون منها في بلاء تافه ، لا لذة في مناضلته ، ولا مجدَ في الانتصار عليه ، ولا طاقة لاحد بحمله . فكان همّ الرجل ان يؤمّنَ قوته ، او يخلص من وشاية ، او يُحبط سعاية ، او يبعد عن اعين الجواسيس ، او يفرّ من وجه الشرطة ليعيش في امان . وكان همّ المرأة ان لا يشارك زوجها او اخوها او قريبها او حبيبها في الحياة العامة كي لا يضربَ الحرسيّ عنقه ، او كي لا يزج ابد حياته في غياهب السجن .

اما الفقهاء والقرّاء والشعراء ورجالُ العلم والادب فقد تفرّقوا في البلاد بين مهاجر ضرب في الارض لا يرجو غير رحمة ربه ، وخائف اطلق لسانه في مدح الامويين وتملّق ولاتهم ، وثائر محقه

السيف او حجبه السجن ، وناسك انطوى على نفسه في صومعة منعزلة يستجدي الاكف المحسنة رزقه ، وينشد الموت في اقرب مهلة.

تلك كانت حالة السواد الاعظم من ابناء الرعية ... ولكن النقمة في اوساط الخاصة كانت تشتدّ يوماً بعد يوم ، وكثيراً ما اظهر افرادها تململهم وسخطهم في غمغمات خافتة ، وتمتمات غامضة لا تكاد تبين لعمق الهوة التي حفرها الحجاج بين الراعي والرعية .

وكان سليمان بن عبد الملك اول الناقمين على تلك السياسة التي اتبعها جبّارُ ثقيف . وكان اول من تجرّأ على مصارحته ، اذ كتب اليه مرة يقول : « بسم الله الرحمان الرحيم . من سليمان بن عبدالملك الى الحجاج بن يوسف . سلام على اهل الطاعة من عباد الله . اما بعد ، فانك امرؤ مهتوك عنك حجابُ الحق ، مولع بما لك لا عليك ، منصرف عن منافعك ، تارك لحظك ، مستخفّ بحق الله وحق اوليائه ، لا ما سلف اليك من خير يعطفك ، ولا ما عليك ، تصرفه في مهمة من امرك ، لا تسكت عن قبيح ، ولا ترعوي عن إساءة ، ولا ترجو لله وقاراً حتى دعيت فاحشاً سبّاباً . فقس شبرك بفترك[1] . وايم الله لئن امكنني الله منك لأدوسنّك دوسةً تلين منها فرائصك ، ولاجعلنك شريداً في الجبال ، تلوذ باطراف الشمال ، ولاعلقنّ الرومية الحمراء[2] بثدييها . علم الله ذلك مني ، فقدِماً غرتك العافية وانتحيت اعراض الرجال ، فانك قدرتَ

[1] قاس شبره بفتره : مثل يقال لمن يضع نفسه في مقامها ولا يتجاوزه .

[2] يعني بها زينب بنت يوسف اخت الحجاج ، وانما عبر عنها بالرومية الحمراء لانها كانت شقراء بيضاء تشبه بنات الروم . والعرب يصفون بـ « الحمراء » كل امرأة ذات جمال اعجمي .

فبذخت ، وظفرتَ فتعديت . فرويدكَ حتى تنظر كيف يكون مصيرك ، ان كانت بي وبك مدة اتعلق بها ، وان تكُ الاخرى فأرجو ان تؤول الى مذلة ذليلة ، وخزية طويلة ، ويجعل مصيرك في الآخرة شر مصير . »

ويليه في هذه النقمة عمر بن عبد العزيز ، ولكن على صعيد اسمى واشرف ، فما انفكّ يذكّر عبد الملك بمساوىء الحجاج ومظالمه ، ويعمل كل ما في وسعه للتخفيف من وطأته .

ولما ولي الوليد بن عبد الملك استعمل عمر على المدينة ، فكان يؤوي المهاجرين العراقيين الهاربين من الظلم ، ويزجي رسائله الى الخليفة في دمشق يخبره بطغيان الحجاج وجوره . ولكن الحجاج سعى الى إبعاده ، وبذل جهده في تنحيته ، فنحّاه الوليد . ومذ بلغه امر عزله قال : « لو جاءت امة بمنافقيها ، وجئنا بالحجاج وحده لفضَلْناهم ! »

ويحكى عنه انه ذكر لديه الموقف السياسيّ العام بعد عزله ، فصرخ من اعماق قلبه : « الحجاجُ بالعراق ، والوليد بالشام ، وعثمان بالمدينة ، وقرة بمصر ، وخالد بمكة ! اللهم قد امتلأت الدنيا ظلماً وجوراً ، فأرح الناس ! »

ولم تكن تلك النقمة مقتصرة على الرجال دون النساء ، او على الطبقة الحاكمة دون الحكومة ، وانما كانت شاملة عارمة . تأمل هذه الحكاية :

قدُم الحجاج على الوليد بن عبد الملك ، فدخل وعليه درعٌ وعمامة سوداء وقوسٌ عربية وكنانة[1]، فبعثت اليه (الى الوليد)

[1] جعبة سهام .

أم البنين بنت عمر بن عبد العزيز ، فقالت :

– من هذا الاعرابي المستلئم[١] في السلاح عندك ، وانتَ في غلالة[٢] .

فأخبر الرسول : « انه الحجاج » ، ثم نقل للحجاج ما قالته ام البنين ، فقال هذا :

– دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول . ولا تطلعها على سرّك ومكايدة عدوّك . فانما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة[٣] .

فلما دخل الوليد اخبرها بمقالة الحجاج ، فقالت :

– يا امير المؤمنين ! حاجتي اليك ان تأمره غداً بان يأتيني مستلئماً .

وجاء الحجاج في اليوم التالي فحجبته ، ثم ادخلته ولم تأذن له بالقعود ، فلم يزل قائماً ، ثم قالت له :

– إيه يا حجاج ! انت الممتنّ على امير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الاشعث ؟ اما والله لولا ان الله علم انك شرّ خلقه ما ابتلاك برمي الكعبة الحرام ، ولا بقتل ابن ذات النطاقين[٤] اول مولود في الاسلام . واما نهيك امير المؤمنين عن مفاكهة النساء وبلوغ اوطاره منهن ، فان كنّ يلدن مثلك فما احقه

١ استلأم : لبس اللامة وهي الدرع وحواشيها من عدة الحرب : رمح وبيضة (خوذة) ومغفر وسيف ونبل .

٢ شعار تحت الثوب .

٣ القهرمان : الخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده .

٤ ذات النطاقين : اسماء بنت ابي بكر ، ام عبد الله بن الزبير ، وقد اطلق النبي عليها هذا اللقب .

بالقبول منك ! وان كن يلدن مثله فهو غير قابل لقولك ! امـا والله لقد نفض نساء امير المؤمنين الطيب من غدائرهن ، والحليّ من ايديهن وارجلهن فبعنه في اعطية اهل الشام حين كنت في اضيق من القـَرَن[١] ، وقد أظلّتك رماحهم واثخنك كفاحهم ، وحين كان امير المؤمنين احبّ اليهم من آبائهم ، فانجاك الله مـن عدو امير المؤمنين بحبهم إياه . قاتل الله القائل حين نظر اليك وسنان غزالة[٢] بين كتفيك :

أسدٌ عليّ ، وفي الحروب نعامةٌ فتخاء تنفر مـن صفير الصافر[٣]
هلاّ كررت على غزالةَ في الوغى بل كان قلبُك في جناحي طـائر

ودخل على الوليد ، بعد تركته ، فسأله :

– ما كنتَ فيه يا حجاج ؟

– يا امير المؤمنين ! ما سكنت حتى ظننتُ نفسي قد ذهبت ، وحتى كان بطن الارض احبّ اليّ من ظهرها !

وروى احد الاسرى الحديث التالي : « كنت في حبس الحجاج ، فحُبس معنا رجل ، فأقام حيناً لا يتكلم بكلمة حتى كان في اليوم الذي ماتِ الحجاج في الليلة التي تليه . اقبل غراب في عشية ذلك اليوم ، فوقع على حائط السجن فنعق . فقال الرجل :

« – ومن يقدر ما تقدر عليه يا غراب ؟

« ثم نعق الثانية فقال :

---

١ القرَن : الجعبة من الجلود تكون مشقوقة، ثم تخرز .

٢ غزالة : هي امرأة شبيب بن يزيد الشيباني وقد ابلت بلاء رائعاً في الحرب الى جانب زوجها .

٣ الفتخاء : الناقة ارتفعت اخلافها قبل بطنها ، وهو مذموم .

« ـ مثلك مَن بشّر بخير يا غراب !

« ثم نعق الثالثة ، فقال :

« ـ من فيك الى السماء يا غراب !

« فقلت له : ما سمعناك تكلمت مذ حُبستَ الى الساعة ، فما دعاك الى ما قلتَ ؟

« ـ نعق الغراب في الاولى فقال : اني وقعت على ستر الحجاج فأجبته : ومَن يقدر على ما تقدر عليه .

« وقال في النعقة الثانية : ان الحجاج اصابه وجع ، فأجبته : مثلك مَن بشّر بخير . وقال في الثالثة : الليلة يموت . فكان جوابي : مِن فيك الى السماء .

« ثم تابع السجين الصامت حديثه :

« ـ إن انسلخ الصبح قبل ان اخرج فليس عليّ بأس . وإن دعيت قبل الصبح فستضرب عنقي ، ثم تلبثون ثلاثاً لا يدخل عليكم ، ثم تدعون في اليوم الرابع ، فيهتف على رؤوسكم بالكفالة ، فمن وجد له كفيلاً خلّى سبيله ، ومن لم يجد له كفيلاً فويلٌ له طويلا .

« وكان كما قال ... »

وجرت للحجاج مع عُمارَة بن تميم اللخمي ، الذي جاهد احسن الجهاد في ثورة ابن الاشعث ، قصة تدل على النقمة التي باء بها لدى الاشخاص الذين اعانوه ونصروه ، بله الذين حاربوه .

عزم الحجاج على المضي الى عبد الملك فاخرج عمارة معه ، فلم يزل يلطف بالحجاج في مسيره ويعظمه حتى قدموا على الخليفة . فلما قام الخطباء بين يديه ، وأثنوا على الحجاج ، قام عمارة فقال :

ـ يا امير المؤمنين ! سل الحجاج عن طاعتي ومناصحتي وبلائي !

فقال الحجاج :

– يا امير المؤمنين ! صنع كذا ، وصنع كذا ... ومن بأسه كذا ... ومن نجدته كذا ... هو عين الناس نقيبة ، واعلمهم بتدبير وسياسة .

فقال عمارة :

– أرضيت يا امير المؤمنين ؟

– نعم ! رضي الله عنك .

وكرر عمارة سؤاله ثلاث مرات ، وكرر امير المؤمنين جوابه مثلها ، فقال عمارة :

– لا رضي الله عن الحجاج يا امير المؤمنين ! ولا حفظه ولا عافاه ! فهو – والله – السيء التدبير الذي قد افسد عليك اهل العراق ، وألّب عليك الناس ، وما أتيت إلا من قلة عقله ، وضعف رأيه ، وقلة بصره بالسياسة ، ولك والله امثالها إن لم تعزله .

فقال له الحجاج ، وقد اصفر وجهه ، وجف ريقه في فمه :

– مَه يا عمارة !

– لا مه ولا كرامه ...

ونزل عن المنبر ، ولم يذهب الى العراق الا بعد وفاة الحجاج.

وشبيه بهذه النقمة التي تجلت في سلوك الاعوان وابناء البيت المالك والاقارب والاصدقاء ، شبيه بها خروج اولاد المهلب بن ابي صفرة عليه ، والمهلب هو الذي انقذه من الخوارج ودحرهم ببراعته وسهره واجتهاده ، وانتقاض اكثر العمال والولاة والقادة والجنود والفقهاء .

ولم تطل ايام الوليد بعد هلاك الحجاج اكثر من اشهر ، فتسنم العرش سليمان بن عبد الملك ، وراح يأمر الناس بشتم الحجاج علناً ، ويذيع فيهم مثالبه ، ويحملهم على نشرها والتبرؤ منه ومنها. وما كان سليمان ليسلك هذا المسلك استجابة لحقد شخصي حمله في نفسه على الحجاج فحسب ، وإنما كان يتقرب الى رعيته بالتعرض له والتشهير به ، حتى بلغ في ذلك درجة كانت تضحك الناس ، وتبلبل الولاة . فقد صعد خالد بن عبدالله القسري المنبر في يوم جمعة ، وهو اذ ذاك على مكة ، فذكر الحجاج وحمد طاعتـه ، واثنى عليه .

فلما كان في الجمعة الثانية ورد عليه كتاب سليمان بن عبدالملك يأمره فيه بشتم الحجاج ، ونشر عيوبه ، واظهار البراءة منه . فصعد المنبر، فحمد الله واثنى عليه ، ثم قال : « إن ابليس كان ملكاً من الملائكة وكان يظهر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترى له به فضلا ، وكان الله قد علم من غشه وخبثه ما خفي على ملائكته ، فلما اراد الله فضيحته امره بالسجود لآدم ، فظهر لهم ما كان يخفيه عنهم ، فلعنوه . وان الحجاج كان يظهر من طاعة امير المؤمنين ما كنا نرى له به فضلا . وكان الله اطلع امير المؤمنين من غشه وخبثه على ما خفي عنا . فلما اراد الله فضيحته ، اجرى ذلك على يدي امير المؤمنين فلعنه . فالعنوه ! لعنه الله ! » ثم نزل .

وعندما قدمت وفود العراق على سليمان بن عبد الملك لتهنئتـــه بالخلافة امرهم بشتم الحجاج ، فاخذوا يتبارون في شتمه . ووقف احدهم فقال : « ان عدو الله كان عبداً زَبّابا [1] ، قِنَوّرَ بن قِنَوّر [2] ،

[1] الزباب : بائع الزبيب .   [2] القنور : الشرس الصعب .

لا نسب له في العرب . » وقام ابن ابي موسى الاشعري ، فقال : « كان عدو الله يتزين تزين المومسة ، ويصعد المنبر ويتكلم بكلام الاخيار ، فاذا نزل عمِلَ عمَلَ الفراعنة ، وكان اكذب في حديثه من الدجّال . »

ثم لم يكتف بشتمه والتشهير بعيوبه ، وإنما اوغل بعد ذلك في الاقتصاص من اصفيائه ومريديه ، وامعن في التنكيل بهم ، اذ امر بيزيد بن مسلم ، مولى الحجاج ، فجيء به مقيداً . وكان دميماً ، ضئيل الهيكل ، زريّ المظهر ، فلما رآه سليمان قال له :

– لعن الله امرأ اجرّك رسنك[١] ، وولّى مثلك .

– يا امير المؤمنين ! انك رأيتني والامر عني مدبر ، ولو رأيتني والامر عليّ مقبل لاستعظمت من امري ما استصغرت ، ولاستجللتَ ما استحقرت .

– اين ترى صاحبك الحجاج ؟ أيهوي في النار أم استقرّ في قعرها ؟

– يا امير المؤمنين ! لا تقل هذا ! ان الحجاج قمعَ لكمُ الاعداء ، ووطّأ لكم المنابر ، وزرَعَ لكم الهيبة في قلوب الناس ... وبعد ، فانه يأتي يوم القيامة عن يمين ابيك عبد الملك وشمال اخيك الوليد ، فضعه من النار حيث شئت .

فصاح به سليمان :

– أخرج الى لعنة الله !

ثم التفت الى جلسائه :

١ اجره رسنه : تركه يصنع ما يشاء .

- فبّحهُ الله ما كان احسن ترتيبهُ لنفسه ولصاحبه .

ولكن نقمة سليمان بن عبد الملك على الحجاج تأثرت خطى الحجاج نفسه في نقماته ، فراح يسفك دماء الابرياء من انصار عدوه ، ويأتي من المنكرات والفظائع ما لا يختلف في شيء ابداً عن فظائع ذاك الذي يحمل عليه ويندد بسلوكه ، فقتل مسلم بن قتيبة فاتح الصين ، وقتل محمد بن القاسم فاتح الهند ، وتعقّبَ خطى الثائرين عليه بوحشية وضراوة ، فكان سليمان اول تلميذ اخرجته مدرسة الحجاج في الطغيان ، وان عاداه وثار في وجهه .

وسرّ هذه العداوة يكمن في موقف الحجاج من ولاية العهد في زمن الوليد ، اذ اخذ جبار ثقيف يعمل ايام الوليد على جعل ولاية العهد لعبد العزيز بن الوليد ، محاولاً بذلك إقصاء سليمان عن الخلافة ، على نحو ما فعل ايام عبد الملك وأغراه بتنصيب ابنه الوليد[1] وخلق تلك الازمة في قلب البيت المالك .

واذا كانت نقمة سليمان على الحجاج مشوبة بحقد شخصيّ عميق ، واذا كانت قد انتجت من الجراحات والمآسي ما لا يقل عن مآسي الحجاج نفسه ، فان نقمة عمر بن عبد العزيز الذي أستخلف بعد سليمان ، خالصة من كل شائبة ، وليس الباعث عليها او المحرّك الاساسي في انبثاقها غيرَ صلاح ابن عبد العزيز وفساد ابن يوسف .

يحدثنا ابن عبد الحكم[2] ان عمر دخل على الوليد فقال له :

- ان عندي نصيحة ، فاذا خلا لك عقلك ، واجتمع فهمك

١ . انظر فصل « ادارة وعمران » ، ص ١٨٥ .

٢ . سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ١٣٩ .

فسلني عنها .

– ما يمنعك الآن ؟

– انت اعلم اذا اجتمع لك ما اقول ، فانك احقّ ان تفهم .

فمكث اياماً ، ثم نادى الحاجب :

– يا غلام ! من بالباب ؟

– ناسٌ وفيهم عمر بن عبد العزيز .

– ادخله وحده .

فدخل عليه ، فبادره الوليد :

– نصيحتك يا ابا حفص !

– انه ليس بعد الشرك إثمٌ اعظم عند الله من الدم . وان عمّالك يقتلون ويكتبون لك : « ان ذنب المقتول كذا وكذا ... » وانت المسؤول عنه ، والمأخوذ به ، فاكتب اليهم : « لا يقتلْ احد منهم احداً حتى يكتب اليك بذنبه ، ثم يُشهد عليه . » وبعد ذا تأمر بأمرك على امر قد وضح لك .

– بارك الله فيك يا ابا حفص .

وكتب الوليد الى الامصار ، فلم يحرج[1] من ذلك الا الحجاج ، فانه أمضّه[2] وشقّ عليه وأقض مضجعه وظنّ انه لم يكتب الى احد غيره ، وراح يتساءل ويسأل : من اين دُهينا ؟ ومن اشار على امير المؤمنين بهذا ؟ فأخبر ان عمر بن عبد العزيز هو الذي فعل ذلك !

وكان من عمر حين افضى اليه الحكم ان راح يعمل على

١ حرج : ضاق .

٢ امضه : آلمه واوجعه .

تضميد الجراح ، وتهدئة الخواطر ، وتسكين الاوجاع ، فعمد الى انصاف المظلومين ، والاقتصاد بالاموال ، وتطبيق الشريعة تطبيقاً دقيقاً في كل شاردة وواردة ، فحبس العطاء عن الامويين ، واطلق المساجين ، ومنع الناس من سب الامام علي في الجوامع ، وركن الى حياة النزاهة والزهد والعدالة ، ومنع تجهيز الجيوش لفتح البلدان ، وامر بايقافها عند حد ، لان الناس فقدوا الغاية الاصيلة من الجهاد ، وهي اداء رسالة روحية ، واصبح القواد والولاة والعمال يمارسون الحرب بروح هي الى الجشع وحب الترف اقرب ، مما يتنافى مع الشرع الصحيح ، ثم اخذ يجادل الخوارج ، ويتعقبهم بجند من الفقهاء والعلماء ، عاملا ما امكنه على تجنب الصراع المسلّح معهم ، فهدأت الحال بعض الهدوء ، واطمأن الناس الى مصيرهم ، ووجدوا في الخليفة امثلَ قدوة ، وخير عزاء .

ولكن الخرق اتسع على الراقع ، فلم يكن باستطاعة الخليفة - وهو فرد - ان يدفع الشرور ، او ينفي الاخطار المحدقة بالامة من الداخل والخارج . ثم ان المدرسة الحجاجية اخرجت اكثر العمال والولاة ، فلن يكون من ابن عبد العزيز ، مهما بلغت سطوته وعظمت مهابته ، ان يربيَ النفوس تربيةً جديدةً تحملها على النزوع للعدل ، ومحاربة الظلم .

كانت الامة تسير في منحدر لا يمكن تدارك انزلاقها فيه بحال من الاحوال ، لان الوثنية حققت في عشرين سنة من ولاية الحجاج انتصاراً ساحقاً ماحقاً لا ينفع معه زهدُ ملك ، ولا بطش سفّاك .

والناس ملّوا ، فلا يريدون اكثر من ان يعيشوا ، وان كلفهم العيش كرامتهم وحريتهم ودينهم وما فيه من مُثل .

٢ — في المنحدر

اليك حكاية قاضي الحجاز في عهد عمر بن عبد العزيز :

كان رجلٌ من أهل العراق أتى المدينة في طلب جارية . ومذ وصل سأل عنها فوجدها عند قاضي المدينة .

وذهب يزور القاضي . فما ان قرّ به المقام حتى سأله ان يعرض الجارية عليه ، فأجابه :

— يا عبدالله ، لقد ابعدتَ الشقة في طلب هذه الجارية ، فما رغبتك فيها ؟

— إنها تغني فتجيد .

— ما علمت بهذا قط !

فالحّ العراقي في عرضها ، وأصرّ ان يراها . فجاءت ، فقال لها الفتى ، على مرأى ومسمع من مولاها القاضي :

— هاتِ !

فاندفعت تغني :

إلى خالدٍ ، حتى انخن بخالدٍ فنِعمَ الفتى يُرجى ، ونعمَ المؤمّل

ففرح القاضي بجاريته وسُرّ بغنائها ، وغشيه من الطرب أمرٌ عظيم حتى أقعدها على فخذه ، وقال : «هاتِ صوتاً غيره ، بأبي انت!» فغنّت :

أروح الى القصّاص كل عشيّة أرجي ثواب الله في عدد الخطى

فزاد الطرب على القاضي ، ولم يدرِ ما يصنع ، فأخذ نعله فعلّقها في اذنه ، وجثا على ركبتيه ، وجعل يأخذ بطرف أذنه ، والنعل معلقة فيها ويقول : «اهدوني الى البيت الحرام .» واستمرّ

على هذه الحـــال ، في شبه غيبوبة من نشوته ، حتى ادمى أذنه . فلما أمسكت عن الغناء أقبل على العراقي فقال له :

– يا حبيبي ! إنصرف ! قد كنا فيها راغبين قبل ان نعلم انها تغني ، فنحن الان فيها ارغب .

ومذ عرف عمر بخبره عزَلَهُ . ولكنه ما أسرع ما اعاده الى عمله ، بعد ان سمع غناء الجارية الفاتنة .

تلك صورة واضحة من صور الحياة الاجتماعية في آخر القرن الاول للهجرة . ففيها مثلٌ تطرد على قياسه الامثلة للاجواء التي خلّفها الحجاج ، وساق اليها حتى القضاة والفقهـــاء والصالحين ... أياً كان شأنهم ، وأية كانت منزلتهم .

ولكن الانحلال اخذ يظهر بعد عمر بن عبد العزيز بشكل سافر يدق عن الوصف ، اذ ولي من بعده يزيد بن عبد الملك ، فصرف همه ، كلّ همه ، في الجواري والشراب .

تعلق اول مـــا تعلق بسلاّمة القس حتى ملكت عليه لبّه واستأثرت بأوقاته ، فلم يعر الدولة ادنى اهتمام ، ولا فكّر معها بنظام ولا امن ولا شريعة ولا جيش .

ولم يرق هذا الغرام بسلامة احدى نساء القصر – وهي جدة الخليفة – فاحتالت بشراء جارية تدعى « حبابة » كان يزيد قد اعتلقهـــا فيما مضى من ايامه . فأولع بحبّـابة على نحو ما اولع قدماً بسلاّمة ، وبالغ في اكرامها ومحبتها واقتناء النفائس من اجلها ، حتى سخّر بيت المال وكلّ ما في الدولة لرضاها والحظوة لديها .

ولما طفح الكيل جاءه اخوه مسلمة وقال له : « انما مات عمر امس ، وكان من عدله مـا قـد علمت ، فينبغي ان تظهر للنـاس

العدل ، وترفض هذا اللهو ، فقد اقتدى بك عمالك في سائر افعالك وسيرتك ... » فهــدأ مدة اظهر خلالها الندم وعمل على اداء وظيفته كخليفة .

إلا ان هذا الصلاح لم يرض حبابة ، فبعثت في طلب الاحوص الشاعر ومعبد المغنّي ، وشكت لهما البلاء الذي تعــانيه في سيرة الخليفة الجديد ، وقالت لهما :

– انظرا ما انتما صانعان !

فما كان من الاحوص الا ان نظم الابيات التالية :

ألا لا تلمْهُ اليوم انْ يتبلّدا   فقد غلب المحزونُ ان يتجلدا
اذا كنت لم تعشق ولم تدرِ ما الهوى   فكن حجراً من يابس الصلد جلمدا
فما العيش إلا ما تلذ وتشتهي   وإن لام فيه ذو الشنان وفنّدا

ثم غناها معبد ، وأخذتها حبّابة ، فلما دخل يزيد قالت :

– اسمع مني صوتاً واحداً ، ثم افعل ما بدا لك ، يا امير المؤمنين !

– هاتي .

– ألا لا تلمه ...

فلما فرغت من غنائها جعل يردد قولها :

فما العيش الا ما تلذ وتشتهي
وان لام فيه ذو الشنان وفنّدا

وعاد بعد ذلك الى لهوه وقصفه ، واهمل شؤون البلاد والعباد ... حتى اذا اعتلّتْ حبّابة علة الموت اقام يزيد اياماً لا يظهر للناس . فلمـا ماتت اقام اياماً لا يدفنها جزعاً عليها ، حتى انتنت وملأت رائحتها القصر وغطّت على العطور ، فقيل له :

– ان الناس يتحدثون عن جزعك ، وان الخلافة تجلّ عن ذلك .

عندئذ امر بدفنها ، ووقف على قبرها وقال :

فان تسلُ عنكِ النفس او تدعِ الهوى
فباليـــأس تسلو النفسُ لا بالتجلّدِ

وعاش بعدها اياماً قليلة ومات ... ويحكى عنه انه جلس ذات يوم وغنته حبابة وسلاّمة معاً ، فطرِب طرباً شديداً ، وقال لمن حوله : « اريد ان اطير ! » فقالت له حبّابة : « يا مولايَ ! فعلى من تدع الامة وتدعنا ؟ »

وكان من الطبيعي ان تضطرب البلاد في عهد هذا الخليفـــة المتيّم ، فثار آل المهلّب ، وتحرّك الخوارج ، وعمّ الفسق ، وانتشرت اللصوصية ، وبلغ الاجرام ذروة عنفه .

واذا كان يزيد بن عبد الملك قد اولع بالنساء ، فان اخاه هشام الذي ولي الامر بعده اولع بالخيل حتى اجتمع له في الحلبة مـن خيله وخيل غيره اربعة آلاف فرس . فكان لا يهمه من الدنيـا غير الجياد ، ولا يفكر الا بالجياد وما اليها مـن ادوات السلاح والبسة الزينة . فعمّ الناس ضربٌ مـــن التظاهر الزائف والبذخ المصطنع ، واستحكمت ازمة اقتصادية في عهده أتت عـلى الاخضر واليابس .

وجرت بين هشام وزيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب معركة انتهت بقتل زيد . وكان يقود الجيش الاموي في هذه المرة ايضاً رجلٌ من ثقيف اسمه يوسف بن عمر الثقفي . والى زيد هذا يرجع الزيديون اليوم أئمة اليمن .

لم يكتف يوسف الثقفي بمحاربة زيد والقضاء عليه ، وانما نبش

قبره واستخرج جثمانه وفصل الرأس عن الجسد وبعث به الى هشام . فكتب اليه هشام يأمره ان يصلبه عرياناً . فصلبه وبنى تحت خشبته عموداً . ثم كتب هشام ثانية يأمره باحراقه وذرو رماده في الرياح .

وكان هشامُ ، بالاضافة الى هذه القسوة الحجاجية ، بخيلا مقتّراً على الرعية ، شرهاً في جباية الاموال ، حريصاً على اختزانها ، ولكنه كان مع ذلك ذا رأي وفطنة في ادارة البلاد جعله يوطد ملكه رغم الزعازع التي هبّت عليه .

بيد ان العاصفة اخذت تهبّ ، ولاحت نُذُرُها في الافق ، ايام الوليد بن يزيد الذي جاء بعد هشام ، اذ دبّ الانقسام في الاسرة المالكة ، ونشأت العصبية بين النزارية واليمانيـة ، وضُعف العنصر العربي ، وقويت شوكة اهل خراسان ، بعد ان نزح اليها اكثر المعارضين .

اما سيرة الوليد هذا ، فلم تكن غير نسخة طبق الاصل عـن سيرة ابيه يزيد بن عبد الملك ، ولكن على شكل اضخم وأفخم وآلم . ففي عهده خرج يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي ابن ابي طالب ، فسيّر اليه نصرُ بن سيّار[1] سلم بن احوز « فقتل يحيى في المعركة بسهم اصابه في صدغه ، فولّى اصحابه عنه يومئذ ، واحتز رأسه فحُمل الى الوليد . وصلب جسده بالجوزجان ، فلم يزل مصلوباً الى ان خرج ابو مسلم الخراساني صاحب الدولة العباسية ، فقتل ابو مسلم سلمَ بن أحوز وانزل جثة يحيى فصلى عليها ودفنت هناك.

تلك هي ابرز الحوادث السياسية التي اتبعت فيها خطى الحجاج.

١ نصر بن سيار : قائد مشهور من قواد ذلك العهد .

غير ان مجون الوليد، وحبّه للهو والغناء ، وتعلقه بالشراب والجواري ، وولعه بالخيل اشياء سبق بها الاولين والآخرين . جمع هذه الاشياء الى ابهة الملك وترف النعمة ، ولكن الى روح شعرية تجعله من ألمع شعراء العرب ، ذا شاعرية من الدرجة الاولى .

جاءه البشير بوفاة هشام ، وسلّم عليه بالخلافة ، فقال :

اني سمعت خليلي نحو الرصافة رنّه
اقبلت اسحب ذيلي اقول ما حالهنّه
اذا بنات هشام يندبن والدهنّه
يدعون ويلاً وعولاً والويل حلّ بهنّه
انا المخنّث حقاً إن لم ... ...

بعد ليلتين من تسنمه العرش ارق فجعل يشرب ويقول :

طال ليلي وبت اسقى السلافه واتاني نعيّ من بالرصافه
واتاني ببردة[1] وقضيبٍ[2] واتاني بخاتم للخلافه

وحدث له مرة ان فتح المصحف فوقعت عينه على الآية الكريمة : « واستفتحوا وخاب كل جبّار عنيد . من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد » ، فنصب القرآن غرضاً للنشاب واقبل يرميه وهو يقول :

أتوعد كلّ جبار عنيد فها انا ذاك جبّارٌ عنيد
اذا ما جئت ربك يوم حشر فقلْ : يا رب خرّقني الوليد

وذكر له غير مؤرخ البيتين التاليين في ذكر النبي محمد ، ينكر عليه الوحي :

١ بردة النبي كان يلبسها الخلفاء .
٢ يريد قضيب النبي الذي كان يحمله الخلفاء .

تلعّب بالخلافة هـــاشمي　　بلا وحي اتاه ولا كتاب
فقل لله : يمنعني طعـامي　　وقل لله : يمنعني شرابي

وكان في اسطبله الف قارح من الخيل ، عني بها عناية جعلتها تسبق سائر الخيول . وكان ينظم الشعر في مدح افراسه السابقة ، ويقدم لها الخمر لتشربها على مرأى من المغنين والندامى زيادة في إعظامها وتكريماً لها .

كانت ام هذا الخليفة الغريب الاطوار بنت محمد بن يوسف الثقفي اخ الحجاج ، وكان نديمه ونسيبه طريح الشاعر بن اسماعيل الثقفي . فهو ابرز وجه وثني من ابناء الدولة الاموية .

رأى الامويون ان سيرة الوليد هذا تتنافى مع كل قاعدة ، وانها اساءات الى المجتمع اساءات لا سبيل الى السكوت عليها ، ورأوا من المظالم والموبقات والفضائح ما حمل الطامعين منهم بالحكم على تدبير مؤامرة تودي به ، فاتفق يزيد بن الوليد بن عبد الملك مع جماعة من المعتزلة وأهل داريّا والمزة في دمشق ، وقتلوه ، واستولى يزيد هذا على مقدرات الخلافة .

ولكن مدة ولايته لم تزد على خمسة اشهر اذ لقي حتفه في سن مبكرة . فنصب اخوه ابراهيم بن الوليد الذي بايعه الناس بدمشق ، « وكانت ايامه عجيبة الشأن من كثرة الهرج والاختلاط واختلاف الكلمة وسقوط الهيبة . »

واستغلّ مروان بن محمد بن مروان الفوضى ، فاقبل من الجزيرة على رأس عصابة ، ودخل دمشق في جيش كبير ، فهرب ابراهيم ، ولكن مروان جدّ في طلبه الى ان قتله وصلبه ، وقتل معه عبد

العزيز بن الحجاج ، ويزيد بن خالد القسري (والي سليمان بن عبد الملك على العراق والحجاز) .

٣ — انهيار

كان لانشقاق الامويين فيما بينهم ، ونشوء الفرق السياسية من معتزلة وراوندية وغيرهما ، وانتشار الروح الوثني في سواد الناس وابناء الاسرة المالكة ، وانقسام العرب الى نزاوية ويمانية ، واستعمال السيف والصلب والتحريق لدى كل مناسبة ، وفوضى الحكم في دمشق — كان لهذه العوامل مجتمعة ، وكلها من مخلّفات الحجاج ، كلّ اليد في إثارة التمرد على السلطة وتألب الاعجام على العرب .

في هذه الاثناء ، اي بين سليمان بن عبد الملك ومروان بن محمد ، راحت العناصر المقهورة المغلوبة ، سواء في الداخل والخارج ، تتكاثف وتتساعد . وكان اسلوب الحجاج الذي اتبع في قهر الخصام هو السائد على الحكام والعمال والقواد . فبه قُضيَ على اولاد المهلب ، وعلى زيد بن علي بن الحسين وابنه يحيى ، واليه انتهى الامويون فيما بينهم حين اخذوا يتراحمون .

وفي هذه الاثناء ايضاً نشأت الفرقة الراوندية التي تقول : ان احق الناس بالامامة بعد النبيّ هو العباس بن عبد المطلب لانه عمه ووارثه ، وان الناس اغتصبوه حقّه وظلموه أمره .

وعلى هذا الاساس تبرّأ الرواندیون من ابي بكر وعمر ، واجازوا بيعة علي بن ابي طالب . فلما انتهت الاحداث الى ايام مروان على ذلك الشكل الذي وصفناه ، كان الراونديون قد قرّروا

الامامة على الوجه التالي : ١ً – علي بن ابي طالب . ٢ – محمد بن الحنفية (ابن الامام علي) . ٣ً – ابو هاشم بن محمد بن الحنفية . ٤ً – علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب . ٥ً – محمد بن علي . ٦ً – ابراهيم بن محمد القتيل الذي قتل في حران . ٧ً – ابو العباس بن الحارثية المقتول .

وكان ابو مسلم الخراساني راونديا ، نشأ عبداً عجمياً – ومنهم من يقول بعروبته – واصبح على ممر الايام قهرماناً[1] لادريس بن ابراهيم الجعلي ، ثم آل امره الى الاتصال بمحمد بن علي ، ثم بابراهيم ابن محمد الامام – على الطريقة الراوندية – فأرسله هذا الى خراسان ، وامر اتباعه هناك بطاعته والانقياد اليه . وكان بارعاً ، فتمكن من ناصية الموقف وسيطر .

كان والي خراسان من قبل الامويين يومئذ ، نصر بن سيّار ، فكتب الى مروان بن محمد ، خليفة دمشق ، يعلمه بحرج الموقف ، ويستعجله المدد ، وضمّن كتابه الابيات التالية :

ارى خلل الرماد وميض جمر	ويوشك ان يكون له ضرام
فان النار بالعيدان تذكى	وان الحرب اولها كلام
فان لم تطفئوها تجنِ حرباً	مشمّرةً يشيب لها الغلام
اقول من التعجب : ليت شعري	أأيقاظٌ أميةُ ام نيام ؟
فان يك قومنا اضحوا نياماً	فقل : «قوموا فقد حان القيام»
ففري عن رحالك ثم قولي :	«على الاسلام والعرب السلام[2]»

[1] وكيل الاملاك والمزارع .
[2] هذه رواية المسعودي للابيات .

وصل رسول نصر الى مروان فوجده في امرٍ بلاء : الخوارج يملكون عليه الطرق ، ويزرعون في وجهه المصاعب ، فلا يخلص من فتنة حتى يقع في فتنة ، ولا ينتهي من معركة حتى يبدأ معركة غيرها ، فكتب الى عامله : «... ان الشاهد يرى ما لا يرى الغائب.»

واستنجد نصر بيزيد بن عمرو بن هبيرة الفزاري عامل مروان على العراق ، فلم يجبه يزيد لاشتغاله بثورات العراق القائم القاعد .

ثم اضطربت اليمن وزحفت منها جموع الخوارج من الاباضيين على مكة والمدينة فاحتلوهما . فتجهز مروان ومشى لمحاربتهم ، ولكن جبهة خراسان ضعفت ، ولم يبق لنصر ادنى طاقة على المقاومة ، فغادر خراسان حتى اتى الريّ ، وخرج عنها الى «ساوة» حيث مات كمداً .

ومشى ابو مسلم من ظفر الى ظفر ، ومروان يتخبط وينتقل من بلد الى بلد منتصراً مرة ، منهزماً اخرى ، متضعضعاً في انتصاره وانهزامه على السواء ، حتى بلغ الموصل فمنعه اهلها من الدخول . ولحقه عبدالله بن علي بجيش خراساني لجب ، فانسحب الى ان سقطت دمشق في يد عبدالله بعد حصار قصير ، ففرّ الى مصر ، وتبعه صالح بن علي فتمكن من قتله ، واستولى على الآثار التي يختص بها الخليفة كبردة النبي وغيرها . وهكذا انهارت السلطة العربية .

هذا ما افضت اليه سياسة الحجاج : اعاد الوثنية الى سابق ايامها وزرع الاحقاد في نفوس الناس على العرب ، ولم يجدِ فتكه بالخوارج والشيعة والزبيريين ولا بغيرهم .

قضى على العرب ومحق سلطانهم وهو يفتخر بالعرب !

٤ — درس وعبرة

كانت النتائج التي انتهت اليها سياسة الحجاج غامضة الدلالة ، مغلقة على اكثر الاذهان ، حتى ضاعت عنها الاجيال ، ولا تزال ضائعة عنها الى يومك هذا ...

كثيرون هم الذين يعتقدون ان الحجاج بطل من ابطال العروبة ويباهون الآخرين — بكل بساطة وهدوء وارتياح — بما حقق من فتوحات ، وأبدى من براعة في قتال الثائرين ، والقضاء على مختلف الحركات الفكرية التي نشأت في عهده .

وأحسب ان الذين أعجبوا بالحجاج ، وأخذوا بما اظهر من عنف يسمونه « حزماً » وشراسة يسمونها « قوة » — أحسب ان هؤلاء وامثالهم لم يوفقوا بعد الى تكوين فكرة قوية واضحة عن الحرية وقيمتها في بناء الامم ، بل اذهب الى ابعد من ذلك ، وارى ان هؤلاء الذين يؤيدون اسلوب الحجاج في الحكم والادارة انما يبرهنون بتأييدهم هذا على انهم منقسمون على انفسهم في النظر للاشياء والحوادث . فليتصوروا ان الحجاج يحكمهم اليوم ولننظر كيف يقولون ... ولكن احدهم لا يقر الحجاج على اعماله الا اذا كان هو في مكانته وقدرته وسطوته !

لقد كان بلاء هذه المجموعة من البشر الذين يسمون انفسهم « عرباً » ، انهم يضربون صفحاً عن قيمة الانسان ، فالكائن الانساني عندهم شيء حقير تافه ، لا وزن له بالغاً ما بلغ من العلم والاخلاق والفضل والمواهب الفكرية او الادبية او الفنية او الروحية . هذا هو عيب العرب قديماً وحديثاً ، وهذا هو سر بلائهم ومصدر

كوارثهم وينبوع آلامهم . ولسوف تبقى حياتهم على ما هي عليه من تفكك وقبح وبشاعة واضطراب وبؤس وتعاسة ، ما داموا يجهلون « قيمة الفرد » ويهملون الكيان الشخصي لكل انسان .

يجب ان يطلع العربي على « الجانب الهمجي » من شخصيته . وهمجية العربي ، كل عربي في كل عصر ومصر تتلخص في موقفه السلبي من غيره اياً كان هذا « الغير » .

تأمل هذه اللازمة التي لم تفارق لسان الحجاج منذ قدر على استعمالها الى يوم هلاكه : « يا حرسي !.. اضرب عنقه . » تأملها تجد ان هذا الحاكم لم يكن يفكر بحياة الآخرين ولا كان يهتم لما يصيبهم بحال من الاحوال ، فسواء لديه مات الناس او عاشوا ، أملقوا او اغتنوا ، سعدوا او شقوا . المهم ان يكون هو مرتاح البال ، منعّم العيش ، مرفّهاً في قيامه وقعوده ، ولو كلفت هذه الرفاهية هلاك المجموع . على ان هذه الظاهرة في الخُلق العربي التي جعلته « همجياً » حتى في ارقى اطواره الحضارية ، لم تقف عند دور من ادوار التاريخ ، ولا محتها كارثة ، ولا صقلها عذاب ، ولا هذبها ألم ، فهي لا تزال كعهدك بها تفرق بين العربي واخيه ، وتترك البـــاب مفتوحاً لكل اجنبي طامع ، وتفسح امامه في مجال الدس والطعن وتغريه بإستعباد العرب واستثمار منازعاتهم وخلافاتهم ومصائبهم ، حتى اذا تغلغل في حنايا وجودهم ، وعرقل اسباب تقدمهم ، وحطم مقاومة الاحرار منهم ، رجعوا الى « لازمتهم » السياسية المعروفة الا وهي لوم الاجنبي ، والتحامل عليه ، وجعله مسؤولاً عن كل ما اصابهم وما يصيبهم ، وفي ذلك من المغالطة والشطط وسوء الفهم ما لا حاجة الى تبيانه .

واذا انت اعدت النظر في سيرة الحجاج تجد مصداق هـذا الحديث ، فقد اوغل ذاك الحاكم في القتل والفتـك حتى اتى على زهرة الشباب العربي . وجاء من بعده خصامه يهدمون ما بنى ، ويحصدون الذين ايدوه ونصروه حتى اتوا على البقية الباقيـة من العرب . فكان من الطبيعي ان تخسر السلطة العربية المعركة مع اهل خراسان ، وكان من الطبيعي ان تسقط دمشق في يد جماعـة العباسيين ، اي في يد الاجانب .

وجاء العباسيون فكان سلوكهم كسلوك اسلافهم الامويين، اي انهم استهدفوا القضاء على خصامهم من العرب ، تساندهم في ذلك عناصر الفرس اولاً ، ثم الاتراك ، حتى اقبل المتوكل على الله وليس حوله غير الاجانب ، اذ انحدرت الجماعات العربيـة نحو الذل والتخاذل ، وانتقلت السيادة منهم الى غيرهم عليهم بصورة تدريجية افضت الى استيلاء العثمانيين على كل بلد يتكلم اهله كلاماً عربياً.

تلك هي مأساة العرب : لا يتمكن واحـدهم من القوة الا ويستخدم قوته في محاربة اهله ، واذلال خصامه ، والفتك بعشيرته . وتلك هي رواية الحجاج من اولها الى آخرها .

وكان من العباسيين بعد ان استولوا على دمشق ان اسرعوا الى قبور الامويين فنبشوها واحرقوا ما وجدوا من جثة هشام ابن عبد الملك ، وجثة سليمان اخيه ، ثم استخرجوا بقايا الوليـد وعبد الملك ويزيد ومعاوية واحرقوها ، حتى انتهوا الى جثـة الحجاج في واسط فاحرقوا القبر كله . أرأيت الى هـذه الاحقاد التي كانت تنتقل من جيل الى جيل؟ أرأيت الى ذلك العنف في الخصومة؟ أرأيت الى الطغيان ونتائجه؟

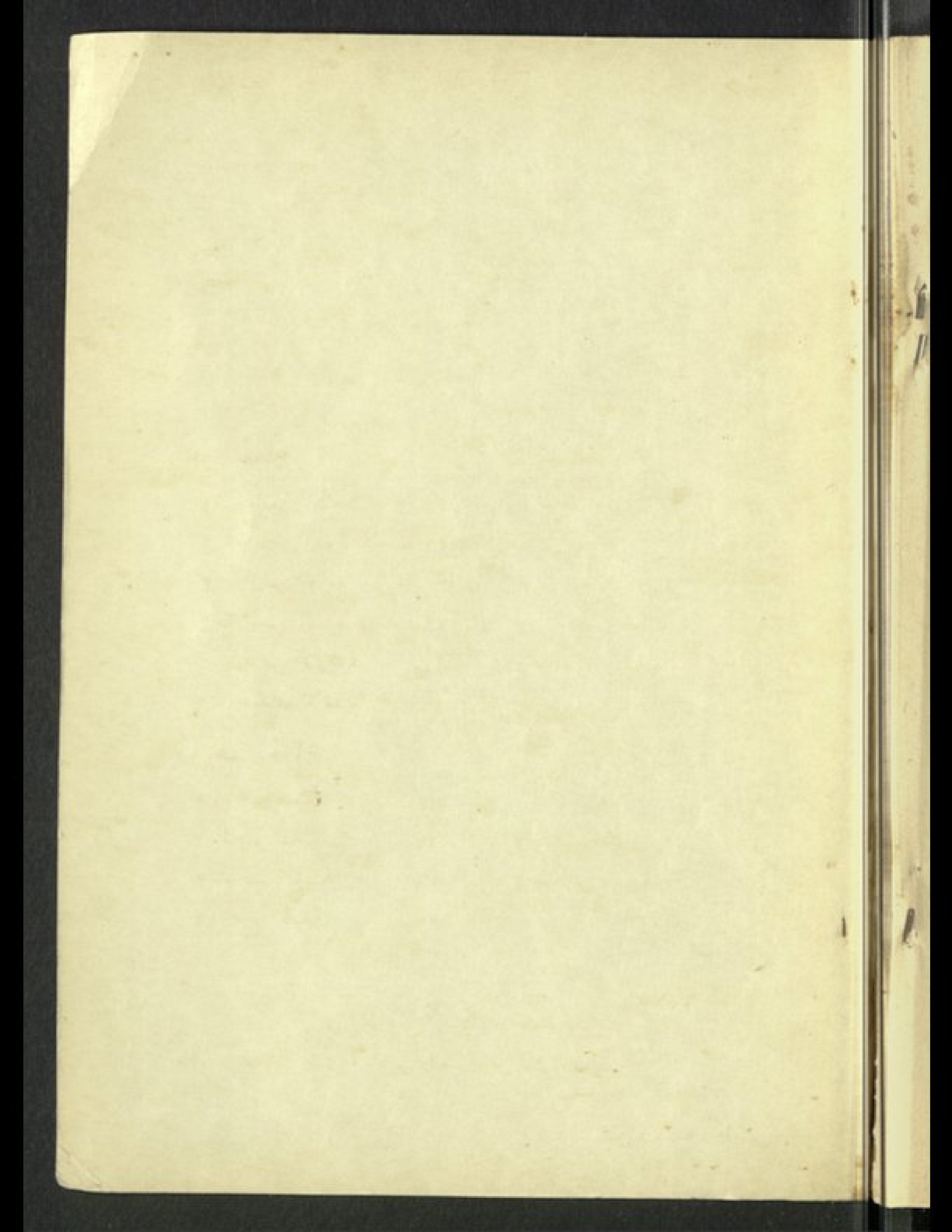
تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٧	٢٠	إكثارها	إكبارها
٨	٨	والعروشُ	والعروشِ
١٣	١	والغاياث	والغايات
٢٣	٣	إما	أما
٢٤	٢٣	لوهن	الوهن
٣٢	٢٢	عن	من
٤٠	٢٠	عذّى	غذّى
٤٤	٧	لوجل	الوجل
٤٥	١٦	الحظيم	الحطيم
١٢٨	١٠	ساقه	ساقها
١٧٤	٣	فتنبًا	فتبًا
١٧٥	٩	وعشرين	وعشرون
١٩٤	١٨	لمجتمع	المجتمع
١٩٥	١٨	نهيا	نهباً
١٩٩	٢	يشد	ينشد
٢٠٠	١٩	الحكومة	المحكومة
٢٠٢	١٠	بعد تركته	بعد ان تركته

تنبيه : فاتنا ان نذكر في الصفحة ١٨ تعليقاً على ذكر الخلافة بعد النبي ان الشيعة يذكرون في روايات متعددة ان النبي نص بصراحة على خلافة الامام علي بن ابي طالب .

فهرس

انتهى طبع هذا الكتاب على مطـابع نصار
في اليوم الخامس والعشرين من آذار ١٩٥٠ .



DATE DUE

